المملكة العربية السعودية
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية
فرع الأدب والبلاغة والنقد
شعبة الأدب
مرحلة الماجستير

الزهـــــد

في الشعر الأندلسي حتى أواخر القرن الثالث الهجري

دراسة أدبية

مقدمة للحصول على درجة الماجستير في الأدب

من الطالبة

ناجيــة ناحي دخيل الله السعيــدي

الرقم الجامعي (٤٢٦٨٠٢٧٣)

إشـــراف

الأستاذ الدكتور / مصطفى حسين عناية



ملخص الرسالة

عنوان الرسالة : الزهد في الشعر الأندلسي حتى أواخر القرن الثالث الهجري

الدرجة العلمية : مـاجستير

موضوع الرسالة : تتناول الدراسة الزهد في الأندلس حتى أواخر القرن الثالث الهجري ، هذه الحقبة المتقدمة المضطربة من تاريخها ، بسبب كثرة الفتن والأحداث السياسية ، وحقيقة بداية انطلاق الزهد وأشعاره في هذه المرحلة ،وأهم الأسباب التي أدت إلى انطلاق مثل هذه الأشعار ، والشخصيات التي تناولت هذا الغرض الشعري من الشعراء والفقهاء وغيرهم . هذا إلى جانب المحاور الأساسية التي دار حولها مجمل ما وصلنا من أبيات، مع دراسة وتحليل لأهم الأبيات الشعرية في هذا الجانب .

الهدف من الرسالة : التعرف على هذا الاتجاه الراقي في الشعر العربي ،وحقيقة ظهوره ، وبدايته ، وانتشاره في بلاد الأندلس ،والعوامل التي أدت إلى ذلك .

منهج الرسالة : اعتمدت في إعداد هذا البحث على الجمع بين المناهج المختلفة ،خاصة المنهج الوصفي التحليلي ،ذلك لما يتطلبه الموضوع من بيان للمؤثرات البيئية والدينية ،وما تركته من أثر واضح في شخصية الشعراء ،مما جعلهم يترجمون ذلك الأثر في أبياتهم الشعرية ، مع تحليل لموروثاتهم الشعرية ،ودراسة الظواهر الفنية فيها .

من نتائج الرسالة : اقتران انطلاق شعر الزهد بثورة الفقهاء على الحكم الربضي لتحرره ومجونه في بداية حكمه ، فكان شعر الزهد تنفيساً عن موجات الغضب التي انتابت الفقهاء وغيرهم من أفراد المجتمع في تلك المرحلة . بروز الشخصية الأندلسية الدينية التي تتجلى في الاعتماد على المصادر الدينية والعلم الواسع بكتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام الذي يظهر في كثرة اقتباسهم من هذه الأصول لفظا ومعنى وفكرة . توافر الانفعال الصادق والتجربة الشعرية في أبيات الزهد التي تترجم في الغالب حقيقة وواقعاً ملموساً .

الباحثة : ناجية ناحي السعيدي **المشرف :** الأستاذ الدكتور/ مصطفى حسين عناية

Abstract

The title : The asceticism in Andalusia poetry until the end of the third Hijri century
Scientific : Master degree
The study issue : It handle the asceticism in Andalusia until the end of the third Hijri century . This was a disturbance era of its era due to the increasing of lies and political events . The facts of beginning of asceticism and its poetry was in this phase . It Handel The most important reasons that led to this poetry , and the personality who treated with kind of poetry from poets . This is beside the main axis which all we reached from verses , with a study and analysis for the most important poems in this aspect .
Aim of the study : Identifying to this promoted trend of poetry , the fact of its appearance , its beginning , its spread in Andalusia and the factors which lead to this .
The study methodology : I relied on this study to collect between the different types of methodologies , especially the analysis descriptive one , for the issue requires a statement of the environmental and religious influences . And what it a distinctive influence in the poets which lead them to translate this influences in their poems , with analysis of their poems heritage and a study of the techniques .
From the results of the study : The connection between the beginning of asceticism poetry with the revolution of the wise men against the Rabdi rule for his liberty and corruption in the beginning of his era . The asceticism poetry was a reflection about the anger of the wise men , and other people of the society . The distinctive of the Andalusia character which relies on the religious resources and the broad learning with the Holly Quran . , which is clear from their derivation of these recourses . The efficient of the truthfulness of emotion and experimented experience in the poems of asceticism which translated in the reality into fact .

Researcher / Nagia Nahie Al-Seaidi
The supervisor / Prof. Mustafa Hussien Enaia

المقدمة

مُقَدِّمَة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه واهتدى بهداه إلى يوم الدين ......وبعد

لقد عاش الأدب العربي في أحضان الأندلس قرابة ثمانية قرون متأثرا بكل ما فيها من مظاهر الحياة بجوانبها السياسية والاجتماعية والفكرية كافة ، وهي مدة لا يستهان بها في دراسة الأدب الذي يعد مرآه صادقة لأي عصر من العصور نطلع من خلالها على الوجه الحقيقي لهذا العصر وما يميزه من خصائص وسمات ينفرد بها عما سواه . .

الأندلس تلك البلاد التي أنتجت حضارة إسلامية عريقة أصبحت جناحاً من العالم الاسلامي بعد الفتح الإسلامي لها عام ٩٢ هـ، الذي ترك أثرا واضحا في مختلف مظاهر الحياة فيها ومن ضمنها الحياة الأدبية ، بنثرها ،وشعرها .وقد تنوعت فنون الشعر واختلفت أغراضه ،حتى خرجت عن المنهج المحافظ لها إلى اتجاهات جديدة أوسع وأرحب من ضمنها الخمريات ، والغزل المذكر ، والمجونيات ، وكذلك الطبيعيات والزهديات .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الكثير من هذه الفنون حظيت باهتمام وعناية بعض الباحثين والدارسين ، وكذلك ما شاع في الأندلس من فنون جديدة كالموشحات والأزجال التي دارت حولهما كثير من الدراسات ، إلا أن ما يهم في الأمر هو تسليط الضوء على الاتجاه الذي يعد أحد اتجاهات الشعر العربي في تلك المرحلة ،وهو اتجاه الزهد وعلى الخصوص في هذه المرحلة التي بدئت بالفتح الإسلامي في الأندلس إلى أواخر القرن الثالث الهجري .

هذا الاتجاه الذي عُرف في هذه المرحلة وكُتب لطبقة العامة في المجتمع ، قد أهمل بعض الدارسون دراسته مع أنه يمس جوهر القيم الروحية الدينية ، في حين أنني أجد بعض الدراسات دارت حول الزهد في عصر ملوك الطوائف وعصر المرابطين والموحدين ، إلا أن المرحلة التي سبقت ذلك ولسبب أجهله أغفلتها الكثير من الدراسات الحديثة .

وبناء على اقتراح من المرشد جزاه الله خير الجزاء ،رغبت في التعرف على اتجاه الزهد في الأندلس وحقيقة بدايته وانتشاره ، والعوامل التي أدت إلى ذلك ، فاتجهت إلى البحث في هذا الموضوع أملاً في إكمال النقص وسد الثغرة ، وتلافيا للإهمال لتلك المرحلة التي تشكل أهم المراحل التي مرت بها الأندلس حيث أشرق في سمائها الدين الإسلامي مشكلا حضارة إسلامية عريقة ما تزال آثارها باقية إلى يومنا الحاضر . وبذلك شرعت في إعداد هذه الدراسة التي تحمل عنوان (الزهد في الشعر الأندلسي حتى أواخر القرن الثالث الهجري) .

وقد اقتضت طبيعة هذا الموضوع أن أجعله في فصلين أخصص الفصل الأول للدراسة الموضوعية والفصل الثاني للدراسة الفنية .

وسوف أجعل الفصل الأول في مبحثين المبحث الأول مصادر شعر الزهد فأتحدث عن مصادر شعر الزهد كالقرآن الكريم ،والحديث الشريف ،وأقوال أهل العلم من الزهاد والنساك .

أما المبحث الثاني فسوف أخصصه للحديث عن محاور شعر الزهد مثل الحديث عن الموت والدنيا الفانية والآخرة ،وغيرها من الموضوعات التي تطرق لها شعراء الزهد .

وسوف اجعل الفصل الثاني في ثلاثة مباحث أتحدث في المبحث الأول عن اللغة والأسلوب ،أما المبحث الثاني فسوف أخصصه للصورة الشعرية في شعر الزهد والمبحث الثالث والأخير سأخصصه للحديث عن الموسيقى من أوزان وقواف وإيقاع .

وفي نهاية الدراسة أختم الموضوع بتقديم أبرز النتائج التي توصلت إليها ، مع تقديم فهرس خاص بشعراء الزهد المغمورين للتعريف بهم .

وقد اعتمدت في إعداد هذا البحث على الجمع بين المناهج المختلفة ،خاصة المنهج الوصفي التحليلي ،ذلك لما يتطلبه الموضوع من بيان للمؤثرات البيئية والدينية ،وما تركته من أثر واضح في شخصية الشعراء ،مما جعلهم يترجمون ذلك الأثر في أبياتهم الشعرية ، مع تحليل لموروثاتهم الشعرية ،ودراسة الظواهر الفنية فيها .

وقد تنوعت مصادري ما بين القديم والحديث ، ومن أهمها :

من القديم :ديوان يحيى بن الحكم الجياني ، وديوان ابن عبد ربه ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب –لأحمد بن المقري التلمساني ،وجذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس– للحميدي ،وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ،وغيرها .

ومن الحديث : الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكل ،والأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه للدكتور مصطفى الشكعه ، وتاريخ الأدب الأندلسي –عصر سيادة قرطبة– للدكتور إحسان عباس ،وغيرها من المراجع والمصادر المهمة التي أسهمت في إضاءة الموضوع وتنويره .

وأخيراً ..وليس آخراً ..آمل من الله عز وجل بفضله ومَنّه وعطائه أن أوفق في الوفاء بحق هذه المرحلة الهامة ،وما يلزمها من متطلبات ، وما يضيء جوانبها من معطيات .

هذا . . وإن وفقت في ذلك فمن الله عز وجل صاحب الفضل ومعطيه ومانحه لمن يشاء من عباده ،وإن أخفقت فحسبي من نفسي أني اجتهدت ،وما جهدي إلا جهد بشري يقع تحت طائلة الخطأ ، والنقص ، والنسيان ،وأسأل الله العلي القدير أن لا أحرم أجر المجتهدين .

وانطلاقا من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (من لا يشكر الناس لا يشكر الله) أتوجه بالشكر الجزيل ، لكل من آزرني ،ودعمني ،ووقف إلى جانبي في هذا المشوار الطويل ، وأخص بالشكر إلى من يرجع إليه الفضل بعد الله عز وجل في إخراج هذا البحث إلى النور ،إلى أستاذي وموجهي الدكتور الفاضل مصطفى حسين عناية ، جزاه الله عني وعن طلاب العلم خير الجزاء .

كما أتوجه بعظيم الشكر والامتنان إلى عضوي لجنة المناقشة على تفضلهما بقبول مناقشة هذه الرسالة ،جعل الله ذلك في ميزان حسناتهما ،ووفقني إلى الإفادة من ملاحظاتهما وتوجيهاتهما الكريمة .

والشكر موصول إلى جامعة أم القرى ممثلة في قسم الدراسات العليا العربية على ما تبذله من جهد ،وما تقدمه من تيسير ورعاية واهتمام بطلابها . .

. . هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

الباحثة

ناجية ناجي السعيدي

المدخل

تعريف الزهد لغة واصطلاحاً:

تدور مادة (زهد) في اللغة حول الإعراض عن الدنيا ، فقد ذكر الجوهري أن الزهد " خلاف الرغبة "[1] . ويرى ابن منظور أن " الزُّهد ضد الرغبة والحرص على الدنيا والزَّهادةُ في الأَشياء كلها ضد الرغبة" [2] ، ويعرفه ابن دريد بقوله إن: " الزُّهد خلاف الرغبة والزاهد في الدنيا : التارك لها ولما فيها " [3] .

أما عند ابن سيده "فالزُّهْدُ -في الدين خاصة- ضد الحرص على الدنيا . والزَّهادةُ - في الأشياء كلها - ضد الرغبة"[4] .

أجمعت هذه التعريفات على أن الزهد ضد الرغبة ، ويقابل الرغبة الإعراض أي أن الزهد في اللغة هو الإعراض عن الدنيا ولا يكون ذلك إلا مع بغضها وعدم الحرص عليها .

أما في الاصطلاح فقد تعددت أقوال السلف الصالح في تعريف الزهد في الدنيا ، وأغلبها تدور حول خلو القلب منها وعدم التعلق بها .

فقد عرفه ابن عباس بقوله : " الزهد أن لا يسكن قلبك إلى موجود في الدنيا ، ولا يرغب في مفقود منها "[5] .

---

١ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية –إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار- الطبعة الثانية-بيروت ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م - دار العلم للملايين –مادة (زهد)

٢(لسان العرب) - لابن منظور ، يوسف خياط-ط١– دار لسان العرب – بيروت– مادة (زهد)

٣ جمهرة اللغة –لابن دريد– ط١–سنة ١٣٤٥هـ- مكتبة المثنى –بغداد- باب الدال والزاي- مادة (زهد)

٤ المحكم والمحيط الأعظم –لابن سيدة ، تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي– الطبعة الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م– دار الكتب العلمية –بيروت - ٤/ ٢٢٨

٥ الزهد الكبير ، لأحمد بن حسين البيهقي- الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م - دار القلم –الكويت –ص ٨٦

وهو عند الجرجاني : " بأنه ترك راحة الدنيا طلبا لراحة الآخرة ، وقيل أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك "[1] .

ويستدل من ذلك على أن الزاهد من ترك الدنيا وأعرض عنها وإن أقبلت عليه ، وانصرف عن ملذاتها وإن كانت بين يديه ، فلا يفرح بما أتاه منها ولا يحزن على ما فاته .

وقد قيل لأبي موسى الديبلي :"ما الزهد في الدنيا ؟ قال:(لا تيئس على ما فاتك منها ،ولا تفرح بما أتاك منها)"[2] .

وقال ابن السّماك:" الزاهد الذي إن أصاب الدنيا لم يَفرح، وإن أصابتْه الدنيا لم يحزن، يضحك في المَلا ، ويَبْكي في الخَلا" [3] .

فمن رغب عن الدنيا ، عظمت في عينه الآخرة ، وأقبل عليها ، وكان ذلك عونا له على الاستعداد لها بالصالح من الأعمال بإذن الله .

كما قيل في الزهد بأنه:" ترك الشبهات خوفا من الحرام "[4] . وهذا لا يعد من التعريفات بقدر ما هو من أنواع الزهد إذ إن للزهد عدة أنواع ، ذكرها إبراهيم بن أدهم في قوله:

---

١ التعريفات – لعلي بن محمد الشريف الجرجاني، تحقيق الدكتور محمد عبد الرحمن المرعشلي – الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ–٢٠٠٣م- دار النفائس –ص ١٨٤

٢ الزهد الكبير – ص٨٧

٣ كتاب العقد الفريد – لأبي عمر أحمد بن عبد ربه الأندلسي ، شرحه وضبطه ورتب فهارسه أحمد أمين – إبراهيم الابياري–عبد السلام هارون–دار الكتاب العربي – بيروت– ٣/ ١٦٦

٤ أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم- صديق بن حسن القنوجي ،تحقيق عبد الجبار زكار- دمشق-١٩٧٨م – منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي- ٢/ ٣١٤

" الزهد ثلاثة أصناف: فزهد فرض ،وزهد فضل ،وزهد سلامة ،فالزهد الفرض الزهد في الحرام ،والزهد الفضل الزهد في الحلال ،والزهد السلامة الزهد في الشبهات "[١] .

فالزاهد من يتقي مواطن الشبهات خوفاً من الزلل والوقوع في الحرام ، بدءاً بالورع الذي يجعل صاحبه يترك الحلال مخافة الشبهة ، وينتهي به ذلك إلى حب الله عز وجل .

ومع كثرة التعريفات للزهد إلا أن أجمع تعريف له هو ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال :"الزهد المشروع ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة"[٢] .

ويعد جامعا لأنه جمع بين الإعراض عن الدنيا ، و الحرص على الآخرة، وبين ترك ما في الدنيا من ملذات ومتع فانية ،والإقبال على الآخرة بكل عمل صالح ينفع الإنسان يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

حقيقة الزهد :

إن الزهد في الدنيا من الأمور التي حث الله عز وجل عليها في كتابه الكريم ، وذلك ببيان حقارة الدنيا في عدة آيات منها قوله تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[٣] .

١ الزهد الكبير – ص٩٦

٢ مجموع فتاوى ابن تيمية – جمع وترتيب عبد الرحمن محمد بن قاسم – مكتبة المعارف –الرباط – ١١/ ٢٨

٣ الحديد : ٢٠

وقوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ (١) . ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ (٢) .

والرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد في كثير من أحاديثه زوال الدنيا وفناءها ويرغب في الزهد فيها والعزوف عنها فيقول عليه الصلاة والسلام: (ما لي وللدنيا ، مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها) (٣) .

ويقول عليه الصلاة والسلام مبينا حقارة الدنيا :(ما مثل الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع) (٤) . ويحذر – عليه أفضل الصلاة والسلام – من الدنيا والانشغال بها ، ويرغب في الآخرة والإقبال عليها في قوله : " من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيته ، جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة" (٥) .

---

١ آل عمران : ١٤

٢ فاطر : ٥

٣ المسند -لأحمد بن حنبل ، شرحه أحمد محمد شاكر -ط٢-دار المعارف - مصر - ٦/ ٤٢٠٨-٤٢٠٧

٤ سنن ابن ماجه ،تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي-ط١-١٩٨٧م-دار الكتب العلمية-بيروت - كتاب الزهد-باب٢-٣-رقم الحديث ٤١٠٨ -٢/١٣٧٦

٥ سنن ابن ماجه—كتاب الزهد-باب (١-٢) —رقم الحديث ٤١٠٥ -٢/١٣٧٥

كما ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم بحياته مثلا رائعا في الزهد يجدر بأمته التأسي به فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اللهم أجعل رزق آل محمد قوتا)[1] ،والأمثلة في السيرة النبوية على زهد الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة ،ولا مجال لذكرها في هذا المقام ،وما يهمني هنا أن هذه الحياة المحمدية كانت نبراسا لكثير من الزهاد .

فمنذ فجر الإسلام الأول أخذت أسماء كثير من الزهاد تتألق وتأخذ موضعها الحقيقي من تاريخ الأمة الإسلامية مقتدين بهادي البشرية الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام وصحبه الكرام ، متخذين الزهد منهج حياة ، وحملت الكثير من كتبهم ومؤلفاتهم مسمى الزهد مثل الزهد لأحمد ابن حنبل (١٦٤هـ-٢٤١هـ)[2]، والزهد لأبي حمزة الثمالي المتوفى سنة ١٥٠هـ ، وهو من أهل الكوفة ، ومن رجال الحديث الثقات[3] ، والزهد للدارمي (١٥٢هـ-٢٤٣هـ) وهو هناد ابن السري بن مصعب التميمي الدارمي من حفاظ الحديث وشيخ الكوفة في عصره[4] ، وغيرهم من الزهاد الذين اهتموا بهذا الجانب والتأليف فيه ،تاركين بزهدهم بصمة في الحياة لا يمكن تجاهلها .

---

١ صحيح مسلم بشرح النووي – المطبعة المصرية ومكتبتها –كتاب الزهد- ١٨/١٠٥

٢ انظر الأعلام – خير الدين الزر كلي – دار العلم للملايين – بيروت- ط٤ -١٩٧٩- ١/ ٢٠٣

٣ نفسه –٢/٩٧

٤ نفسه – ٨/ ٩٦

ومن الجدير بالذكر أن الدين الإسلامي ممثلاً في الكتاب والسنة يحث على الإعراض عن الدنيا والزهد فيها ، ولكن لا تعد كل حالات الإعراض عن الدنيا ، والانقطاع التام للعبادة والانعزال ، وهجر الحياة الاجتماعية ، وإهدار قيمة المال وعدم الحفاظ عليه ، من الزهد الذي حث عليه الإسلام . فما حث عليه الدين الإسلامي أسمى من ذلك بكثير ، إذ يحث على الزهد الذي تكون فيه الدنيا في يد الإنسان لا في قلبه .

أي أن يمتلكها بين يديه وينفقها في أوجه الخير ، لا أن تملكه الدنيا وتستحوذ على قلبه وتفكيره فيشقى بها .

ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾[1] ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي)[2] .

فجمعت كل من الآية والحديث بين التقوى والغنى وهذا دليل على أن وجود المال بين يدي الإنسان التقي الغني المنفق في أوجه الخير لا يتعارض مع الزهد الذي حث عليه الإسلام . كما قال عليه الصلاة والسلام :"ليس الزهادة في الدنيا بتَحْريم الحَلال، ولا في إضاعة المال، ولكنّ الزهادَة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق منك بما في يد الله"[3] .

---

١ الليل : ١٧ إلى: ٢٠

٢ صحيح مسلم - ١٨/ ١٠٠

٣ سنن ابن ماجه -كتاب الزهد - باب ١ - رقم الحديث ٤١٠٠-٢/ ١٣٧٣

ويؤكد ابن تيمية حقيقة أن الزهد قد يكون مع الفقر والغنى في قوله:" لما كان الفقر مظنة الزهد طوعا أو كرها ؛ إذ من العصمة أن لا تقدر وصار المتأخرون كثيرا ما يقرنون بالفقر معنى الزهد ، والزهد قد يكون مع الغنى وقد يكون مع الفقر . ففي الأنبياء والسابقين الأولين ممن هو زاهد مع غناه كثير" [1] .

كما يفرق الدكتور علي نجيب عطوي بين كراهية الدنيا ، وبين عدم حبها والتمسك بها ، وذلك ببيان حقيقة الزهد في المعتقد الإسلامي حيث يقول :"والزهد في الدنيا في المعتقد الإسلامي ، لم يكن المقصود به كراهية الدنيا ، وعدم الالتفات إليها ، وإنما كان المقصود به عدم حب الدنيا والتمسك بها ، وفرق كبير بين المنزلتين ، فالكراهية تدعو إلى التباعد والدفع والنفور ، وعدم الحب ، ليس فيه أكثر من عدم الاهتمام ، وعدم الالتفات ، والترقب وعدم التطلع "[2] .

ونستدل من كل ما سبق أن وجود الأموال ومتع الدنيا الحلال بين يدي الزاهد لا يتعارض مع الزهد الذي حث عليه الإسلام ، فمن الخطأ قصر مفهوم الزهد على الزهد في المال والمتاع الدنيوي وأرجح الدكتور مصطفى حلمي سبب هذا الخطأ عند بعض الكتاب والباحثين لتأثرهم بمفاهيم المستشرقين المتمثلة في الانقطاع التام عن الدنيا وملذاتها[3] .

---

١ مجموع فتاوى ابن تيمية – ١١/ ٢٨

٢ شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة ، د.علي نجيب عطوي- ط ١ – ١٤٠١هـ /١٩٨١م – المكتب الإسلامي-بيروت – دمشق- ص٣٠

٣ انظر الزهاد الأوائل ، د/ مصطفى حلمي – ط١- المحرم سنة ١٤٠٠هـ/ديسمبر سنة ١٩٧٩م – دار الدعوة-الإسكندرية- ص٩

الزهد في الكتاب والسنة :

لقد تناول القرآن الكريم الزهد بلفظه في موضع واحد فقط ، وهو موضع ذم لا مدح وذلك في قصة يوسف عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾[1] . أي على زهد فيه وعدم رغبة .

ولم يعتنِ المفسرون بندرة هذه المادة (مادة زهد) في القرآن الكريم ، وإنما انصرفوا إلى تفسير معنى الآية ، مبررين الزهد في شخص يوسف عليه السلام .

ففسر القرطبي هذه الآية بقوله : "قيل: المراد إخوته ، وقيل: السيارة ، وقيل: الواردة، وعلى أي تقدير فلم يكن عندهم غبيطا ، لا عند الإخوة، لأن المقصد زواله عن أبيه لا ماله، ولا عند السيارة لقول الإخوة إنه عبد أبق منا - والزهد قلة الرغبة - ولا عند الواردة لأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم، ورأوا أن القليل من ثمنه في الإنفراد أولى"[2] .

وفسر الطبري الضمير في (وكانوا) بقوله : "إن عاد إلى الإخوة فقلة رغبتهم في يوسف ظاهرة وإلا لم يفعلوا به ما فعلوا ، وإن عاد إلى الرفقة فذلك أنهم اعتقدوا أنه أبق فخافوا إعطاء الثمن الكثير"[3] .

---

١ يوسف : ٢٠

٢ الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري للقرطبي- ط٣-١٣٨٧هـ-١٩٦٧م - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر- القاهرة- ٩/ ١٥٧

٣ تفسير الطبري ، لابن جرير الطبري-دار الفكر للطباعة والنشر-بيروت-١٣٩٨هـ-١٩٧٨م - ١٢/ ١١٢

وفي تفسير هذه الآية يقول ابن كثير " أي: ليس لهم رغبة فيه ، بل لو سئلو بلا شيء لأجابوا . . ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ إنما أراد إخوته، لا أولئك السيارة، والدليل على ذلك أن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه " [1] .

فأجمعت هذه التفاسير أيضا على معنى واحد للزهد وهو قلة الرغبة أو عدم الرغبة في الشيء ،فكون أخوة يوسف لا يعلمون قدره ومنزلته عند الله عز وجل جعلهم يزهدون فيه ، ويتخلصون منه ،وكون السيارة رغبوا فيه ،جعلهم يقبلون عليه بالشراء فيستدل من خلال تبرير هذه التفاسير لزهد أخوة يوسف فيه ، أن الزهد في الشيء هو عدم الرغبة فيه والإعراض عنه .

أما في السنة النبوية فقد ورد الزهد بلفظِهِ في عدة مواضع منها قول الرسول عليه الصلاة والسلام مرغبا في الزهد : (ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك) [2]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهدا في الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة) [3] . فالزهد في الدنيا ،هو الإعراض عنها ، وهو اختيار الحبيب المصطفى في حياته ، لذا يرغب فيه أمته ، ويدعوهم إليه لأن ذلك مناط الحكمة ، ولما يترتب عليه من محبة الله عز وجل .

---

١ تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير –ط٦- ١٤١٣هـ-١٩٩٣م -دار المعرفة-بيروت-٢/ ٤٨٩

٢ سنن ابن ماجه - كتاب الزهد-باب١-رقم الحديث ٤١٠٢-٢/١٣٧٤

٣ نفسه - كتاب الزهد-باب١-رقم الحديث ٤١٠١-٢/١٣٧٣

الزهد في الأندلس :

عُرفت الأندلس بكثرة زهادها ويؤكد ذلك ابن بشكوال (ت ٤٩٤هـ) الذي صنف كتاباً بعنوان (زهاد الأندلس وأئمتها) ، إلا أن هذا الكتاب لم يصل إلينا حيث طوته محن الزمان التي عدت عليه[1] . كما عُرفت بكثرة الشعراء الزهاد ، ويؤكد ذلك قاسم بن نصير (ت ٣٣٨هـ) الذي تخلى عن الدنيا في آخر عمره ،وأكثر من شعر الزهد وذم الدنيا في ديوانه ،وصنف كتابا أكثره في الزهد بعنوان (الشعراء من الفقهاء بالأندلس) ، ضمنه العديد من شعره في الزهد[2] .

هذا بالإضافة إلى كتب أخرى اعتنى العلماء والكتاب الأندلسيون فيها بالزهد وجمع أخبار الزهاد وأشعارهم ،ذكر منها الزركلي في أعلامه (أخبار الزهاد والعباد) لابن عفيون الغافقي ، وهو محمد بن أبي بكر بن يوسف بن عفيون الغافقي المتوفى بعد سنة ٥٨٤هـ ، فاضل أندلسي من أهل شاطبة[3] ، و(أخبار صلحاء الأندلس) لقاسم بن محمد القرطبي المعروف بابن الطيلسان و المتوفى سنة ٢٤٢هـ[4] .

---

١ انظر الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ،د/ مصطفى الشكعه -ط٩ -دار العلم للملايين- بيروت- ص٥٧

٢ انظر تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ، لابن الفرضي-١٣٧٣/١٩٥٤- مكتبة المثنى ببغداد-ومكتبة الخانجي بالقاهرة- ٤٠٥/١-٤٠٦

٣ انظر الأعلام -٥٥/٦

٤ نفسه - ٥/ ١٨١

وورد منها في معجم المؤلفين (أنوار الأفكار فيمن دخل جزيرة الأندلس من الزهاد و الأبرار) لأبي العباس أحمد بن عبد الرحمن الأندلسي المتوفى سنة ٥٥٩هـ ، علما بأن هذا الكتاب لم يكمله مؤلفه [١] .

ولقد ضمت هذه المرحلة التي نحن بصدد دراستها الكثير من الزهاد من مختلف الطبقات سواء من الحكام كالأمير عبد الله[٢] ،أو من العلماء مثل محمد بن عبد السلام الخشني ،أو من العباد مثل موسى بن أصبغ المرادي، أو من الشعراء كابن عبد ربه والغزال ،إلا أن غالبيتهم من الفقهاء والقضاة من أمثال عبد الملك بن حبيب ،ومحمد بن بشير ، ويحيى بن يحيى الليثي . وقد شاع ذكر الكثير من القضاة الزهاد خاصة في عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم من أمثال مسرور بن محمد ،ويحيى بن معمر الألهاني ، والأسوار بن عقبة ، وغيرهم كثير ،وقد ورد في سبب كثرة هؤلاء القضاة زمن الأمير عبد الرحمن وشيوع ذكرهم ما ذكره ابن حيان القرطبي من أن الأمير عبد الرحمن كان شديد الثقة بالشيخ يحيى بن يحيى الليثي وآثره على أصحابه من الفقهاء ، وكان لا يولي رجلاً إلا بمشورته ورأيه ، فكان يحيى إذا أنكر شيئاً من القاضي قال له استعف وإلا رفعت بعزلك فيستعفي ،أو يعزل[٣] ،مما أدى إلى توالي القضاة على هذا المنصب فذاع صيتهم .

---

١ انظر معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة– دار إحياء التراث العربي –بيروت – ١/ ٢٦٨

٢ هو "عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام: من ملوك بني أمية في الاندلس.بويع له بقرطبة يوم وفاة أخيه المنذر (سنة ٢٧٥ ه) وكثرت الثورات في أيامه.وكان مقتصدا، كارها للسرف، كثير الصدقات والمبرات، ورعا، متفننا في العلوم، بصيرا بلغات العرب، فصيحا، يقول الشعر ويرويه".الأعلام ٤/ ١١٩

٣ انظر المقتبس من أنباء أهل الأندلس –لابن حيان القرطبي ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي- ١٣٩٠هـ/١٩٧١م –القاهرة– ص١٧٨

وعند دراستي لهذه المرحلة الهامة ،وحقيقة بداية شعر الزهد فيها ، تبين لي أن الأندلس قد عرفت في هذه المرحلة موضوعات شعرية متنوعة تندرج معظمها في الاتجاه الإسلامي الذي برز مع بداية الفتح الإسلامي للأندلس ، وشمل العديد من الموضوعات كان في مقدمتها شعر الفتوح والجهاد ، وذلك لما شهدته الأندلس في تلك المرحلة من فتوحات ومعارك وحروب ، بالإضافة إلى شعر الزهد الذي وُضعت بذوره في فترة تأسيس الإمارة وتشكلت أصوله ورسخت لبناته في فترة ما يسمى بصراع الإمارة ، حتى عدَّه الدكتور أحمد هيكل من الفنون المستحدثة في هذه المرحلة من تاريخ الأندلس[١] .

أما ما يعرف سياسياً بفترة الولاة ،وهي الفترة التي طُبعت بطابع الانشغال التام في المعارك والفتوح ، وذلك لما تتسم به من منازعات وحروب ،إما لتأكيد سلطان الفاتحين بتتبع الفارين والمناوئين ،أو للمنافسة على الولاية والمنازعة على السلطة بين العرب والبربر[٢] .

فقد أشار الدكتور أحمد هيكل في كتابه الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، إلى أن الشاعرين الوحيدين اللذين تردد شعرهما في هذه الفترة هما أبو الأجرب جعونة بن الصمة ، وأبو الخطار حسام بن ضرار[٣] ، الذي كان من ولاة الأندلس في تلك الفترة .

---

١ انظر الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د.أحمد هيكل – ط ٩ –١٩٨٥– دار المعارف– ص ١٣٠

٢ نفسه – ص ٥٨

٣ نفسه – ص ٦١ و ص ٦٢

وهذا لا يعني عدم وجود شعراء آخرين في هذه المرحلة، إذ من المؤكد وجود أسماء كثير من الشعراء، إلا أنها نسيت وضاعت مع ما ضاع من تراث الأندلس خاصة في هذه الحقبة الزمنية المتقدمة المضطربة من تاريخها [1] .

والسؤال هنا :هل اتجه هذان الشاعران إلى الزهد في حياتهما ؟أو تناولاه في شعرهما ؟ . . الحقيقة أنني في أثناء البحث وجدت أن كِلا الشاعرين وهما من العرب الطارئين على الأندلس ،لم يشكل الزهد اتجاه أحدهما ولم يصورا هذا الاتجاه في شعرهما .

إلا أنني أجد بعض معاني الزهد عند كل من أبي خطار حسام بن ضرار ،وشاعر آخر يدعى بكر الكناني –ذكر الدكتور أحمد هيكل أنه من شعراء هذه المرحلة ،واستدل على ذلك من سؤال أبي نواس عنه[2]– ومما ورد عند أبو الخطار من أبيات تتضمن معنى إسلامي يتمثل في الرضا بقضاء الله وقدره قوله:

إِذَا اتَّخَذْتَ صَدِيقاً أَو هَمَمْتُ بِهِ فَأَعْمَدْ لِذِي حَسَبٍ إِنْ شِئْتَ أَو دِينِ
مَا يَقْدِرُ اللهُ فِي مَالِي وفِي وَلَدِي لأَبُدَّ يُدْرِكُنِي لَو كُنْتُ بالصِينِ[3]

---

١ انظر الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة – ص٦٣

٢ نفسه – هامش ص ٦٣

٣ كتاب الحلة السيراء –لابن الأبار، تحقيق الدكتور حسين مؤنس–ط١–١٩٦٣م –الناشر الشركة العربية للطباعة والنشر –القاهرة– ١/ ٦٦

كذلك أبيات بكر الكناني التي يقول فيها :

وَمَـا المَـالُ والإِعـدَامُ إلاَّ كَعَـارِضٍ		أَنَـارَ سَـنَاهُ سَـاعَةً ثُـمَّ لم يَـدُمْ
فَـلا تَفـرَحَنْ بِالمَـالِ حِـينَ كَسَبْتَـهُ		ولا تُتبعنَّ النَّفسَ فِي فَقْـرِكَ النَـدَمْ
فَمَـا لـكَ صِـنو إلفـي يَـأْتِي بِـه الضّحَى		(. .) عِنْـدَ العِشِـي فَيَنْصَـرِمْ[1]

وهذه الأبيات الأخيرة –التي تتحدث عن المال وعدم دوامه – وصفها الدكتور سعد شلبي بأنها جيدة في الزهد[2] .

إلا أن ذلك لا يعني نسبة بداية شعر الزهد في الأندلس لهذه الفترة –فترة الولاة – وذلك لسببين :

أولهما : أن هذان الشاعران مع تميزهما في الشعر إلا أن المصادر لم تذكر لهما مما يمكن عده من الزهد سوى هذه الأبيات ،وهي من القلة بحيث لا يعتد بها في رسم صورة واضحة لشخصيتهما ،ونتاجهما الشعري في هذا الاتجاه .

ثانيهما : أن هذان الشاعران ،وغيرهم ممن برزت أسماؤهم في هذه الفترة ،هم وافدون على الأندلس ،وما وُجد من شعر سواء في الزهد أو غيره في هذه الفترة هو في حقيقته أدب مشرقي لا أندلسي .

---

١ كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس – لأبو عبد الله محمد بن الكتاني– تحقيق الدكتور إحسان عباس – سلسلة المكتبة الأندلسية ١٥– دار الثقافة -بيروت – ٢٧٩/٣

٢ انظر الأصول الفنية للشعر الأندلسي، الدكتور/ سعد إسماعيل شلبي- دار نهضة مصر للطبع والنشر–القاهرة -ص١٣٠

وبناء على ذلك يمكنني القول بإن هذه المرحلة التي عُرفت سياسيا بعصر الولاة ،والممتدة من الفتح الإسلامي للأندلس عام ٩٢هـ إلى قيام دولة بني أمية في الأندلس عام ١٣٨ ، لم يشكل الزهد اتجاه أحد من الشعراء الذين ذكرتهم المصادر في هذه الحقبة الزمنية.

ويرى الدكتور إحسان عباس في كتابه تاريخ الأدب الأندلسي أن شعر الزهد ولد في أحضان الثورة على الحكم الربضي (ت ٢٠٦هـ) ، وكانت في تلك الفترة عبارة عن أشعار في الزهد ينظمها الأتقياء ، ويتغنون بها في الليل ، ويضمنوها التعريض بالحكم لما كان عليه من عصيان [١] ، وقد اعتمد في رأيه هذا على ما ذكره المراكشي من موقف الزهاد من الحكم الربضي وسخطهم عليه حيث يقول :"وفي أيامه أحدث الفقهاء إنشاد أشعار الزهد والحض على قيام الليل في الصوامع –أعني صوامع المساجد –وأمروا أن يخلطوا مع ذلك شيئاً من التعريض به مثل أن يقولوا : يا أيها المسرف المتمادي في طغيانه المصر على كبره المتهاون بأمر ربه أفق من سكرتك وتنبه من غفلتك "[٢] . "ولو جاءنا ما قال الفقهاء هجوما على الحكم الربضي لاستطعنا أن نجلي وجه الحقيقة "[٣] ،ولكن لم يصلنا من أقوالهم في هذه الثورة إلا ما ذكره المراكشي في قوله السابق.

١ انظر تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ، د.إحسان عباس –سلسلة المكتبة الأندلسية ٢–دار الثقافة – بيروت– ط٧ – ١٩٨٥م– ص ١١٦

٢ المعجب في تلخيص أخبار المغرب – لعبد الواحد المراكشي ،تحقيق د.محمد زينهم محمد عزب– دار الفرجاني للنشر والتوزيع – القاهرة – ص ٣٠

٣ الأصول الفنية للشعر الأندلسي –ص ٢٨٢

إلا أن ما أثبتته المصادر من حقيقة كثرة الفقهاء في ذلك الوقت ، "ومن الفقهاء شعراء فلا بد أن يكونوا قد ضمنوا هذه المعاني زهدياتهم . . "[1]،يجعلني أدرك كثرة شعر الزهد في ذلك الوقت الذي لم يصلنا منه إلا القليل .

هذه الثورة التي عُرفت فيما بعد بثورة الربض قامت عام ٢٠٢هـ ،وكانت ثورة جماعية للفقهاء ضد الفساد المنتشر في تلك الآونة ، ساعدهم على ذلك الظروف المحيطة حيث شهدت سنوات حكم الربضي قحطا واحتبس المطر ،كما شهدت غلاءً شديدا وذلك عام ١٩٧هـ ،مما أدى إلى مجاعة كبرى عام ١٩٩هـ تعد أشد مجاعة مرت على الأندلس ذهبت بأرواح الكثير من الناس[2] .

أما قبل هذه الثورة فقد كان جهد الزهاد فردياً يقنعون بالعبادة ويجتهدون في النجاة بأنفسهم .

ويؤكد هذا الأمر (بالنثيا) بما لديه من" أخبار ترجع إلى أقدم العصور الإسلامية في الأندلس ،تحدثنا عن زهاد أندلسيين اجتهدوا في تعذيب أبدانهم وحرمان أنفسهم من اللذات وآثروا الفقر عن طواعية ،وكانوا يقطعون سواد الليالي في قراءة القرآن ،ويصومون الدهر ولا يأكلون إلا مرة واحدة في الأسبوع في شهر رمضان ،ولا يتداوون إذا مسهم مرض

،ويقيمون حياتهم عُزُباً ،ويخرجون عما بأيديهم للفقراء أو يفتدون به الأسرى ،ويقطعون

١ الأصول الفنية للشعر الأندلسي –ص ٢٨٢

٢ انظر حضارة العرب في الأندلس ، خير الله طلفاح–١٣٩٧هـ/١٩٧٧م –دار الحرية للطباعة –بغداد – ٦/٩٧–٩٨

العمر متوحدين بأنفسهم في عزلة وتأمل ،أو يرابطون على الثغور لمحاربة النصارى طلبا للشهادة . وكان هذا النسك خلال القرن الهجري الثاني أمراً فردياً ، يقنع الناسك فيه بالعبادة ويجتهد في النجاة بنفسه ، ثم خرجوا بعد ذلك عن عزلتهم واجتهدوا في دعوة الناس إلى سلوك طريقهم ،وجعلوا يعظون الناس ، فصار لهم مريدون وأتباع ،وبدأت حياة الزهد وحلقات النساك والزهاد تظهر في الأندلس كما كان الحال في المشرق . "[١] .

ومع ما في كلام بالنثيا من مبالغة في وصف حالهم ،إلا أن ما يهم هو حقيقة وجود الزهد وانطباعه بالطابع الفردي في القرن الثاني الهجري ، أي ما يسبق ثورة الربض .

لذا فقد يكون الدكتور إحسان عباس أقرب للصواب حين جعل بداية شعر الزهد مرتبطة بثورة الفقهاء ،وذلك لانتقال الزهاد من الحياة الفردية ووعظ أنفسهم إلى وعظ الناس ودعوتهم ،ومحاربة الفساد المنتشر .

وقد عُرف عن الأندلسيين حبهم للشعر ،"وتبوأ الشعراء لديهم مكانه مرموقة "[٢] .

لذا كان من الطبيعي أن تجود قرائح الزهاد ببعض المقطوعات الشعرية التي يريدون بها الموعظة في الغالب .

١ تاريخ الفكر الأندلسي ، آنخل جنثالث بالنثيا–ط١– مايو ١٩٥٥م – مكتبة النهضة المصرية– ص ٣٢٦

٢ دراسات في الأدب الأندلسي ، د/سامي مكي العاني –١٩٧٨م – ص١٠٩

ومن هنا يمكن أن يكون هناك أشعار في الزهد قبل ثورة الربض إلا أنها فقدت مع ما فقد من تراث الأندلس ،أو يكون ما قيل من شعر الزهد وقتها لم يحظَ بالانتشار لأنه طبع بالطابع الفردي .

ويرى الدكتور أحمد الربيعي أنه من المحتمل أن يكون هناك أشعار في الزهد قبل عهد الحكم الربضي لأن الزهد مبدأ متأصل في نفوس المسلمين ، إلا أنها لم تصل إلينا [1] .

وللدكتور احمد هيكل رأي آخر إذ يعد اتجاه الزهد من الاتجاهات الحديثة التي وفدت إلى الأندلس في زمن عبد الرحمن بن الحكم ، حيث ظهر الاتجاه المحدث في المشرق على يد أبي نواس ،ومسلم بن الوليد ، وأبي العتاهية . وبحكم الصلة الدائمة بين الأندلس والمشرق انتقل هذا الاتجاه إليها عن طريق رجل منها وهو عباس بن ناصح[2] ، الذي ذهب ابن الفرضي إلى أنه رحل إلى المشرق رحلتين إحداهما عندما كان صغيرا مع والده فنشأ في مصر وتردد بالحجاز طالبا للغة العرب ثم إلى العراق فلقي الأصمعي وغيره ثم عاد إلى الأندلس ،والأخرى عندما أُخبر عن الحسن بن هاني وأُنشد بعض شعره فقال لأجهدن في أن ألقى هذا الرجل ثم رحل إلى العراق فلقيه[3] .

١ انظر القصص القرآني في الشعر الأندلسي، د/أحمد حاجم الربيعي – ط١-٢٠٠١- دار الشئون الثقافية العامة -بغداد- ص١٦

٢ انظر الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة – ص ١٢٧-ص١٢٨

٣ انظر تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس - ١/٣٤٠-٣٤١

كما ذهب ابن سعيد فيما ذكره عن ابن حزم إلى أن عبد الرحمن بن الحكم وجهه إلى العراق في التماس الكتب القديمة فأتاه بالسِّنْدهِنْد وغيره منها فكان أول من أدخلها الأندلس وعرَّف أهلها بها ونظر هو فيها [1] .

وأيا كان الأمر فقد حمل هذا الاتجاه في طياته –كما يرى الدكتور أحمد هيكل – الكثير من الأغراض الشعرية الجديدة من ضمنها الزهد ، وإذا وضعت في عين الاعتبار انطلاق هذا الشعر على ألسنة الفقهاء والمعارضين للحكم الربضي لما كان عليه من لهو ومجون ، عندها يمكن اعتبار هذه الأبيات التي نظمها الأتقياء والفقهاء للتنديد بالحكم ، وما قيل من أبيات قبل ذلك –إن وجدت – ما هي إلا إرهاص [2] ، ومقدمة للشعر الزهدي الذي برز كفن مستقل له أصوله المستمدة من المشرق زمن عبد الرحمن الأوسط ،إذ من الواضح أن العناية بأمر الزهاد تأخر إلى عهده حيث كان عالما محبا للعلم والعلماء ، مهتما بالأدب والأدباء ، مبجلا للفقهاء ،على العكس من والده ، مما أدى إلى ازدحام بلاطه بالعلماء ، والشعراء ، ورجال الأدب ، والفقهاء [3] .

ومن مظاهر العناية بأمر الزهاد في تلك الفترة ما ذكره الدكتور شوقي ضيف عن أيوب البلوطي الذي عُرف في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وقد بلغ من اهتمامهم بأمره أن

---

١ انظر المغرب في حلى المغرب– لابن سعيد المغربي ،تحقيق الدكتور شوقي ضيف – دار المعارف– مصر – ١/٤٥

٢ هذه الكلمة والفكرة اقتباس من الدكتور محمد مصطفى هدارة في كتابه اتجاهات الشعر العربي – ص ٣٠٣

٣ انظر نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي ، كامل الكيلاني – ط١– ١٣٤٢هـ– ص١٠٧

اعتبروه من أولياء الله الصالحين وتشفعوا به عندما أجدبت الأرض وانقطع المطر في بداية عهد عبد الرحمن الأوسط ، ففزع الناس إلى قاضيه مسرور بن محمد كي يصلي بهم صلاة الاستسقاء ، لما يعرفون من صلاحه ، فلباهم وفي خطبته دعا الله متشفعا بأيوب البلوطي[1] ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ما حظي به الزهاد عند الناس في تلك الفترة من مكانة مرموقة .

وعلى النقيض من ذلك بدأ في عهده –أي الأمير عبد الرحمن الأوسط– الاهتمام بالغناء والموسيقى حيث قدم على الأندلس زرياب المغني المشهور من العراق ، ولقي حظوة واهتماماً حتى قيل إن الأمير عبد الرحمن بالغ في إكرامه لدرجة اعتباره نصير هذا الفن في الأندلس[2] . لذا ازداد سخط الفقهاء وغضبهم لأنهم ينظرون إلى الموسيقى والغناء بعين السخط ويعدون الانشغال بها أمرا محطا لا يليق إلا بذوي السمعة السيئة[3] ، لكن بفضل العلاقة الطيبة بين الحاكم والفقهاء ، لم تذكر المصادر موقفاً ساخطاً لهم ضد الخليفة بل على العكس من ذلك فقد كانت أيامه أيام هدوء وسكون[4] .

---

١ انظر عصر الدول والإمارات الأندلس ،د/شوقي ضيف – ط٣ -١١١٩– دار المعارف -القاهرة–ص٥٦

٢ انظر نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي – ص ١١٠

٣ انظر تاريخ الفكر الأندلسي –ص٥٥ – مع العلم أن ذلك ليس رأى فقهاء الأندلس جميعا حيث كان منهم من أيد الغناء وسأفصل ذلك لاحقا –انظر اعتراض الدكتور خليل إبراهيم الكبيسي على رأي بالنثيا وغيره في كتابه (دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالأندلس في عصري الإمارة والخلافة ، للدكتور /خليل إبراهيم الكبيسي –ط١- ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م –دار البشائر الإسلامية – ص٢٢٢

٤ انظر نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – لأحمد بن مقري التلمساني ، حققه د.إحسان عباس–دار صادر-بيروت-طبعة جديدة -١٩٩٧ – ١/ ٣٤٧

هذا بالإضافة إلى مظاهر الترف والبذخ التي بدأت تظهر على المجتمع الأندلسي في هذه الفترة ، ثم ازدادت موجة الزهد حتى أصبحت تشكل حركة مضادة لما آل إليه المجتمع من التحرر والمجون وانصراف بعضهم إلى مجالس الغناء والموسيقى . هذه المجالس التي انبعثت من المشرق فـ"لعل مجتمعا عربيا لم يعرف اللهو والمجون كما عرفهما المجتمع العباسي في القرنين الثاني والثالث . . "[1] ،وإذا كان اللهو والمجون انتشر بكثرة في المشرق فإن نقيضه الزهد انتشر في الأندلس وكثر الزهاد كثرة مفرطة حتى إن الدكتور منجد مصطفى بهجت يقول عن الزهد في الأندلس : "حين نتحدث عن شعر الزهد والتصوف قبل عصر الطوائف نجد ظاهرة تتمثل في كثرة الزهاد ،الذين ألفوا حجما من المجتمع" [2] . وكان لكثرتهم الدور الأكبر في استمالة أغلب الناس لمثل هذا الاتجاه وذلك عن طريق الوعظ في المساجد ، والتذكير باليوم الآخر ، والجنة والنار ، والتنديد بالإقبال على الدنيا ومتعها .

ثم استمر أمر الزهد يزداد وصوت الزهاد يعلو حتى بلغ الزهد أسمى درجاته ، وظهر ما يسمى بالتصوف الذي نشأ في أحضان الزهد حتى نضج في أواخر القرن الثالث[3] . وكان أول من بعثه في الأندلس محمد بن عبد الله بن مسرة المتوفى سنة ٣١٩هـ .

١ الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د/شوقي ضيف–ط١٣ – دار المعارف– ص ١٠٠

٢ انظر الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين ، د.منجد مصطفى بهجت – مؤسسة الرسالة – بيروت – ص٥٥

٣ نفسه – ص ١٤٨

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا اللون الشعري – شعر الزهد – وُجد لدى الزهاد ، والعلماء والفقهاء ، من أمثال قاسم بن نصير (ت ٣٣٨هـ) الذي كان له ديوان خاص أكثره في الزهد ، وموسى بن أصبغ المرادي العابد الزاهد (ت ٣٢٠هـ) ، الذي قال عنه الحميدي : "رأيت له قصائد طوالاً في الزهد ومنها قصيدة على حروف المعجم لكل حرف عشرون بيتاً "[(١)] وغيرهم .

كما وُجد لدى مشاهير الشعراء من أمثال أحمد بن عبد ربه ، ويحيى بن الحكم الجياني المعروف بالغزال اللذين شكل الزهد مرحلة هامة من حياة كل منهما ، مما أدى إلى زيادة إنتاجهما الشعري الذي فاق ما وصلنا من شعر الفقهاء والزهاد .

لذا كان الزهد من الأغراض الشعرية الكبرى على مر العصور والأزمنة ذلك لتآزر كل من جادت قريحته من الشعراء و رجال الدين من فقهاء ونساك في تكوينه .

ومن الباحثين من يرى أن شعراء الأندلس بدوا مقلدين لشعراء المشرق ، وذلك لما لاحظوه من تقارب بين أشعارهم وأشعار المشارقة ، لاسيما في بداية انفتاحهم على المشرق . ومنهم الدكتور علي سلامة الذي يقول : "كان الشعر الأندلسي عقب الفتح الإسلامي غير متميز الملامح مجهول الهوية لانصراف المسلمين إلى الحروب لتوطيد أركان الدولة الجديدة لذا عاش الأندلسيون في الحقب الأولى عالة على شعر إخوانهم المشارقة

---

١ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس – لأبي عبد الله محمد الحميدي ، تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي – من تراث الأندلس ١ – مكتبة الخانجي – ص ٣١٦

حتى من تصدى منهم لقرض الشعر وهم قلة ، قلد إخوانه المشارقة في المضمون والشكل ومن هؤلاء أبو الأجرب جعونة بن الصمة "[1] .

وحقيقة الأمر أن الشعراء الذين برزت أسماؤهم في عصر الولاة أو بداية الفتح الإسلامي كانوا وافدين على الأندلس –كما أسلفت[2] – أي أنهم مشارقة في الأصل ومن الطبيعي أن يتسم شعرهم بسمات الشعر المشرقي ، وليس له من الأندلسية إلا أنه قيل في الأندلس [3] . وإن وُجد بعض التأثر بأشعار المشارقة بعد ذلك ، فهذا أمر طبيعي لان كل تجديد لا بد أن يحمل في طياته خطوط القديم ويحتذيه [4] . لكن من المؤكد أن الأندلسيين استقلوا فيما بعد في أشعارهم ، بل وتفوقوا على شعراء المشرق وقد تم لهم ذلك بالفعل في عصر ملوك الطوائف ، إلا أن بوادر هذا الاستقلال بدأت في عصر الخلافة[5] .

فكما أنه من "العسير أن تتبين الخيوط المشرقية من الخيوط المغربية في نسيج الشعر الأندلسي الدقيق "[6] ،كذلك من العسير أن نحكم بأن هذا الشعر الزهدي كان تقليدا ومحاكاة للشرق ،لأن الزهد يظل "نزعة لها أصولها الاجتماعية وليست تجيء كلها اقتباسا "[7] .

---

١ الأدب العربي في الأندلس ، د/علي محمد سلامة – ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م – الدار العربية للموسوعات –بيروت– ص ٦٥

٢ انظر ص ٢٢ من هذه الدراسة

٣ انظر الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة – ص٦٤ –وانظر أيضا ما ذُكر عن (ظاهرة الانتماء في الأدب الأندلسي)– د/عبدالله بن علي بن ثقفان –السجل العلمي لندوة الأندلس–اللغة والأدب–١٤١٧هـ/١٩٩٦م – مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة–ص١٥٢– وما تلاها

٤ انظر الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير، د.محمد رجب بيومي –إدارة الثقافة والنشر بجامعة الأمام محمد بن سعود – ص١٤

٥ انظر الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين – ص ٣٩ – ص٤٠

٦ الشعر الأندلسي–إميليو جارثيا جوميث– ترجمه الدكتور حسين مؤنس–ط٢–١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م – دار الرشاد– ص٢٠

ومن خلال ما سبق يمكن استنباط العوامل التي أدت إلى ظهور الزهد ،وانتشار أشعاره في هذه المرحلة وهي كالتالي :

١ – سياسية . . وتتمثل في كثرة الصراعات والفتن الداخلية والثورات التي خلفت الموت والدمار ، خاصة ثورة الربض وما صاحبها من قتل وتشريد .

٢ – دينية . . وتتمثل في كثرة الزهاد والعباد والفقهاء والقضاة ،ورجال الدين الذين كانوا مهيئين أصلاً للسير في طريق الزهد والعبادة .

٣ – اقتصادية . . وتتمثل في مظاهر الترف والبذخ ،وما صاحبهما من صرف للأموال الطائلة خاصة في زمن عبد الرحمن الأوسط الذي قيل عنه :"أنه كان يعشق مظاهر البذخ والفخامة والجمال ،ولذا وصل البلاط الأموي في عهده إلى درجة لم يسبق لها مثيل من الروعة والحضارة والتقدم . . "[(١)] .

٤ – اجتماعية . . ويظهر ذلك فيما ساد المجتمع وقتها من لهو ولعب ،و اهتمام بالشرب والغناء والموسيقى ،التي تتعارض بلا شك مع ما يتبناه الزهد من مبدأ .

وقد كان لهذه العوامل مجتمعة الدور الرائد ،والأثر القوي على نفوس الزهاد ،الأمر الذي ترك أثراً واضحاً في شعرهم ،الذي يعد مرآة صادقة لما يختلج في نفوسهم ،ويدور في خلدهم من رؤى وأفكار .

---

١ الأمويون أمراء الأندلس الأول، د.أحمد إبراهيم الشعراوي–دار النهضة العربية– ١٩٦٩ – ص٢٧٧

كذلك من خلال قراءتي لسير شعراء الزهد في هذه المرحلة ، يمكن تقسيم الشعراء الزهاد إلى قسمين رئيسين وهما :[1]

القسم الأول : شعراء نشأوا تنشئة إسلامية صحيحة فكانت لهم النفسية المهيأة أصلا لتقبل مجريات الحياة والدخول في حياة الزهادة دون صراع أو عناء .

ويمكن أن ينطبق ذلك على الشعراء من الفقهاء والقضاة والزهاد ومن جرى مجراهم من رجال الدين من أمثال عبد الملك بن حبيب الفقيه المشهور ، وموسى بن أصبغ المرادي الزاهد المعروف بالزهد والعبادة .

القسم الثاني : وهم شعراء لم ينشأوا هذه التنشئة الإسلامية الصحيحة بل ربما بدأوا حياتهم باللهو والمجون ، إلا أنهم في آخر حياتهم أقلعوا عن ذلك وبادروا إلى التوبة والاستغفار وجنحوا إلى التقوى والزهد في الحياة وخير من يمثل شعراء هذا القسم يحيى ابن الحكم الجياني المعروف بالغزال ، وأحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد .

لذا أطلق بعض الباحثين على هذا النوع من الزهد مسمى "زهد الشيخوخة ويصدر عن الخوف من الموت وما بعده فيدعو إلى التقوى والمبادرة إلى الندم والإقلاع عن الذنوب وهذا شئ طبيعي مركوز في النفوس يستوي فيه الأندلسي وغيره "[2] .

---

١ استفدت من كتاب شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة في طريقة الكتابة ومعالجة الأفكار –ص٨٢.

٢ شعر بني أمية في الأندلس حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، د/ السيد أحمد عمارة– مكتبة المتنبي –ط٢– ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م – ص ١٤٩

نبذة عن هذه المرحلة :

تشمل هذه المرحلة الزمنية القرنين الثاني والثالث الهجريين ،وذلك من الفتح الإسلامي للأندلس عام ٩٢هـ إلى أواخر القرن الثالث الهجري .وهي مدة زمنية طويلة ،وتشكل مرحله هامة في تاريخ الأندلس ،لذا سأحاول تسليط الضوء على بعض الجوانب الهامة في هذه المرحلة سياسياً ،واقتصادياً ،واجتماعياً .

الحياة السياسية :

تميزت هذه المرحلة بكثرة الفتن والاضطرابات السياسية التي عمت أرجاء الأندلس منذ الفتح الإسلامي لها ،فبعد أن تم للمسلمين فتح الأندلس على يد طارق بن زياد بأمر من موسى بن نصير عام ٩٢هـ ، وتكوين دولة جديدة في الأندلس جمع الإسلام فيها شمل الأجناس المختلفة في المجتمع ووحد صفوفهم إلا أن هذا المجتمع ظل "يجيش بمختلف الأهواء والنزعات ، وتمزقه فوارق الجنس والعصبية "[1] .الأمر الذي مهد للنصارى إقامة" نواة لمملكة نصرانية أخذت على عاتقها استرداد ما فتحه المسلمون من البلاد وإعادته إلى حظيرة النصرانية من جديد . . .وأعلنت بدء تلك الحركة التي تسمى في التاريخ الأسباني بحركة الاسترداد "[2] .

١ دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر، محمد عبد الله عنان-٢٠٠٣م -مكتبة الأسرة-١/ ٦٧

٢ العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، الدكتور رجب محمد عبد الحليم- دار الكتب الإسلامية -دار الكتاب المصري القاهرة -دار الكتاب اللبناني بيروت - ص٢٧

واستمر الأمر كذلك إلى أن قيض الله لهذه البلاد من يتصدى لهذه الحركة ويعمل على تثبيت أركان الدولة ودعائمها ،حيث قدم إليها صقر قريش (عبد الرحمن الداخل) [١] الذي أعاد بناء أمجاد أجداده المنهاره على يد بني العباس في المشرق بإقامة دولة بني أمية في الأندلس عام ١٣٨ هـ ،ومع أنه حظي بإمارة الأندلس واستقرت أركان الدولة بين يديه إلا أن عهده لم يسلم من الفتن الداخلية والخارجية التي ظلت تتوالى على إمارته طوال حكمه ،مثل ثورة سعيد اليحصبي المعروف بالمطري بكورة لبلة سنة ١٤٩ هـ ، وفتنة البربر بشنت برية سنة ١٥٠ هـ ، وثورة عبد الرحمن بن حبيب الفهري سنة ١٦٢ هـ ،وغيرها من الثورات المتتابعة التي فصلها ابن عذاري في كتابه[٢] .

وتتابعت هذه الثورات والفتن في عهد أبنائه من بعده كالفتنة التي هاجت بتَاكُرُنَّا وخالف فيها البربر وغاروا على الناس وقتلوا وسلبوا[٣] في عهد هشام الرضي الذي قال الدكتور محمد عنان عن عهده :"وكانت ولاية هشام نذير فوره جديدة من الثورات المحلية " [٤] ،ومن ثم ثورة الربض في عهد ابنه الحكم الربضي التي أشعل فتيلها الفقهاء تنديدا بالحكم وسخطا عليه لما كان عليه من فساد ومجون[٥] .

---

١ انظر قصة دخوله الأندلس كاملة في كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب –لابن عذارى المراكشي–تحقيق ومراجعة ج.س.كولان و إِ.ليفي برفنسال –دار الثقافة – بيروت– ٢/ ٤٠

٢ نفسه –٢/ ٥٢ وما بعدها

٣ نفسه –٢/ ص٦٤

٤ دولة الإسلام في الأندلس–١/ ٢٢٥

٥ انظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب –٧١/٢ وما بعدها

ثم توالت الفتن والثورات السياسية في عهد ابنه الأمير عبد الرحمن الأوسط الذي قابلته في بداية حكمه مشكلات داخلية مع عم والده عبد الله البلنسي الذي طالب بالإمارة للمرة الثالثة، وفتنة العرب في تدمير، وعصيان ماردة [1]. وغيرها من الفتن المتتالية التي أخذت في التواصل إلى زمن الأمير عبد الله- في آخر القرن الثالث الهجري -الذي ورث دولة مليئة بالفتن والنزاعات والاضطرابات السياسية، فقد بدأ "حكمه الطويل المضني في ظروف قاتمة، والخلاف يمزق أوصال المملكة، وعرش بني أمية يهتز تحت ضربات الخوارج والمتغلبين" [2]. يقول الدكتور عبد الله عنان نقلا عن ابن الأثير "وفي أيامه امتلأت الأندلس بالفتن، وصار في كل جهة متغلب، ولم تزل كذلك طول ولايته" [3].

ومن خلال ذلك يتضح أن هذه المرحلة ملئت بالفتن والاضطرابات السياسية سواء الداخلية أو الخارجية، وقضى حكامها وقتاً طويلاً في وقف مثل هذه الاعتداءات ودحر الثورات وردع المتمردين في كل جزء من أجزاء الدولة.

الحياة الاقتصادية:

تتميز هذه المرحلة بالانتعاش الاقتصادي المنقطع النظير، خاصة في زمن عبد الرحمن الأوسط الذي بلغ خراج الدولة في عهده ما لم يبلغه في عهد سابقيه، وذلك بناء على

---

١ انظر الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، محمد إبراهيم أبا الخيل – ١٤١٦هـ –مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة–الرياض–ص٣٢ وما بعدها

٢ دولة الإسلام في الأندلس– ١/٣٢٢

٣ نفسه– ص٣٢٣

ما ذكره المقري في قوله : " أن الجباية كانت بالأندلس أيام عبد الرحمن الأوسط ألف ألف دينارٍ في السنة "[١]،وقد تولَّد عن هذا الانتعاش الاقتصادي التقدم الحضاري الذي لم يسبق له مثيل ، يقول المقري عن عهده :" وكثرت الأموال عنده، واتخذ القصور والمتنزهات، وجلب إليها المياه من الجبال، وجعل لقصره مصنعاً اتخذه الناس شريعة، وأقام الجسور، وبنيت في أيامه الجوامع بكور الأندلس، وزاد في جامع قرطبة رواقين، ومات قبل أن يستتمه ، فأتّمه ابنه محمد بعده، وبنى بالأندلس جوامع كثيرة، ورتب رسوم المملكة "[٢] .

"وهو الذي استكمل فخامة الملك بالأندلس، وكسا الخلافة أبهة الجلالة . وظهر في أيامه الوزراء والقواد وأهل الكور، وشيد القصور، وجلب المياه من الجبل، وبنى الرصيف على الوادي" [٣] .

"وهو أول من أحدث بقرطبة دار السكة وضرب النقود باسمه ،ولم يكن فيها ذلك منذ افتتحها العرب ،ولذا عرفت أيامه بأيام العروس لكثرة الخيرات ،وهكذا سمت الحياة في الأندلس وتألقت الحضارة ،وأصبحت الأندلس في عداد الدول العظمى في العالم الإسلامي والمسيحي على السواء " [٤] .

---

١ نفح الطيب-١/ ١٤٦

٢ نفسه-ص ٣٤٧

٣ الحلة السيراء — ١/ ١١٣-١١٤

٤ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة ،د/ السيد عبد العزيز سالم-١٩٩٧م - مؤسسة شباب الجامعة —الإسكندرية—ص ٢٢٩

هذا مع أن عهد هذا الأمير بدئ بمجاعة كما ذكر ابن حيان نقلا عن ابن هشام الشبينسي في قوله : " نالت أهل الأندلس مجاعة شديدة صدر أيام الأمير عبد الرحمن سنة سبع ومائتين وكان سببها انتشار الجراد بالأرض ولحسه الغلات وتردده بالجهات، فنالت الناس مجاعة عظيمة "[١] ،وخُتم عهده بمجاعة كما ذكر ابن عذاري في قوله : " وفي سنة ٢٣٢ ، قحطت الأندلس قحطا شديدا؛ وكانت فيها مجاعة عظيمة، حتى هلكت المواشي، واحترقت الكروم، وكثر الجراد . "[٢] . وهذه الفترة الزمنية كانت في أواخر عهد الأمير عبد الرحمن الذي توفي بعد ست سنوات من هذه المجاعة ،وذلك في عام ٢٣٨هـ .

فقد شهد عهد هذا الأمير النقيضين الفقر والرخاء ،إلا أنه استطاع الموازنة بينهما عندما عمل على تخفيف أثر هذه المجاعة عن الرعية " بإطعام الضعفاء والمساكين من أهل قرطبة، فيهم باسم أيوب العابد المستجاب" [٣] .

وقد تعرضت الأندلس لمجاعات أخرى قبل عهده وبعده ،فالمجاعة الكبرى في الأندلس كانت في عهد والده الحكم الربضي عام ١٩٩هـ[٤]، وبعد عهد الأمير عبد الرحمن حدثت مجاعتان كلاهما زمن ابنه الأمير محمد بن عبد الرحمن ، الأولى كانت عام ٢٥٣هـ

---

١ المقتبس من أنباء أهل الأندلس- ص ٢٢٥

٢ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب –٢/٨٩

٣ المقتبس من أنباء أهل الأندلس – ص٢٢٥

٤ انظر حضارة العرب في الأندلس –ص٩٨

وهي "مجاعة عظيمة متوالية "[١]، والثانية كانت عام ٢٦٧هـ" تطاول فيها المفسدون وكثرت السرقات والتعديات" [٢] . و"ترافق الأزمات الاقتصادية في الغالب ندرة في المواد الغذائية وغلاء في الأسعار ،فتكثر الحاجة وتعم الفاقة ويلوح شبح المجاعة فيبادر المؤمنون والمخلصون من أبناء المجتمع إلى المساهمة في درء هذا الخطر أو التخفيف منه ،وذلك كل حسب قدرته وإمكاناته وبما يملك من وسائل "[٣]،وقد أدى ذلك إلى التخفيف عن الناس مما هم فيه من فقر وعوز ،الأمر الذي يدل على تماسك المجتمع الأندلسي وتميزه بروح الأخوة والإيثار التي دعا إليها الدين الإسلامي .

ولذلك ظل الغالب على الأندلس في هذه المرحلة الوفرة والرخاء ،اللذان شكلا حياة الترف والبذخ التي عاش فيها الأندلسيون ردحاً من الزمن . ومن دلائل الغنى والبذخ في هذه المرحلة قصة عبد الرحمن بن الحكم مع إحدى جواريه وتدعى (طروب) "كان بها دنفا؛ فصدت عنه يوما ، وأبدت هجرانه . فأرسل إليها؛ فامتنعت عليه، وأغلقت على نفسها بيتا . فأمر ببنيان الباب بالخرائط المملوءة من الدراهم، استرضاء لها ، واستعطافا لوصلها . فلما فتحت الباب، تساقطت الخرائط من كل جانب؛ فأخذتها؛ فألفت فيها نحوا من عشرين ألفا؛ وأمر لها بعقد قيمته عشرة آلاف دينار"[٤] .

---

١ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب – ٢/ ١٠٠

٢ تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة – ص ١٧٣

٣ دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالأندلس في عصري الإمارة والخلافة – ص٢٤٤

٤ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب –٢/ ٩٢

" وكانت للحكم ألف فرس مرتبطة بباب قصره على جانب النهر، عليها عشرة من العرفاء، تحت يد كل عريف مائة فرس؛ فإذا بلغه عن ثائر ثار في أطرافه، عاجله قبل استحكام أمره، فلايشعر حتى يحاط به "[١] . وقد ساعدهم على تحقيق هذا الثراء عدة عوامل هامة تتلخص فيما يلي:

١-التقدم الزراعي : تشكل الزراعة في ذلك الوقت أهم منابع الثروة في الأندلس ،لذا ازدهرت وتوسعت بشكل واضح ،وسعى الأمراء الأمويون في سبيل إنعاشها بكافة الوسائل الممكنة[٢] .

٢-التقدم الصناعي : عُرفت الأندلس بمنتجاتها الصناعية الراقية، "فقد كان المثل الأعلى للأندلسيين تحقيق ذواتهم عن طريق ممارسة الفنون الصناعية المختلفة والدقيقة ،فراحوا يتقنون هذه الفنون ،فامتازت مدرسة الفن الأندلسي بصناعة المعادن وما تشمله من الزخرفة ،وعمل النقوش البارزة أو المحفورة ،والترصيع بالذهب والفضة ،ونقش الحروف"[٣] .

٣-التقدم التجاري : فقد شهدت الأندلس نشاطاً تجارياً واسعاً خاصة مع المغرب ،يقول خير الله طلفاح: "كانت حركة النقل التجاري من الأندلس إلى شواطئ المغرب وبالعكس

١ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب -٧٩/٢

٢ انظر حضارة العرب في الأندلس-ص١١٨-ص١١٩

٣ الإنسان الأندلسي بين الواقع العربي وما طمح إليه ، الدكتور /ضاهر أبو غزالة – دار المواسم – ص١٩٤

نشطة جداً ،وخصوصا مع المغرب الأوسط والمغرب الأقصى "[1] . وقد ساعدت كل من الزراعة والصناعة في هذا التقدم التجاري ،الذي ماكان له أن يتم لولا وجودهما ، "فإن النشاط التجاري الواسع لن يظهر في الأندلس إلا بعد ازدهار الزراعة " [2]،كما "كان الأندلسيون يحملون إلى هذه البلاد (أي المغرب) منتوجاتهم الصناعية الراقية التي يحتاجها أهل المغرب " [3] .

ومن ذلك يمكن استنباط أن هذا التذبذب الاقتصادي الذي شهدته الأندلس في فترات معينة من هذه المرحلة ترك أثراً واضحاً على شعراء الزهد الذين أدركوا حقيقة تقلب الحياة وغرورها فأكثروا الحديث عن الدنيا وزوالها وغرورها ،حتى في نصحهم ومواعظهم كانوا ينصحون بتجنبها والتجرد منها إلى دار البقاء والخلود .

الحياة الاجتماعية :

يصور الواقع الاجتماعي في الأندلس ميل واضح " إلى ألوان المتعة وصنوف اللهو ،ومجالس الأنس والمجون كالشراب والغناء والتغزل بالغلمان "[4] . فقد "جُبل أبناء الأندلس على حب الغناء والموسيقى ،وكان لطبيعة تكوين مجتمعهم من خليط بين العرب وغيرهم ،ورقة عواطفهم ،وجمال بلادهم أثر كبير في إذكاء هذه الخليقة لديهم "[5] .

---

١ حضارة العرب في الأندلس–ص١٢٤

٢ نفسه–ص١١٩

٣ نفسه–ص١٢٤

٤ الإنسان الأندلسي بين الواقع العربي وما طمح إليه – ص١٤٣

٥ دراسات في الأدب الأندلسي –ص٩٢

كما أن "الرخاء الاقتصادي جعل الشخصية الأندلسية تميل إلى حد كبير نحو مواجهة الحياة برضى وتفتح ومرح "[(١)] .

وقد بلغ من حبهم للغناء أن بعض القضاة يحضر مجالسه ويبدى إعجابه به ، يقول الدكتور محمد رضوان الداية نقلا عن ابن حزم : "ولم يكن كثيراً على قاض من القضاة أن يحضر مجلس طرب أو يبدي إعجابه بغناء جارية أو مغن أو زامر فقد كان فيهم من أخذ هذا الأمر بصدر واسع "[(٢)] . كما وُجد فريق آخر يشنع عليه وينتقص من هيبته[(٣)] .

هذا إلى جانب تفشي الطبقية بين أفراد المجتمع الأندلسي التي لعبت "دوراً كبيرا في تغيير مجرى التاريخ . . . . وساهمت مساهمة فعالة في ضياع الأندلس . "[(٤)] .

ومن هنا فقد تركت هذه الأوضاع –السياسية ،والاقتصادية ،والاجتماعية – أثراً واضحاً على شعر الزهد ،حيث ارتبط انطلاق أشعاره سياسيا بثورة الربض المشهورة ،فأخذت أشعاره طابع الزجر التي تزجر الحاكم عن الحياة اللاهية العابثة ،ثم انعكس أثر الرخاء الاقتصادي ،والحياة الاجتماعية المترفة على تحويل هذه الأشعار إلى الوعظ ،فلم تكن العلاقة بين الزهاد والمجتمع منفصمة أو ضعيفة ،بل على العكس من ذلك، فقد كان الزهاد يعمدون إلى مجالس الناس بغرض تقديم النصح والموعظة الحسنة ،والتذكير بحقيقة

---

١ دراسات في الأدب الأندلسي – ص١٠٦

٢ الأدب الأندلسي والمغربي، الدكتور/محمد رضوان الداية–١٤٠٠–١٤٠١هـ–١٩٨٠–١٩٨١م –مطبعة خالد بن الوليد– ص٢٠

٣ نفسه

٤ الإنسان الأندلسي بين الواقع العربي وما طمح إليه — ص١٥٥

الدنيا وزوالها ،ومآل الناس فيها[٤] . "فحيثما وجد اللهو والمجون وجد الزهد والورع ،وتلك سنة الحياة وطبيعتها في كل زمان ومكان "[٥] .

---

٤ انظر التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ، مجاهد مصطفى بهجت - سلسلة الكتب الحديثة – ١٨- وزارة الأوقاف والشؤون الدينية – بغداد- ص٥٦٤-ص٥٦٥

٥ اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، د.نافع محمود - ط١ لسنة١٩٩٠م –دار الشؤون الثقافية العامة - ص٢١٢

الفصل الأول

دراسة موضوعية

المبحث الأول

مصادر شعر الزهد

مصادر شعر الزهد

بعد الفتح الإسلامي ، واستقرار أمر المسلمين في الأندلس ، و دخول الدين الإسلامي إليها بمبادئه وتعاليمه ، كان أول شيء اعتمد الأندلسيون عليه في بحوثهم ، وعلومهم ، وأشعارهم هو الكتاب والسنة فكانت أفكارهم مستمدة من هذين المصدرين .

ولا عجب من وجود الكثير من الشعراء الذين اقتبسوا صورهم ومعانيهم من القرآن الكريم وتبنوا أفكاره ، شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من أفراد الجيل الأول الذين شكل القرآن الكريم عقلية كل منهم وظهر أثره واضحا في ثقافتهم وأشعارهم .

هذا بالإضافة إلى ما ورد في المصادر القديمة من أقوال للنساك والعباد ، وما دار على ألسنة العرب من أمثال وأشعار .

أولا : القرآن الكريم :

تكفل الله عز وجل بحفظ القرآن الكريم ، تلك المعجزة الخالدة التي أنزلت على النبي محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، قال الله تعالى في ذلك : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] لذا كان القرآن الكريم أبلغ كتاب عرفته العربية ومبادئه ثابتة لا تتغير على مر العصور والأزمنة .

وقد كان الهدف الأساسي للجيش الإسلامي في افتتاح العديد من المدن هو نشر الدين الإسلامي وترسيخ مبادئه وتعاليمه المستمدة من كتاب الله عز وجل في الدول المفتوحة

---

١ الحجر : ٩

وهذا ما حدث مع المسلمين في افتتاح الأندلس التي استقر في رحابها الدين الإسلامي واستقى علماؤها ، وفقهاؤها ، وشعراؤها ، من معينه الذي لا ينضب .

فأول ما يلفت الانتباه في أشعار الأندلسيين هو تأثرهم بالقرآن الكريم ، ومبادئ الدين الإسلامي الحنيف خاصة إذا كان الموضوع له علاقة وثيقة بالدين كالزهد .

ولا عجب في ذلك إذ عرفت الأندلس في فترة الولاة نوعا من الثقافة ،كانت بمثابة خيوط الفجر الأولى ، التي تؤذن بصبح مشرق ، فقد دخل الأندلس نفر من الصحابة والتابعين وكانوا على حظ من المعرفة الدينية ، وكانت عنايتهم قبل كل شيء بتدريس كتاب الله وسنة نبيه وبلغة القرآن والحديث [1] .

كما كان مذهب أهل الأندلس "تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم . إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسُّه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب"[2] ، فيشب الأولاد وقد حذقوا العربية والشعر واستقامت ألسنتهم بقراءة القرآن الكريم وحفظه .

١ انظر الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة – ص ٦٠ - ص٦١

٢ أبجد العلوم – ١/١١١

١-ألفاظ قرآنية :

لاشك أن اللفظ يبلغ أعلى درجات الفصاحة والبلاغة من خلال موضعه في النسق القرآني ذلك التنسيق الذي يتجلى "في تأليف العبارات بتخير الألفاظ ثم نظمها في نسق خاص "[١].

والألفاظ التي أختارها القرآن الكريم تتميز"بالدقة في الوضع والاختيار . . . وتشع بالحياة ،لأنها مصورة وناطقة ومعبرة وموحية"[٢] ،ومن شأن هذه الألفاظ التي تتميز بهذه الصفات أن تكسب الكلام الذي يتضمنها جلاء ، وبهاء ، وفخامة .

ولقد برزت الكثير من ألفاظ القرآن الكريم في شعر الزهد لدى بعض الشعراء الأندلسيين ،وفي ذلك دلالة على اتساع ثقافتهم الدينية ومدى مقدرتهم على توظيف اللفظة القرآنية في الأبيات الشعرية ، وسأحاول فيما يأتي تتبع الألفاظ القرآنية التي استعملها هؤلاء الشعراء ،ومدى تأثرهم بها .

من هذه الألفاظ التي تناولها الشعراء الأندلسيين في أبياتهم الشعرية كلمة (التراقي) التي وردت في القرآن الكريم في موضع واحد فقط وذلك في سورة القيامة في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾[٣] ،وقد ورد في معناها "والتراقي –جمع الترقوة– وهي

---

١ التصوير الفني في القرآن، سيد قطب–ط١٢– ١٤١٢هـ–١٩٩٢–دار الشروق – القاهرة– ص ٨٧

٢ أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي منذ الفتح إلى سقوط الخلافة ، الدكتور محمد شهاب العاني–سلسلة رسائل جامعية – ط١ –٢٠٠٢–دار الشؤون الثقافية العامة –بغداد – ص٥٢

٣ القيامة : ٢٦

العظام بين ثغرة النحر والعاتق ، ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشراف على الموت"[1] . وقد أتى محمد بن عبد السلام الخشني بهذه اللفظة في سياق حديثه عن الموت حيث قال:

بلى وكأنَّ الموتَ قد زارَ مَضْجعِي   فَحوَّلَ منّي النَّفْس بينَ تَراقِ[2]

ينقلنا الشاعر بصدق إحساسه ومشاعره إلى المشهد نفسه الذي تصوره الآية الكريمة وهو مشهد الاحتضار ومفارقة الروح الجسد .

ومن هذه الألفاظ التي تتجلى في أشعار الأندلسيين أيضاً (اللمم) ،وقد ذكرها القرآن الكريم في موضع واحد وذلك في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾[3]، ويبين الله عز وجل هنا المحسنين الذين ترفعوا عن الكبائر والفواحش فغفر الله لهم صغائر ذنوبهم باجتنابهم الكبائر . وقد وردت هذه اللفظة بمعنى صغائر الذنوب في قول الغزال[4]:

يستثقلُ اللَّمَمَ الخفيفَ لِغيرِهِ   وعليهِ من أمثالِ ذاكَ جبالُ[5]

---

١ تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل- لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ، تحقيق خالد عبد الرحمن العك-مروان سوار - ط١- ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م - دار المعرفة بيروت- ٤/ ٤٢٤

٢ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس - ص ٦٤

٣ النجم : ٣٢

٤ "وممن ارتحل من الأندلس إلى المشرق شاعر الأندلس يحيى بن الحكم البكري الجياني الملقب بالغزال لجماله ، وهو في المائة الثالثة، من بني بكر بن وائل.قال ابن حيان في " المقتبس " : كان الغزال حكيم الأندلس، وشاعرها، وعرّافها، عمّر أربعاً وتسعين سنة، ولحق أعصار خمسة من الخلفاء المروانية بالأندلس" - نفح الطيب -٢/٢٥٤

٥ ديوان يحيى بن حكم الغزال -تحقيق د/محمد رضوان الداية - دار قتيبة -ط١ -١٤٠٧هـ/ ١٩٨٢م - ص ٩٤

ومن الألفاظ القرآنية التي استعملها الشعراء كلمة (هيهات) وهي "كلمة معناها البعد ،وقيل : هيهات كلمة تبعيد "[1] ، وقد وردت هذه الكلمة مكررة في موضع واحد من القرآن الكريم ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾[2] . وقد أقتبس الأمير عبد الله هذه اللفظة بهذا المعنى في قوله :

هَيْهَاتَ يَشْغلك المُنَى   وَلَمَا يَدومُ لَكَ الشَّغَل[3]

كما أدار الغزال هذه اللفظة في المعنى نفسه أيضاً في قوله :

هَيهاتَ كلُّهُم في شَأنِهِ لعِبٌ   يَرمي التُرابَ وَيَحثوهُ عَلى خَدّي[4]

ومن الألفاظ القرآنية (الأيكة) ،وهي "الشجر الملتف الكثير"[5]، وقد وردت في القرآن الكريم في عدة مواضع منها قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾[6] .وقد وردت هذه اللفظة عند ابن عبد ربه[7] بهذا المعنى حيث يقول في الموعظة:

أَلا إنما الدُّنيا نَضَارَةُ أَيكةٍ   إِذا اخْضَرَّ مِنْهَا جَانِبُ جَفَّ جَانِبُ[8]

---

١ لسان العرب – مادة (هيه)

٢ المؤمنين :٣٦

٣ كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب– ١٥٥/٢

٤ ديوان الغزال – ص ٦٤

٥ القاموس المحيط –مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي– شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر –ط٢– ١٣٧١هـ/١٩٥٢م –مادة(الأيك)

٦ الحجر : ٧٨ – ووردت هذه اللفظة في مواضع أخرى وهي: سورة ص : ١٣ –وسورة الشعراء : ١٧٦

٧ هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم القرطبي ،مولى الإمام هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ،ولد سنة ٢٤٦هـ ،وتوفي سنة ٣٢٨هـ،ودفن في مقبرة بني العباس من شعراء الأندلس البارزين ،ثقف نفسه بثقافات الشرق المختلفة ويعتبر العقد الفريد صورة جلية تكشف عن ثقافة الشاعر . انظر ديوان ابن عبد ربه الأندلسي مع دراسة لحياته وشعره – تحقيق الدكتور/ محمد التو نجي –دار الكتاب العربي – ط١– ١٤١٤هـ– ١٩٩٣م– ص١١–وما بعدها

٨ ديوان ابن عبد ربه الأندلسي – ص ٤٩

فالصفة الغالبة على الدنيا هي الفناء والزوال ،إلا أن ابن عبد ربه كسا هذا المعنى بعدا آخر يصور فيه خداع الدنيا التي تغر المرء بآمالها الكاذبة وتقوده بفتنها إلى الحسرات في الدار الآخرة . وقد أسعفت الألفاظ القرآنية الشعراء في وصف نار جهنم لما تتمتع به هذه الألفاظ من دقة في الوصف ،من ذلك قول ابن عبد ربه في الموعظة :

عَايِنْ بِقَلْبِكَ إنَّ العَينَ غَافِلَةٌ	عَنِ الحَقيقَةِ ،وَاعْلَمْ أَنَّها سَقَرُ
سَوداءُ تَزْفُرُ مِنْ غَيْظٍ إذا سُعِرَتْ	للظالمينَ فَما تُبقي ولا تَذَرُ
إنَّ الَّذينَ اشْتَرَوا دُنْيا بِآخِرَةٍ	وَشِقْوَةً بِنَعيمٍ، سَاءَ مَا تَجَروا[1]

يعمد الشاعر إلى الترهيب في هذه الموعظة وبيان الحقيقة التي غفلت عنها أعين الكثير ، وهي نار جهنم التي أعدت للظالمين، وأختار القلب دون العين لأن العين قد تغفل عن الشيء الذي لم تراه، في حين أن القلب يتأثر بما يدركه ويشعر به ، وهو في هذا الوصف والتصوير لنار جهنم يعتمد على ما ورد في كتاب الله عز وجل من ألفاظ تصف نار جهنم منها قوله تعالى : ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾[2]، "أي صوتاً مزعجاً من تغيظها على أصحابها المشركين بالله الكافرين به"[3] . فابن عبد ربه يصور نار جهنم وهي سقر التي لا تبقي ولا تذر كما صورها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۞ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾[4] .

١ ديوان ابن عبد ربه الأندلسي — ص ٩١

٢ الفرقان :١٢

٣ أيسر التفاسير– ٣/٦٠٢

٤ المدثر : ٢٦

وفي البيت الأخير يبين خسران من اشترى الدنيا بالآخرة وشدة عذابهم وهذا ما ورد في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾[1] .

ومن الألفاظ القرآنية التي استعملها الشعراء مضافة كما وردت في القرآن الكريم (صرح ممرد) ، وقد وردت في بيت لابن عبد ربه حيث يقول في الدعوة إلى ترك الترف :

يَرى جِلْدَ كَبْشٍ تَحْتَهُ كُلَّمَا اسْتَوى ... عَلَيْهِ سَرِيراً فَوْقَ صَرْحٍ مُمَرَّدِ[2]

وقد ورد الصرح بهذه الصفة في القرآن الكريم في قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ وذلك في قوله تعالى: ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ ﴾[3] .

ومن الألفاظ القرآنية (غفرانك) التي وردت في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾[4]، ويدعو ابن عبد ربه طالبا المغفرة من الله عز وجل على إسرافه في الذنوب في قوله :

يَا ربَّ غُفرانَكَ عَنْ مُذنبٍ ... أَسرفَ إلا أَنَّهُ نادِمُ[5]

---

١ البقرة : ٨٦

٢ ديوان ابن عبد ربه — ص٧٣

٣ النمل: ٤٤

٤ البقرة : ٢٨٥

٥ ديوان ابن عبد ربه — ص ١٥٠

ومن الألفاظ القرآنية (النذير) ،التي وردت في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ [1]، أي جاءكم " الرسول فلم تجيبوا وأصررتم على الشرك والمعاصي " [2] . وقد جعل ابن عبد ربه الشيب بمثابة النذير من الموت وذلك في قوله :

نَذيرُ المَوْتِ أَرْسَلَهُ إلَيْنا   فَكَذَّبْنا بِما جاءَ النَّذيرُ [3]

ومن الألفاظ القرآنية (حسير) ، التي وردت في كتاب الله عز وجل في موضع واحد ،وذلك في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [4]، و" الحسير: المنقطع من الإعياء " [5] . ويظهر تأثر الغزال بهذه اللفظة في قوله:

وإنّي وإنْ أظهرتُ مِنّي تجَلُّداً   لذو كَبِدٍ حَرّى عَليكِ حَسيرُ ! [6]

تملك هذه الكلمة من الطاقة التعبيرية ما يجعلها تعبر عن مدى ألم الشاعر وحزنه ،وتصور معاناته من الكبر وآثاره .

ومن هذه الألفاظ التي تأثر بها شعراء الزهد (مذكورا) ،وقد جاء بها القرآن الكريم أيضا في موضع واحد فقط ،وذلك في قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ [7] .

---

١ فاطر: ٣٧
٢ أيسر التفاسير — ٤/ ٣٥٧
٣ ديوان ابن عبد ربه — ص ٩٠
٤ الملك : ٤
٥ تفسير القرآن العظيم -٤/ ٤٢٣
٦ ديوان الغزال — ص ٧٣
٧ الإنسان : ١

ويبدو تأثر الفقيه عبد الملك بن حبيب بهذه اللفظة في قوله :

لا تَنْسَ - لا يُنْسِكَ الرحمنُ - عاشوراء   واذكُرهُ لا زلْتَ في الأَحْيَاءِ مَذْكُورا[1]

ومن شدة تأثره بهذه الكلمة جعلها قافية للأبيات، كما اتخذها القرآن الكريم فاصلة للآيات . ومن الألفاظ القرآنية (أواه) "والأواه كثير التأوه مما يسيء ويحزن"[2]، وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم في موضع واحد فقط، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾[3]، وقد أتى بها الزاهد محمد بن عبد الله الغازي في قوله :

يَا ذَا الَذِي هُوَ فِي لَهْوٍ وَفِي لَعْبِ   طُوبَى لِعَبْدٍ حَقِيْبَ القَلْبِ أَوَاهِ[4]

هذه أهم الألفاظ القرآنية التي تداولها شعراء الزهد في أشعارهم في هذه المرحلة ،والجامع بينها أن الكثير منها ألفاظ وردت في موضع واحد من القرآن الكريم ، وفي ذلك دلالة على علمهم الواسع بكتاب الله عز وجل ،وإحاطتهم التامة لتفاصيله الدقيقة .

---

١ الإحاطة في أخبار غرناطة –٢/ ٣٧ - المقتبس من أنباء الأندلس – ص ١٨٤

٢ أيسر التفاسير –٢/٥٦٣

٣ هود : ٧٥

٤ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة –جلال الدين عبد الرحمن السيوطي–تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم –المكتبة العصرية–بيروت –١/ ١٤٠

٢ – معانٍ قرآنية :

وجد الشعراء الأندلسيين في الاقتباس من القرآن الكريم طريقة لتوظيف المعاني القرآنية في أبياتهم الشعرية ، معتمدين على تضمين هذه المعاني في أبياتهم بطريقة غير مباشرة ،ومرجع ذلك إلى النزعة الناجمة عن رأي المالكية في كراهية الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر[١] . ومن المعاني القرآنية التي تأثر بها هؤلاء الشعراء واقتبسوا منها في أبياتهم، ما يتعلق بالموت والفناء ، والحساب والجزاء ، والقضاء والقدر ، إلا أن المعنى الذي أكثروا من استخدامه هو ما يتعلق بالموت فهذا غربيب الطليطلي يقول في الموت وحتمية وقوعه:

لَـــهُ أَجَـــلٌ ولِي أَجَـــلٌ وكـــلٌّ   سَـــيَبْلُغُ حَيْـــثُ يَبْلُغُـــهُ الكِتَـــابُ

ومـــا يَـــدْرِي لعَـــلَّ المَـــوتَ مِنـــهُ   قَرِيـــبٌ أَيُّنـــا قَبْـــلُ المصـــابُ

لَعمـــرُكَ مَـــا يَـــرُدُّ المَـــوتَ حِصْـــنُ   إذا انتـــابَ الملـــوكَ ولا حِجَـــابُ

لَعمـــرُكَ إِنَّ مَحْيَـــايَ ومَمَـــوْتِي   إلى مَلِـــكٍ تَـــذِلُّ لـــه الصِّـــعابُ[٢]

من الواضح أن الشاعر استلهم معاني القرآن الكريم في جميع أبياته ففي البيت الأول يتجلى تأثره بقوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾[٣]، الذي يقضي بتقدير الله عز وجل مدة محددة وهي الأجل جاعلا لها كتاب يثبت فيه أمره سبحانه .

---

١ الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ، د/ منجد مصطفى بهجت–ط١–١٩٨٨م–جامعة الموصل–ص٩٢

٢ المغرب في حلى المغرب– ٢/ ٢٤

٣ الرعد : ٣٨

وفي البيت الثاني يتجلى معنى الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾[2]. كما يتجلى في البيت الثالث معنى الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾[3]. أي أن الموت طالبكم، ولا بد أن يدرككم أينما تكونوا، وهذه حقيقة لابد من الإيمان بها والاستعداد لها.

وفي البيت الرابع يتمثل المعنى القرآني في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[4]. أي كل ما يتقرب به الإنسان من الطاعات في حياته وما يموت عليه من الصالحات فهي لله عز وجل وحده لا شريك له. فالأبيات تدور حول لحظة بلوغ الروح الحلقوم هذه اللحظة الحاسمة التي ينتقل فيها المرء من دار الفناء والزوال إلى دار القرار والخلود. وفي الأبيات تتجلى ثقافة الشاعر الدينية، التي تظهر بتأثره بالقرآن الكريم في كل بيت من الأبيات. ويقول ابن عبد ربه في هذه اللحظة أيضاً..

مَنْ لي إذا جُدْتُ بَينَ الأَهْلِ والوَلَدِ وكانَ مِنّي نَحْوَ المَوْتِ قِيدَ يَدِ[5]

وهذا المعنى القرآني الذي تأثر به ابن عبد ربه ورد في قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ۝ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ۝ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾[6].

---

١ لقمان: ٣٤
٢ الزمر: ٤٢
٣ النساء: ٧٨
٤ الأنعام: ١٦٢
٥ ديوان ابن عبد ربه – ص ٧٦
٦ الواقعة: ٨٣

فالموت حقيقة لا بد منها لكل حي ، فمهما طال العمر ، وتأخر الأجل لا بد من الموت ، فلا يغتر المرء بطول عمره ، وتأخر أجله وفي هذا يقول الأمير عبد الله :

يَـــا مَـــــنْ يُراوِغُــــه الأَجَـــلْ   حتَّـــامَ يُلْهِيـــكَ الأَمَـــلْ[1]

وفي هذا البيت معنى مقتبس من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[2]، حيث جعل طول العمر وبلوغ الرغبات الدنيوية وأملهم في ذلك ملهاة لهم إلى أن يحين وقت الحساب ، ويقول محمد بن عبد السلام الخشني في أمر هذه الدنيا وبيان زوالها وفراق من فيها :

أَخِـــي إِنْمَـــا الـــدُنيَا مَحَلَـــةُ فُرْقَـــةٍ   وَدَارُ غَـــــرُورٍ آذَنَـــتْ بِفِــــرَاقِ
تَـزوَّدَ أَخِـــي مِنْ قَبْـلُ أَنْ تَسْكُنَ الثَّرَى   وَيلْتَــفَّ سَـــاقٌ لِلنُّشُـــورِ بِسَـــاقِ[3]

أراد الشاعر هنا أن يعظ الناس ببيان زوال الدنيا وضرورة التزود فيها بكل عمل صالح قبل الموت لذا وصف الدنيا بدار الغرور، لأنها تغر ابن آدم بفتنها وملذاتها لتصرفه عن العمل لدار القرار ، والشاعر في ذلك متأثر بوصف الله عز وجل لهذه الدار الفانية في قوله تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[4] . كما يصور الشاعر حال الميت عندما

---

١ الحلة السيراء- ١/ ١٢٢- ووردت أيضا في كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب – ٢/ ١٥٥-وقد نسب الدكتور سعد إسماعيل شلبي في كتابه الأصول الفنية للشعر الأندلسي– ص١٢٣ ، هذه الأبيات والأبيات التي مطلعها :(أرى الدنيا تصير إلى فنا) إلى القاضي أحمد بن محمد بن زياد اللخمي مستندا إلى ما رواه ابن عذاري ،على الرغم من أن الأبيات وردت عند ابن عذاري للأمير عبد الله في أثناء حديثه عن أخبار هذا الأمير .انظر البيان المغرب- ٢/ ١٥٥ ،وعاد الدكتور سعد في موضع آخر من كتابه ونسبها للأمير عبد الله – ص ٢٠٨-ص٢٠٩

٢ الحجر : ٣

٣ جذوة المقتبس – ص ٦٤

٤ آل عمران : ١٨٥- و الحديد : ٢٠

تنزع روحه وتلتف ساقيه إحداهما على الأخرى، ويظهر هذا المعنى القرآني الذي تأثر به الشاعر جليا في قوله تعالى: ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾[1]،وقد ورد في تفسير هذه الآية أن الإنسان عند فراق هذه الدنيا تلتف الساق اليمنى باليسرى وشدة فراق الدنيا يلتف بشدة الإقبال على الآخرة ،فيذهب الجسد إلى القبر والروح إلى باريها ليحكم فيها [2] . لذا على المرء التزود بالأعمال الصالحة فالموت غاية كل حي يسعى إليه مسرعا من حيث لا يدري، ممتطيا ليله ونهاره إلى دار القرار وفي هذا يقول محمد بن مسرة :

إنَّما الموتُ غايةٌ نحنُ نسعى خبباً نحوها علَى الأقدامِ
إنَّما اللَّيلُ والنَّهارُ مطايا لبني الأرض نحوَ دارِ حِمامِ[3]

ورد هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾[4] .

وإرادة الله عز وجل فوق كل شئ وقضاءه واقع لا محالة وفي هذا المعنى يقول الغزال :

إِذا أَرادَ الإلهُ الشيءَ كَوَّنَهُ فلَنْ يَضُرَّكَ فيهِ سوءُ تَدبير !

(٥)

والمعنى في هذا البيت استمده الشاعر من كتاب الله عز وجل القائل في محكم كتابه: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[6] .

---

١ القيامة : ٢٩

٢ انظر أيسر التفاسير – ٥/ ٤٧٩

٦ يونس : ١٠٧

٣ كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس – ص ٢٧١
٤ الجمعة : ٨
٥ ديوان الغزال — ص ٨٤

وعلى الإنسان أن لا يأسف على الماضي ولا يحزن عليه ويقدم أمامه ما لابد منه ولا مفر وفي هذا المعنى يقول ابن عبد ربه :

لا تأسَفِ الدَّهرَ علـى مَـا مَضَـى   والقَ الذي مَا دونَـهُ مِنْ مَحيصْ[1]

فالمراد بقوله(ما دونه من محيص) كما ذكر ابن منظور أي ما عنه "محيد و مهرب"[2] ، وقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم في عدة آيات منها قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾[3] .

لقد أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين ، ولكلٍ منهم معجزته الدالة على صدق رسالته وخاتم الأنبياء والمرسلين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام جاء بالكتاب المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه داعيا للدين القويم بالترغيب والترهيب ولا يحق لمن سمع هذا الكتاب وعلم ما فيه أن يتجاوز حدوده ، يقول الغزال في هذا المعنى :

كـأنِّي لَـمْ أَسْـمعِ كِتـابَ مُحمَّـدٍ   ومـا جَـاءَ في التَنزيلِ فيه من الزَّجْرِ[4]

وهذا البيت يتضمن معنىً قرآنياً استلهمه الغزال من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾[5] ، التي يدور معناها حول كل ما جاء من أخبار الأمم السابقة وقصصهم التي قصها القرآن الكريم لأخذ العظة والعبرة ،ولتزجرهم عن التكذيب والكفر .

---

١ ديوان ابن عبد ربه — ص١٠٥
٢ لسان العرب — مادة (حيص)
٥ القمر : ٤

٣ الشورى : ٣٥ ووردت هذه اللفظة في إبراهيم : ٢١- فصلت : ٤٨- ق: ٣٦
٤ ديوان الغزال – ص ٧٩

كما أن الله عز وجل جعل لعباده موعداً للحساب والجزاء ، وكل من كتب الله له النجاة يعمل بالصالحات خشية ذاك الموعد وهذا ما يقوله ابن عبد ربه في قوله :

وَمَعْشَرُ أَوْعَدهُمْ رَبُّهُمْ فَبادَروا خَشْيَةَ ذَاكَ الوعِيدِ[١]

وهذا الموعد يتمثل في يوم القيامة الذي قال الله تعالى عنه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾[٢] ، "أي ونفخ في الصور الذي هو القرن ذلك يوم الوعيد للكفار بالعذاب"[٣] .

ويقول ابن عبد ربه في الشيب :

كآبَةُ الذُّلِّ في كِتَابِي وَنَخْوَةُ الْعِزِّ في جَوابِي
قَتَلْتَ نَفْساً بِغَيرِ نَفْسٍ فَكَيْفَ تَنْجُو مِنْ الْعَذَابِ؟
خُلِقْتَ مِنْ بَهْجَةٍ وَطِيبٍ إِذْ خُلِقَ النَّاسُ مِنْ تُرابِ
وَلَّتْ حُمَيَّا الشَّبابِ عَنِّي فَلَهْفَ نَفْسِي عَلَى الشَّبابِ
أَصْبَحْتُ وَالشَّيْبُ قَدْ عَلانِي يَدْعُو حَثِيثاً إلى الخَضَابِ[٤]

وفي هذه المرحلة التي تعتبر مرحلة انتقالية في حياة ابن عبد ربه من حياة اللهو والمجون إلى حياة الزهد والعبادة ، يصور حاله بعد المشيب وقد داهمه الشيب داعيا إلى الخضاب ، وتلهف نفسه لما مضى من شبابه . وكنى بقتل النفس بغير حق عن قتل بياض الشعر لسواده

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٧٧
٢ سورة ق : ٢٠

٣ أيسر التفاسير – ١٤٣/٥
٤ ديوان ابن عبد ربه – ص٥١

ولا يخلو كلامه في ذلك من التأثر بمعاني القرآن الكريم إذ أن قتل النفس بغير حق وتحريم ذلك معنى قرآني يظهر جليا في قوله تعالى ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾[٢].

أما بالنسبة للخلق فلا شك أن أساس النشأة الأولى وبداية الخلق من تراب وهذا المعنى وجد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[٣].

ومن هنا فقد استطاع الشعراء مزج اقتباساتهم من القرآن الكريم بأبياتهم الشعرية ،حتى تكاد تكون وحدة متكاملة لا تنفك عنها . وهذه الاقتباسات من معاني القرآن الكريم هي في حقيقتها إيماءات وإشارات ذكية ،دون اللجوء إلى الصراحة والوضوح في ذلك.

---

١ الكهف : ٧٤
٢ المائدة: ٣٢

٣ آل عمران: ٥٩

٣- قصص قرآني :

اعتمد القرآن الكريم في الإخبار عن الأمم السابقة على أسلوب القص لاسيما في حكايته عمن أخذهم الله جزاء كفرهم وطغيانهم وذلك بهدف الاتعاظ والاعتبار بحالهم وهذا النوع من القصص يمكن أن نطلق عليه القصة التاريخية التي تحكي أحداثا حقيقية تضم شخصيات من واقع التاريخ كقصص الأنبياء وأتباعهم من الصالحين ، والقرآن الكريم مليئ بمثل هذه القصص بل إن بعض السور تدور بكاملها على مثل هذه القصص وتسمى السورة كاملة باسم بطل هذه القصة مثل سورة يوسف ، وإبراهيم ،ومحمد وغيرها .

وقد عمد الشاعر الأندلسي إلى التلميح إلى مثل هذه القصص في بعض أشعاره إلا أن الذي اشتهر بذلك في هذه المرحلة هو ابن عبد ربه الذي يقول وهو يتطلع للمزيد من المكارم والرغبات :

وَالحُرُّ لا يَكْتَفِي مِنْ نَيْلِ مَكْرُمَةٍ حَتَّى يَرُومَ الَّتي مِنْ دُونِهَا الْعَطَبُ
يَسْعى بِهِ أَمَلٌ مَنْ دُونَهُ أَجَلٌ إنْ كَفَّهُ رَهَبٌ يَسْتَدْعِهِ رَغَبُ
لِذَاكَ مَا سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ: أَرِنِي أَنْظُرْ إلَيْكَ وَفِي تَسْآلِهِ عَجَبُ
يَبْغِي التَّزَيُّدَ فِيمَا نَالَ مِنْ كَرَمٍ وَهْوَ النَّجِيُّ لَدَيْهِ الوَحْيُ والكُتُبُ[١]

فالمكارم والأخلاق العالية والرغبات الحسنة مما يسعى الكرام إلى التزيد منها

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٤٦

وتـــأبى أنفسهم الأبية التقاعس عنها وعن التفاني في بلوغها رغبة لا رهبة ، ولتعزيز هـذا المعنى القائم على الرفعة وزيادة المنزلة ، لجأ الشاعر إلى التلميح لقصة موسى عليه السلام عندما كلم ربه وطلب رؤيته إلا أن الله عز وجل وجهه لرؤية جبل الطور الذي تجلى سبحانه وتعالى له فإن استقر الجبل مكانه بعد رؤية الله عز وجل حينها يتمكن موسى من رؤيته سبحانه وتعالى ، إلا أن الجبل أنهد على الرغم من قوته وشدته فخر موسى صعقا ، وهذه الأحداث حكاها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾[1] . فموسى كليم الله عز وجل ميزه الله على سائر الأنبياء بالتحدث إليه وأعطاه الكثير من المعجزات والكرامات إلا أنه أراد بطلبه النظر إلى الله عز وجل الزيادة من هذه المكارم .

ومن معجزاته عليه السلام العصا التي أمره الله عز وجل أن يضرب بها البحر ليشق طريقا له وللصالحين من قومه للنجاة من فرعون وأتباعه وقد أشار ابن عبد ربه إلى هذه القصة في أبياته التي يذم فيها الدنيا التي لا يبقى فيها إلا اللئام من البخلاء فيقول :

وَلَوْ أَنَّ مُوسى جَاءَ يَضْرِبُ بِالعَصَا ... لَمَا انْبَجَسَتْ مِنْ ضَرْبِهِ البُخَلاءُ
بَقَاءُ لِئَامِ النَّاسِ مَوْتٌ عَلَيْهِمُ ... كَمَا أَنَّ مَوْتَ الأَكْرَمِينَ بَقَاءُ[2]

---

١ الأعراف : ١٤٣

٢ ديوان ابن عبد ربه — ص ٤١

وقد ذكر القرآن الكريم هذه القصة في سورة الشعراء حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾[1] . ويصور ابن عبد ربه حالة مريض زاره وكيف علاه الشحوب والضنى داعيا له بكشف الضر إذ يقول :

رُوحِ النَّدى بَينَ أَثْوابِ الْعُلا وَصِبٌ ... يَعْتَنُّ فِي جَسَدٍ لِلْمَجْدِ مَوْصُوبِ

مَا أَنتَ وَحْدَكَ مَكْسُوًّا شُحُوبَ ضَنًى ... بَلْ كُلُّنا بِكَ مِن مُضْنًى وَمَشْحُوبِ

يَا مَنْ عَلَيْهِ حِجابٌ مِنْ جَلالَتِهِ ... وَإِنْ بَدَا لَكَ يَوْمًا غَيْرَ مَحْجُوبِ

أَلْقَى عَلَيكَ يَدًا لِلضُّرِّ كَاشِفَةً ... كَشَّافُ ضُرِّ نَبِيِّ اللهِ أَيُّوبِ[2]

وفي أبياته تلميح لقصة أيوب عليه السلام وما ألم به من ضر أصابه في ماله وولده ونفسه فشكر وصبر وكيف دعا ربه بعد أن بلغ البلاء منتهاه أن يكشف عنه ما ألم به واستجاب ربه لدعائه فكشف عنه ما أصابه وعوضه في أهله وماله وولده بل ضاعف له ذلك ، والقرآن الكريم يحكي هذه القصة إذ يقول الله تعالى :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾[3] .

١الأعراف : ١٦٠

٢ ديوان ابن عبد ربه — ص ٥٢

٣ الأنبياء : ٨٣

كما يقول ابن عبد ربه في الموعظة :

بَكيتُ حَتَّى لم أَدَعْ عَبرَةً ... إذْ حَملوا الهودَجَ فَوقَ القَلوصْ

بُكاءَ يَعقوبٍ عَلى يُوسُفٍ ... حَتَّى شَفَى غُلَّتَهُ بالقَميصْ

لا تأسَفِ الدَّهرَ عَلى ما مَضَى ... والقَ الذي مَا دونَهُ مِنْ مَحيصْ

قَدْ يُدْرِكُ المُبطيءُ مِنْ حَظِّهِ ... وَالخيرُ قَدْ يَسبقُ جُهْدَ الحريصْ[1]

فابن عبد ربه يشبه بكاءه هنا ببكاء يعقوب عليه السلام الذي بكى على فقد ابنه يوسف حتى ابيضت عيناه ،وذلك بعد أن تآمر أخوته عليه وألقوه في غيابة الجب ورجعوا لوالدهم يبررون فقده بمبررات واهية حتى قال لهم كما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[2] .

ثم رد الله عز وجل إليه بصره عندما أرسل يوسف إليه بقميصه وذكر القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[3]، وقصة يوسف طويلة تكلم عنها القرآن الكريم في سورة كاملة سميت باسمه، وقد عمد ابن عبد ربه إلى التلميح لهذه القصة في بيت واحد يقول فيه :

بُكاءَ يَعقوبٍ عَلى يُوسُفٍ ... حَتَّى شَفَى غُلَّتَهُ بالقَميصْ

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٠٥

٢ يوسف : ٨٤

٣ يوسف : ٩٣

ولأن الزهد من الموضوعات التي يراد منها الترهيب من زينة الحياة الدنيا ، والترغيب في الآخرة فقد اعتمد في أكثر جوانبه على نوع آخر من أنواع القصص ، ألا وهو القصة التمثيلية لما فيها من حيوية في عرض الأحداث وقوة في التخيل [١] .

ومن مثل هذا القصص التمثيلي في شعر الزهد الأندلسي قول ابن عبد ربه في وصف الدنيا في أبيات قالها في الموعظة :

أَلا إِنَّما الدُّنيا نَضَارَةُ أَيْكَةٍ إِذا اخْضَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانِبُ

هِيَ الدَّارُ مَا الآمَالُ إِلاَّ فَجَائِعٌ عَلَيْهَا وَلا اللَّذَّاتُ إِلاَّ مَصَائِبُ

فَكَمْ سَخِنَتْ بِالأَمْسِ عَيْنٌ قَرِيرَةٌ وَقَرَّتْ عُيُوناً دَمْعُهَا الْيَوْمَ سَاكِبُ

فَلا تَكْتَحِلْ عَيْنَاكَ فِيهَا بِعَبْرَةٍ عَلى ذَاهِبٍ مِنْهَا فَإِنَّكَ ذَاهِبُ [٢]

فابن عبد ربه يمثل الدنيا في زوالها بالصورة المتغيرة للنبات (إذا أخضر منه جانب جف جانب) وهذه الصورة وردت في القرآن الكريم الذي مثل الحياة الدنيا بالنبات في قوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [٣] .

١ انظر القصص القرآني في الشعر الأندلسي – ص٢٠-٢١

٢ ديوان ابن عبد ربه — ص ٤٩ – وفي بغية الملتمس (غضارة أيكة–وكم سخنت) – ص ١٣٩

٣ الحديد : ٢٠

ثانيا : الحديث الشريف :

اهتم الأندلسيون بجانب دراستهم للقرآن الكريم بدراسة الحديث الشريف فلا يشب الولد فيهم إلا وقد فقه هذا العلم وبرع فيه ، يقول الدكتور شوقي ضيف : " نشطت الأندلس في علم الحديث نشاطا واسعا منذ محدثها وقاضيها معاوية بن صالح المتوفى سنة ١٧٨هـ سواء في روايته أو في التصنيف فيه وفي رجاله "(١) .

"ومن مشاهير حفاظهم أبو عبد الرحمن بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، رحل إلى المشرق فروى عن الأئمة وأعلام السنة ورجع إلى الأندلس فملأها علما " (٢) .

وثقافة الشاعر الأندلسي الإسلامية انعكست بلا شك على كثير من شعره فظهر تأثره بالحديث الشريف كما ظهر تأثره بالقرآن الكريم فيما سبق . والدليل على ذلك أن بعض الشعراء صاغوا أبياتهم مقتبسين من ألفاظ و معاني الحديث الشريف .

فهذا ابن عبد ربه يقول في أبياتٍ له أشار في كتابه العقد الفريد أنها مقتبسة من الحديث الشريف :

وَجــهُ عَليــهِ مِــنَ الحيــاءِ سَــكينَةُ ... وَمَحَبَّــةُ تَجــري مَــعَ الأَنفــاسِ

وإذا أَحَــبَّ اللهُ يَومــاً عَبْــدَهُ ... أَلقَــى عَليــهِ مَحَبَّــةً للنَّــاسِ (٣)

١- عصر الدول والإمارات الأندلس–ص١٠٩ .

٢- الإسلام في اسبانيا ، د/ لطفي عبد البديع –ط٢-١٩٦٩م – مكتبة النهضة المصرية –القاهرة– ص٤٤

٣- ديوان ابن عبد ربه – ص ١٠٣

فقد يقذف الله عز وجل محبة بعض الناس في قلوب الآخرين فتتقارب أنفسهم ، وتتفق خواطرهم ، وهذه المحبة ما هي إلا دليل على حب الله عز وجل لعبده .

وقد صاغ ابن عبد ربه هذه الأبيات في معنى الحديث الذي رواه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إن الله يحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل ، فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في أهل الأرض)[1] .

ومن الأحاديث الشريفة التي استخدمها الشعراء حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في يوم عاشوراء (من وسع على أهله يوم عاشوراء وسع الله على أهله طول سنته)[2] .

فقد كتب عبد الملك بن حبيب أبياتا إلى الأمير عبد الرحمن في ليلة عاشورا تدور بجملتها حول معنى هذا الحديث حيث يقول :

لا تَنْسَ - لا يُنْسِكَ الرحمنُ - عاشوَراء ... واذكُرهُ لا زلتَ في الأَحْيَاءِ مَذْكُورا

قَالَ الرسولُ - صَلاَةُ الله تَشْمَلُهُ - ... قولاً وَجَدْنَا عَليه الحَقَّ والنُّورَا

مَنْ بَاتَ فِي لَيْلِ عَاشوَراءِ ذَا سَعَةٍ ... يَكُنْ بعَيْشَهِ فِي الحَوْلِ مَحْبُورَا

---

١ صحيح الإمام البخاري ، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري-ط١-١٤٢٢هـ - دار طوق النجاة-بيروت- كتاب الأدب - باب المقة من الله تعالى- رقم الحديث ٦٠٤٠-٨/ ١٤

٢ الجامع لشعب الإيمان - لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق الدكتور/ عبد العلي عبد الحميد حامد- الدار السلفية -بومباي- رقم الحديث ٣٥١٢-٧/ ٣٧٥

فَــارْغَبَ فَدَيْتُكَ فِيمَـــا فِيهِ رَغَّبَتنـــا   خَيْــرُ الــورى كلِّهــم حَيّــاً ومقْبُــوراَ[1]

يذكر الفقيه ابن حبيب للأمير فضل هذا اليوم وأهمية السعة فيه على الأهل وأثر ذلك على الإنسان ، ويعظه بضرورة اغتنامه وعدم التفريط في صيامه، امتثالاً لكلام الرسول صلى الله عليه وسلم .وقد ورد في صحة هذا الحديث الكثير من الأقوال المتباينة[2]،إلا أن ذكره في أبيات الفقيه عبد الملك بن حبيب دليلا على صحته وثبوته عنده ،وأن له أصلاً[3] .

ومن معاني الحديث الشريف التي استخدمها الشعراء قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن العبد إذا وضع في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم)[4]، فقد ضمن الغزال هذا المعنى في أبياته التي يقول فيها :

أنظـــرْ إليَّ إذا أُدرجـــت في كَفَـــني   وانظُـرْ إليّ إذا أُدرجـتُ في اللّحــدِ
وَاقعـدْ قليـــلاً وعـــاِينْ مَنْ يُقيم مَعي   ممّــن يُشــيّعُ نَعشــي مِــن ذَوي وُدّي[5]

---

١ وردت هذه الأبيات في الإحاطة في أخبار غرناطة –٢/ ٣٧ – والمقتبس من أنباء الأندلس – ص ١٨٤– كمـا وردت في نفـح الطيب –٦/٢. إلا أن البيت الثالث عند المقري يختلف عن ما ورد في المصادر الأخرى حيث يقول:

فـــيمن يوســـع في إنفـــاق موسمـــه   أن لا يـــزال بـــذلك العـــام ميســـورا

والأرجح ما ورد في رواية الأبيات في المصادر الأخرى ،ويؤكد ذلك المقري نفسه الذي علق على هذا البيت بأنه نسي لفظـه فكتبـه بالمعنى والوزن لطول العهد به . انظر نفح الطيب –٦/٢

٢ انظر صيام يوم عاشوراء وما يرتبط بهذا اليوم ، جمع وترتيب محمد عودة الرحيلي- ١٤١٤هــ/١٩٩٤م – دار الرسالة– ص ١٢٤ إلى ص١٢٨

٣ نفسه –ص١٢٧

٤ صحيح مسلم–كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها – باب عرض مقعد الميت عليه واثبات عذاب القبر- ٢٠٣/١٧

٥ ديوان الغزال – ص ٦٤

وقال ابن عبد ربه في محمد بن وضاح أحد علماء قرطبة:

جَادتْ لكَ الدُّنيا بِنعمةِ عيشِها وَكفاكَ مِنْها مِثْلُ زادِ الراكبِ
(١)

هذه النصيحة التي قدمها الشاعر ما هي إلا اقتباس من معنى الحديث الشريف الذي يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنما يكفي أحدكم من الدنيا مثل زاد الراكب)[٢].

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٥٣

٢ الجامع لشعب الإيمان– رقم الحديث ٩٩١٥– ١٨/ ٤٣٤

ثالثا : مصادر قديمة :

تزخر هذه المصادر والمتمثلة في كل ما ورد عن القدماء من أقوال أو أشعار أو أمثال بالكثير مما استقى منه الأندلسيين مادتهم الشعرية و تقسم هذه المصادر إلى ثلاثة أقسام :

١ – أقوال النساك والزهاد

اعتمد بعض الشعراء الأندلسيين على أقوال بعض الصالحين فنظمها شعرا وفي مقدمة هؤلاء الشعراء ابن عبد ربه الذي أكثر من ذلك في عقده ،من ذلك قوله :

انظُـرْ إلى بـاطنِ الـدُّنيا ، فظاهرُهـا   كُـلُّ البـهائمِ يَجْـري طَرفُهـا فيــهِ

(١)

وقد ذكر هذا المعنى الذي استقى منه هذا البيت في عقده حيث يقول : " وإنّما رَكَّب اللهُ العقلَ في الإنسان دون سائر الحَيوان ليستدلَ بالظاهر على الباطن، ويَفْهم الكثيرَ بالقليل "[٢] . ويبدو أن كلا المعنيين قائم على النظر والتأمل في الدنيا وباطنها الذي يؤدي بالإنسان إلى الزهد فيها ،وكأنه ربط عدم الزهد في الدنيا بقلة العقل الذي ميز الله به الإنسان عن الحيوان . ومن تأثره بأقوال السابقين ما ذكره في عقده من قول منسوب لبعض الحكماء "وقالوا : الأيام مزارع فما زرعت فيها حصدته "[٣] ،فقد نظم ذلك شعرا في قوله :

إنَّ الحيـــاةَ مَـــزارعٌ   فَـازرَعْ بهـا مـا شِـئْتَ تَحْصُـد [٤]

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٦٩

٢ العقد الفريد – ٢/ ٣٥٧

٣ نفسه – ١/ ٢٥٠

٤ ديوان ابن عبد ربه – ص ٦٧

ومما ذكره من أقوال السابقين قولهم: (الشيبُ نذيرُ الموت) [١]،وقد نظم ابن عبد ربه ذلك شعراً في قوله :

نَذيرُ المَوْتِ أَرْسَلَهُ إِلَيْنا   فَكَذَّبْنا بِما جاءَ النَّذيرُ [٢]

وقد علق الدكتور سامي مكي العاني على ما فعله ابن عبد ربه من تحويل أقوال الزهاد إلى نظم بقوله : "وهو حين فعل ذلك أتى بشعر متكلف لا يعبر عن عاطفة بقدر تعبيره عن الفكر "[٣] .

لاشك أن كل ابن آدم خطاءَ ولا يخلو أحد من البشر من العيوب ، وهذه سنة الله في الكون حيث انفرد سبحانه وتعالى بصفات الكمال وتنزه عن صفات النقص ، إلا أن الإنسان بطبعة ميال إلى الانشغال بغيره فينظر في عيوبهم ، وكان الأجدى به الانشغال بعيوب نفسه والعمل على إصلاحها وتهذيب أخلاقه وفي هذا المعنى يقول الغزال :

وِلكُلِّ إِنسانٍ بِما في نفسِهِ   مِنْ عَيّبِهِ عن غيرِهِ أشغالُ [٤]

وهذا المعنى ورد عند ابن منبه الذي امتدح من انشغل بعيوبه عن عيوب غيره بقوله: « طوبى لمن نظر في عيبه عن عيب غيره »[٥] . فالغزال يقر بأن الإنسان فيه من العيوب ما يشغله عن عيوب غيره ،في حين يمتدح ابن منبه من أدرك هذه الحقيقة والتزم بها .

١ العقد الفريد –٣/٤٣
٢ ديوان ابن عبد ربه – ص ٩٠
٣ دراسات في الأدب الأندلسي – ص٢٨٢
٤ ديوان الغزال – ٩٣
٥ الزهد ، لأحمد بن حنبل –دار الكتب العلمية –بيروت– ص ٣٧١

٢-الشعر العربي

لقد تناول الشاعر الأندلسي ، الشعر العربي القديم مضمنا في شعره بيتا ، أو شطرُ بيتٍ كنوع من الاستشهاد ، أو مستلهما معنى البعض منها في تكوين أبياته .

وكان ابن عبد ربه من أكثر الشعراء الذين استشهدوا بأبيات الشعر القديم في أشعارهم ومن ذلك قوله في الشيب :

بَياضُ شَيْبٍ قَدْ نَصَعْ رفَعْتُهُ فما ارتَفَعْ
إذا رَأى البِيضَ أَنْقَمَعْ مِنْ بَيْنِ يَأْسٍ وطَمَعْ
لِلّهِ أيَّامُ النَّخَعْ يَا ليتَني فِيها جَذَعْ
أَخُبُّ فِيها وأَضَعْ [1]

يذكر ابن عبد ربه الشيب وما آل إليه أمره بعد المشيب من ضعف مع حنينه لأيام الشباب وقد استعان في أبياته ببيت لدريد بن الصمة مأخوذ من قوله لمالك بن عوف في يوم غزوة حنين وقد كان شيخا همّا لا قوة فيه :

يَا لَيْتَنِي فِيْهَا جَذَعْ أَخُبُّ فِيْهَا وَأَضَعْ
أَقُودُ وَطْفَاءَ الزَّمَعْ كَأَنَّهَا شَاةٌ صَدَعْ [2]

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ١١١

٢ ديوان دريد بن الصمة الجشمي–تحقيق محمد خير البقاعي– دار قتيبة–١٤٠١هـ–١٩٨١م – ص ٩٣

ومما يلاحظ على الشطر الأول من البيت أنه مقولة لورقة بن نوفل وردت في حديث الوحي حيث يقول: " يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك "[١] .

ويكثر ابن عبد ربه من ذكر الموت حتى في أغراضه الشعرية الأخرى ، ومن ذلك قوله في أبياتا قالها في محبوبة :

مَنْ لمْ يَمُتْ عَبطَةً يُمتْ هَرَماً		الموتُ كأسُ والمرءُ ذائقُها [٢]

هذا البيت الذي ضمنه ابن عبد ربه في أبياته هو لأمية بن أبي الصلت ذكره مع مجموعة من أبيات أخرى يقول فيها :

يُوشكُ مَنْ فرَّ من منِيَّتهِ		في بعضِ غِرَّاتهِ يُوافقُها

منْ لمْ يمتْ عَبْطَةً يُمتْ هَرَماً		للموتِ كأسٌ والمرءُ ذائقُها[٣]

كما ذكر ابن عبد ربه بيتا آخر عن الموت يقول فيه :

فالمنايا مَا بينَ غادٍ وسارٍ		كُلُّ حَيٍّ برهْنِها غَلِقُ[٤]

يصور فيه حركة الموت طوال اليوم ما بين غاد وسار والأحياء مرهونين في يده إلى أن تحين لحظة كل منهم ، وهذا البيت للصاحب إسماعيل بن عباد كما ذكر التونجي في تحقيقه

١ صحيح الإمام البخاري –كتاب بدء الوحي – ١/ ٧

٢ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٢٤

٣ ديوان أمية بن أبي الصلت – تحقيق د/ عبد الحفيظ السلطي –المطبعة التعاونية –دمشق –ط٢–١٩٧٧/٨/٢٠٠٠ – ص ٤٢١

٤ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٢٣

للديوان . و الموت راحة عند بعض الناس لتخلصهم من عناء الحياة وكدرها إلا أن ابن عبد ربه يتفق مع الشاعر الجاهلي الذي يرى أن ليس من استراح بالموت بميت وإنما الميت من لا ذكر له من الأحياء فيقول في ذلك :

أَيُّهـا اللاَّئِمـونَ مَـاذا عَلَـيْكمْ　　أَنْ تَعيشُـوا وأَنْ أَمُـوتَ بِـدائي ؟

لَـيْسَ مَـنْ مَـاتَ فَاسْـتَراح بَميْـتٍ　　إِنّمـا الميْـتُ مُيّـتُ الأَحْيَـاءِ [١]

والبيت الأخير كما ورد في الديوان ليس لابن عبد ربه ، وإنما لعدي بن الرعلاء الغساني [٢] . ومما لا شك فيه أن الموت حق على الأحياء ولا بد لكل حي أن يُحمل إلى قبره يوما ما ولابد لكل حُسن أن يُغيب في الثراء ، وفي هذا المعنى يقول الأمير عبد الله :

كَأَنَّـكَ قَـد حُمِلـتَ علـى سَـرِيرٍ　　وغُيبَ حُسـنُ وَجهـك في الثَّـرَاء [٣]

وقد ضمن الشاعر بيته شطر بيتٍ لشاعرة قديمة هي عقيلة بنت الضحاك بن عمرو عندما قالت في ابن عم لها يدعى عمرو :

يخيَّـل لي هَيَـا عمـرُو بـنَ كَعـبٍ　　كأنـك قـد حُمِلـتَ علـى سـريرِ [٤]

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٤٣

٢ انظر ديوان ابن عبد ربه هامش ص ٤٣ – وعدي بن الرعلاء هو ابن "رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي: امرأة إسماعيل بن إبراهيم، وأم (العرب المستعربة) وهم الطبقة الثالثة بعد العرب البائدة والعرب العاربة.وإن صحت رواية من جعل قحطان من نسل إسماعيل، فتكون رعلة أم القحطانيين والعدنانيين جميعا" الأعلام للزركلي – ٣/ ٢٨.

٣ البيان المغرب في أخبار الأندلس –٢/ ١٥٥

٤ كتاب الأغاني –لأبي الفرج الأصفهاني– دار الثقافة –بيروت–ط٣– ١٣٨١هـ–١٩٦٢م–٨/٤٥

وتأثُّرُ الشعراء الأندلسيين ببعض الشعراء أمر ظاهر في بعض أشعارهم وكان من أبرز الشعراء المتأثرين بهم أبو العتاهية . فهذا الغزال يقول- متأثراً به- في ستر الله على عباده المذنبين:

ومِنْ إنعامِ خالِقنا علينا بأنّ ذُنوبَنا ليستْ تَفوحُ
فلو فاحتْ لأصبَحْنا هُروباً فُرادي بالفَلا ما نستريحُ
وضاقَ بكلِّ مُنتحلٍ صلاحاً لنَتْنِ ذُنوبِه البلدُ الفسيحُ[1]

فقد وُجد هذا المعنى عند أبو العتاهية في مثل قوله:

أَحسَنَ اللَهُ بِنا أَن الخَطايا لا تَفوحُ
فَإِذا المَستورُ مِنّا بَينَ ثَوبَيهِ فُضوحُ[2]

وفي حتمية الموت ووقوعه لا محالة ، مهما اتخذ الإنسان من الحرس والحُجاب ، ومهما شاد من حصون وقباب ، يقول غربيب الطليطلي في ذلك:

لَعَمْرُكَ ما يَردُّ المَوْتَ حِصْنٌ إذا اتْتَابَ المُلُوكَ ولا حِجَابُ[3]

كما لا يستطيع الضعيف والفقير رد الموت كذلك الأقوياء والأغنياء مهما بلغوا من قوة وجاه وحرس شداد فلن يرد عنهم كل ذلك وقوع الموت بهم متى شاء الله ذلك .

١ ديوان الغزال – ص ٥٩
٢ ديوان أبي العتاهية –دار الكتب العلمية –بيروت –ط٤– ١٤٢٥هـ–٢٠٠٤م –ص٦٠

٣ المغرب في حلى المغرب –٢/ ٢٤

وقد وُجِد هذا المعنى عند أبي العتاهية في قوله:

لا تــأمَنِ المْوتَ فِي طَــرْفٍ وَلاَ نَفَــسٍ وَإنْ تمَنَّعْتَ بِالْحُجَّــابِ وَالْحَرَسِ[١]

ومن الأبيات التي تأثر الشعراء فيها بأبي العتاهية ، بيت للغزال في المساواة بين الناس في القبور يقول فيه :

وَلا عَرَفُــوا العَبيــدَ مِــنَ المَــوالِي وَلا عَرَفُــوا الإنــاثَ مِــنَ الــذُكورِ[٢]

وهذا المعنى الذي ذهب إليه الغزال ،سبقه إليه أبو العتاهية الذي يقول في ذلك:

وَلَقَــدْ مَــرَرْتُ عَلــى القُبُــورِ فَمَــا مَيَّــزْتُ بَــيْنَ العَبْــدِ وَالْمَــوْلَى[٣]

ويقول ابن عبد ربه في مكارم الأخلاق:

إنَّ الحيــــــــاةَ مَــــــــزارِعُ فَــازْرَعْ بِهــا مــا شِــئْتَ تَحْصُــد[٤]

شبه الحياة بالمزرعة لاشتراكهما في العمل والحصاد ، فالإنسان يحصد في حياته ما يزرعه فيها ،فإن زرع خيرا حصد خيرا، وإن زرع شرا حصد شرا ، وقد ذكر الماوردي " زرع يومك ، حصاد غدك"[٥] .

---

١ ديوان أبي العتاهية – ص١١٥

٢ ديوان الغزال - ص٨٦

٣ ديوان أبي العتاهية – ص٨

٤ ديوان ابن عبد ربه – ص ٦٧

٥ أدب الدنيا والدين- لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي ، تحقيق مصطفى الســقا- دار الفكــر- ط٣ – ص ١١٦

كما ذكر أبو العتاهية هذا المعنى في أحد أبياته حيث يقول :

مـــا يُنـــالُ الخَـــيرُ بالشَّـــرّ وَلا   يَحْصِـــدُ الـــزّارِعُ إلاّ مـــا زَرَعْ [1]

ويقول ابن عبد ربه في الوعظ :

أتلْهـــو بَـــينَ باطِيـــةٍ وزيـــرِ   وَأنتَ مِـنَ الهـــلاكِ عَلى شفـيرِ ؟[2]

وهذا المعنى الذي ذهب إليه ابن عبد ربه مؤكدا حقيقة الرحيل من هذه الدنيا الفانية ليس بجديد ، إذ إن أبا العتاهية سبق إليه حيث يقول :

أَنَلْهُـــو وَأَيّامُنـــا تَـــذْهَبُ   وَنَلْعَـــبُ وَالْمَـــوْتُ لا يَلْعَـــبُ [3]

فيذِّكر أبو العتاهية اللاهيين بالحقيقة التي صرفهم اللهو واللعب عنها ألا وهي حقيقة الموت واعظا لهم بضرورة الاستعداد لها بكل عمل صالح . وفي حقيقة الموت أيضا ، وأحوال الناس إزاء هذه الحقيقة يقول ابن عبد ربه :

ومـا المـوتُ إلا شَـاهدُ مِثـلُ غائـبٍ   ومـا النّـاسُ إلا جاهـلُ مثـلُ عـالمِ [4]

فالموت من منظور ابن عبد ربه هو الغائب الحاضر ، الذي لا يمكن لأي أمريء نسيانه أو تجاهل أمره سواءً كان جاهل أو عالم ، والحقيقة ذاتها عند أبي العتاهية حيث جعل الموت

١ ديوان أبي العتاهية — ص ١٣٠
٢ ديوان ابن عبد ربه — ص ٩٧
٣ ديوان أبي العتاهية — ص ٢٧
٤ ديوان ابن عبد ربه — ص ١٥٧

مورد لابد لكل إنسان أن ينهل منه واردا غير صادر ، وذلك في قوله :

وما المـوتُ إلا مَـورِدٌ دُونَ مَصْـدَرٍ ... وما النَّـاسُ إلا وارِدٌ بَعْـدَ وَارِدِ

(١)

ومن الواضح التقارب بين المعنيين ، الذي اقترب فيه ابن عبد ربه من أبي العتاهية كثيرا . وفي حتمية الموت ووقوعه في أجل محدد يعلمه الله عز وجل ، ويقدره في كتاب معلوم يقول غربيب الطليطلي :

لَـهُ أَجَـلٌ ولي أَجَـلٌ وكُـلٌّ ... سَـيَبْلغُ حَيْـثُ يَبْلُغُـهُ الكِتَـابُ (٢)

وهذا المعنى ليس جديدا في الشعر الأندلسي ، حيث سبق إليه أبو العتاهية في قوله :

وإنَّ لكُـلِّ مُطَّلَـعٍ لَحَـدّاً ... وإنَّ لكُـلِّ ذي أجَـلٍ كِتابـا (٣)

ومع بيان حقيقة الموت وماهيته ، تتضح صفة هذه الدنيا وحقيقتها التي تتمثل في الفناء وقد شبهها ابن عبد ربه في زوالها بالأحلام وذلك في قوله :

ألا إنَّمـا الـدُّنيا كـأحلامِ نـائمٍ ... ومـا خـيرُ عـيشٍ لا يكـون بـدائمِ (٤)

وتشبيه الدنيا بالأحلام ، هو وصف سبق إليه الحسن البصري الذي قال في صفة الدنيا :

أحـلام نـومٍ أو كَظِـلٍّ زائـلٍ ... إن اللبيـب بمثلـها لا يُخْـدَعُ (٥)

---

١ ديوان أبي العتاهية — ص ٧٤

٢ المغرب في حلى المغرب — ٢/٢٤

٣ ديوان أبي العتاهية – ص ١٦
٤ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٥٧
٥ آداب الشيخ الحسن بن الحسن البصري وزهده وطرف أخباره- لجمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي ، تحقيق سليمان بن مسلم الحرش- دار المعراج الدولية للنشر –ط١-١٤١٤هـ-١٩٩٣م- ص ٧٥

ومع أن هذه الحقيقة التي تفضي إلى سرعة زوال الدنيا وفنائها ، لأن الحياة مهما طالت فهي قصيرة وعمر الإنسان فيها محدود ، إلا أنني أجد أن العلماء أطول الناس عمرا ذلك لامتداد علمهم وبقاء أثرهم إرثا خالدا لمن أتى بعدهم .

ومع أن الكتب وسيلة لحفظ العلم ، إلا أن أصل العلم ما فقهته وفهمته القلوب واستقر فيها ، ثم نقل بالكتب لغيرها ، وفي هذا المعنى يقول ابن عبد ربه :

وَالعِلْمُ مَا وَعَتِ الصُّدُورُ وَلَيْسَ مَا في الكُتُبِ يَخْلُدْ [1]

وهو معنى سبق إليه ، فقد أحسن ابن يَسِير [2] حين قال :

إذا لم تكنْ حافظاً واعياً فجمعُك للكتبِ لا ينفع [3]

ومن الأبيات التي تأثر فيها ابن عبد ربه بأبي نواس قوله :

لا تَبكِ لَيْلَى ولا ميّه ولا تَندُبَنْ راكباً نيّه
وَبكِّ الصّبا إذ طَوى ثوبَهُ فلا أحدٌ ناشِرٌ طيّه [4]

فقد قال أبو نواس ما يشابه ذلك في قوله :

لا تبكِ ليلى ولا تطرَب إلى هِندِ وَاشرَب عَلى الوَردِ مِن حَمراءَ كَالوَردِ [5]

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٦٧
٢ هو محمد بن يسير البصري، أبو جعفر: شاعر، من أهل البصرة.(ت ٢١٠) مولى لبني أسد..–انظر الأعلام – ٧/ ١٤٤

٣ الحيوان – لأبي عثمان عمر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون –مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده –مصر ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م- ط١ –١/ ٥٩

٤ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٧١

٥ ديوان أبو نواس–دار صادر للطباعة والنشر–دار بيروت للطباعة والنشر –بيروت-١٣٨٢هـ/١٩٦٢م – ص١٨٠

٣ – أمثال العرب

لقد ورد في المثل أنه " من قولك: هذا مثل الشيء ومثله، كما تقول: شبهه وشبهه، ثم جعل كل حكمة سائرة مثلا "(١) . ويعتبر المثل من المصادر القديمة التي اعتمد عليها الشاعر الأندلسي في بعض أبيات الزهد ومن ذلك قول غربيب الطليطلي :

أيها الآمِلُ ما ليس لَهُ ... طالما غرَّ جَهولاً أملُهْ

ربَّ مَن باتَ يُمنّي نفسه ... خانَهُ دونَ مُناه أجلُهْ

وفتًى بكَّرَ في حاجاته ... عاجلاً أعقب رَيْثاً عجلُهْ

قُلْ لَمَنْ مثَّلَ في أشعارِهِ ... يَذْهَبُ المرء ويبقى مثلُهْ

نافِسِ المحسن في إحسانه ... فسيكفيك مسيئاً عملُهْ(٢)

يقول المثل :(رب عجلة تهب ريثا) وهو مثل لمالك بن عمرو بن عوف يضرب "للرجل يشتدُّ حرصه على الحاجة فيخرق فيها ويفارق التؤدة في التماسها فتفوته وتسبقه وأصله في الرجل يُغذُّ السَّيْر ويواصله حتى يعطب ظهره فيقعد عن حاجته " (٣) .

---

١ كتاب جمهرة الأمثال –الأديب أبي هلال العسكري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – عبد المجيد قطايش – المكتبة العصرية صيدا – بيروت – ط١- ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م – ١/ ١٦

٢ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب -٤/ ٣٣٢- وقد وردت هذه الأبيات في ديوان أبو الأسود الدؤلي صنعه أبي سعيد الحسن السكري تحقيق محمد آل ياسين –دار ومكتبة الهلال- ١٤١٨ه-١٩٩٨م–ص ٣٥٩- على النحو التالي:

أيها الآملُ ما ليس لــه ... رُبَّما غَرَّ سفيهــاً أمَلُهْ

رُبَّ مَن بات يمنّي نفسَه حال دون مُناه أجَـــلُهْ
والفتى المحتال فيما نَابــه ربما ضاقتْ عليــه حِيلُهْ
قلْ لمن مَثَّل في أشعــاره يهلك المــرءُ ويبقى مَثَلُه
نافِسِ المحسنَ في إحسانه فسيكفيك سنــاءً عملُهْ

٣ جمهرة الأمثال –١/٤٠٦–٤٠٧

وقد استعان غريبب بهذا المثل في شطر بيته الذي يقول فيه (عاجلا أعقب ريثا عجله) ويستدل على أن مراد غريبب ضرب المثل قوله في البيت الذي يليه:

قُـــلْ لِمَـــن مَثَّـــلَ في أَشْـــعارِهِ يَـــذهب المَـرءُ وَيَبقَـى مَثَلُـه[١]

وكأنه بذلك يريد هذه الأمثال التي وصلت إلينا بعد زمن طويل في حين أن أصحابها ذهبوا وطواهم الزمان، فلم يعد أحد يذكرهم. وعن الخير والشر والمتبع منهما والمحذور يقول ابن عبد ربه:

والخَـيرُ وَالشَّـرُّ مَقْرُونـانِ في قَـرَنٍ فَـالخيْرُ مُتَّبَـعُ وَالشَّـرُّ مَحْـذُورُ[٢]

الشطر الثاني من هذا البيت ما هو إلا مثل قالته العرب في امرأة يقال أنها كانت ملكة بسبأ ويقال في قصتها أن قوم أتوا لخطبتها فقالت ليصف كل رجل منكم نفسه وليصدق وليوجز فتقدم الأول ثم الثاني وبعد أن أنهى كل منهما كلامه تقدم الثالث ويقال له شماس بن عباس فقال: أنا شماس بن عباس معروف بالنداء والبأس حسن الخلق في سجية والعدل في قضية مالي غير محظور على القل والكثر وبابي غير محجوب على العسر واليسر قالت: الخير متبع والشر محذور فأرسلتها مثلا[٣].

١ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – ٤/ ٣٣٢

٢ ديوان ابن عبد ربه — ص ٩٤

٣ انظر مجمع الأمثال- لأبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد —مطبعة السعادة - مصر —ط٢ — سنة ١٣٧٩هـ / سنة ١٩٥٩م-٢/ ٢٢٧

وفي موضع آخر يقول ابن عبد ربه في النصح:

يَـا أَيُّهـا المَشْـغُوفُ بِالحُـبِّ التَّعِـبْ كَـمْ أَنتَ في تَقْـرِيبِ مـَا لا يَقْتَرِبْ

دَعْ وُدَّ مَـنْ لا يَرْعَـوي إذا غضِـبْ وَمَـنْ إذَا عَاتَبْتَـهُ يَوْمـاً عَتَـبْ

إِنَّـكَ لا تَجْـنِي مِـنَ الشَّـوكِ العِنَـبْ [1]

ختم ابن عبد ربه خماسيته هذه بالمثل المشهور (إنك لا تجني من الشوك العنب) وهو مثل منسوب إلى أكثم بن صيفي ورد في معناه "إذا ظلمت فأحذر الانتصار وإذا أسأت فثق بسوء الجزاء "[2] . ومن الأقوال التي وردت في المصادر القديمة بشأن هذا المثل ما ذكره ابن هشام في سيرته بقوله " قال ابن إسحاق : وزعم ليث بن أبي سليم أنهم وجدوا حجرا في الكعبة قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة إن كان ما ذكر حقا ، مكتوبا فيه من يزرع خيرا يحصد غبطة ومن يزرع شرا يحصد ندامة . تعملون السيئات وتجزون الحسنات أجل كما لا يجتنى من الشوك العنب " [3] .

ومن الأبيات التي يمكن أن نعدها قائمة على أقوال العرب في أمثالها وحكمها لما يظهر من تقارب في المعنى بينها قول ابن عبد ربه:

وَالعِلْـمُ مَـا وَعَـتِ الصُّـدُو رُ ولَـيْسَ مَـا في الكُتـبِ يَخْلـدْ [4]

١ ديوان ابن عبد ربه — ص ٤٤

٢ جمهرة الأمثال – ١/٩٥

٣ السيرة النبوية –لابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وزملائه– مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده– مصر–ط٢– ١٣٧٥هـ–١٩٥٥م–١/ ١٩٦

٤ ديوان ابن عبد ربه – ص ٦٧

يرشدنا ابن عبد ربه إلى ضرورة حفظ العلم في القلب والعناية به ، ذلك لأن القلب محل العلوم كلها ، والعرب تقول في أمثالها :" حرف في قلبك خير من ألف في كتبك "[١] ،كما قيل في الأمثال بهذا الشأن "خير العلم ما حوضر به "[٢]، أي ما حفظه الإنسان واستدعاه عند الحاجة .

فابن عبد ربه فيما يبدو مولعاً بالأمثال ،وهو من أكثر الشعراء ذكراً لها في أبياته ،ومما يدل على ولعه بالأمثال أنه عقد لها باباً في عقده "إذ وجدها أبقى من الشعر ،وأشرف من الخطابة ، ولم يسر شيء مسيرها ولا عم عمومها ،وأشعاره في هذا الباب تتضمن المفهوم الذي دعا إليه الإسلام "[٣] .

ومن هنا تتجلى لي ثقافة الشاعر الأندلسي الذي كان على وعي وعلم واطلاع بكل ما يدور حوله من علوم ومعارف ، الذي فتح له الدين الإسلامي باب الاطلاع على ثقافات الشعوب وحضاراتهم المختلفة ،وسائر علومهم .الأمر الذي يتجلى فيما اعتمد عليه من مصادر مختلفة تقوم في بدايتها على كتاب الله وسنته ، اللذان يعدان المصدر الأساسي لهذا الدين ،وكان من الطبيعي لقوم آمنوا بالله رباً وبمحمد نبياً أن يتأثروا بما ورد في هذين المصدرين في جميع مناحي حياتهم ،وليس في الشعر فحسب .

---

١ أدب الدنيا والدين – ص ٦٥

٢ كتاب جمهرة الأمثال –ص٣٤٩
٣ الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي – ص٨١

كذلك يظهر علمهم باللغة والشعر والأمثال وما أسسه الأوائل من علوم مختلفة ،حيث أكب الكثير من الأندلسيين على تعلم العلوم الشرقية والتأثر بها ، وترجمة هذا التأثير في أبياتهم في جميع موضوعاتهم الشعرية ،التي من ضمنها الزهد .فهذا المزيج الذي شكله الأندلسيين من مصادر مختلفة بأشعارهم إنما يدل دلالة واضحة على ترسيخ الثقافة الإسلامية والعربية في نفوسهم مع الاختلاف الواضح في مقدار هذا التأثير في كل منهم ، كل بحسب معرفته واطلاعه على هذه العلوم .

ويعزو الدكتور السيد أحمد عمارة هذه الثقافة إلى رغبتهم في الاستفادة من الموروث الشعري الذي يعد أساساً في تكوين ثقافتهم، مما أدى إلى تأثرهم بها في أشعارهم بدون قصد منهم حيث يقول : "فاستلهام الموروث الشعري بلفظه أو بمعناه ظاهرة واضحة في شعرهم ،وهذا يدل على الرغبة في الاستفادة من هذا الموروث الذي يمثل عنصراً أساسياً في تكوين ثقافتهم ،وربما كان ذلك نتيجة لتأثرهم اللاشعوري بمحفوظهم الشعري ثم تسرب إلى أساليبهم دون قصد ،كذلك تأثروا بأسلوب القرآن الكريم لأنه يمثل قمة الفصاحة والبيان "[١] .

١ شعر بني أمية في الأندلس حتى نهاية القرن الخامس الهجري – ص ١٩٩

المبحث الثاني

محاور شعر الزهد

محاور شعر الزهد:

عرفنا فيما سبق أن الانطلاقة الفعلية لشعر الزهد في الأندلس كانت على يد الفقهاء في عهد الحكم الربضي الذي قال عنه الضبي: أنه كان طاغيا مسرفا وله آثار سوء قبيحة وأوقع بأهل الربض الوقعة المشهورة فقتلهم [١] . كما قال عنه المقري نقلا عن ابن حزم: "أنه كان من المجاهرين بالمعاصي السافكين للدماء . . "[٢] .

وما كانت هذه الثورة من قبل الفقهاء على الحكم إلا لما كان منتشرا في عهده من لهو ومجون ، وإقبال على الحياة الدنيا ومتعها ،حيث عُرف في بداية عهده بكثير من التحرر ، والميل إلى اللهو والغناء ،وإيثاره الندماء والشعراء على الفقهاء والعلماء مما اسخط الفقهاء عليه وأبعده عن قلوب الشعب ، هذا بالإضافة إلى أنه لم يسمح للفقهاء بالتدخل في الشئون السياسية للدولة على عكس ما كان لهم من منزلة رفيعة في عهد والده الذي كان يتميز بالورع والتقوى مما جعله يهتم بشئونهم ،ويقدم الكثير من التنازلات لهم .

وقد أدت هذه الأسباب مجتمعة إلى أن نقم الفقهاء على الحكم واستثاروا جمهور قرطبة ضده [٣] ،فأطلقوا صرخات مدوية منددين به، ومعارضين له أشد المعارضة .

---

* أفدت من كتاب الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي للدكتور منجد مصطفى بهجت في طريقة الكتابة ومعالجة الأفكار.

١ انظر بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي- ١٩٦٧- دار الكاتب العربي- ص ١٤

٢ نفح الطيب-١/ ٣٤٢

٣ انظر نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي ،كامل الكيلاني-ط١-١٣٤٢هـ/١٩٢٤م -مطبعة المكتبة التجارية-مصر -ص٨٠ - ومن ضمن الأسباب التي ذكرت ما ذكره ابن الأثير من قتل الحكم لعدد من أعيان قرطبة فكرهه أهلها -انظر الكامل في التاريخ ، لابن

الأثير – ط٢–١٣٨٧هـ/١٩٦٧م –دار الكتاب العربي–٥/١٧٢– ومن الأسباب أيضا ما ذكره ابن سعيد في المغرب أن " أصل ما هاجها أن بعض مماليك الحكم دفع سيفاً إلى صيقل فمطله، والغلام يتكرر عليه، والصيقل يتهكم به، فأغلظ الغلام للصيقل، وآل الأمر إلى أن خبطه به الصيقل، فقتله، وثار الهيج لوقته، كأنما الناس كانوا يرتقبونه، فهتفوا بالخلعان " – المغرب في حلى المغرب – ٤٢/١

ولست هنا في مجال البحث في هذه القضية وتبعاتها ، لأن ما يهمني ما تمخضت عنه من أبيات شعرية تواردت على ألسنة الفقهاء ، وما نظمه الأتقياء في تلك المرحلة المبكرة لظهور اتجاه الزهد في الشعر الأندلسي حيث كانت عبارة عن ردة فعل لهذا الوضع الاجتماعي والسياسي المضطرب ،الذي يدل دلالة واضحة على أن شعر الزهد نشأ في أوساط الشعب .

لقد كان من الطبيعي لشعر مصدره كتاب الله وسنته ، أن يناهض هذا الوضع ويعارضه أشد المعارضة سواء في زمن الحكم أو في غيره من أزمان ، لذا دار شعر الزهد في هذه المرحلة حول العديد من المحاور التي تنفر من الدنيا وزخرفها وتبين حقيقتها وباطلها ،وتذكر بالموت والفناء ،داعية إلى التوبة والإنابة لرب السماء .

ولا شك أن لكل محور من هذه المحاور جذور ممتدة في الأدب العربي ، خاصة وأن ظهور شعر الزهد في الأندلس لا يعد موضوعا جديدا في الأدب العربي ، بل سبق إليه المشارقه ففي القرن الأول ظهرت بعض الأبيات المتضمنة لأفكار دينية ،وقد عدَّ الدكتور محمد مصطفى هدارة هذه الأبيات مثل أبيات عدي بن زيد إرهاصا للشعر الزهدي الذي ظهر كمذهب له خصائص معينة وأصول وعناصر يرتكز عليها في القرن الثاني [١] .

---

١ انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري في القرن الثاني الهجري –د. محمد مصطفى هدارة – المكتب الإسـلامي –ط١ (١٤٠١هـ -١٩٨١م)- ص٣٠٣

وهذا يعني أن الزهد في القرن الأول عند شعراء المشرق لم يظهر بشكل واضح المعالم، وإنما كان عبارة عن مقدمات وأفكار مطبوعة بطابع ديني معين، ثم تشكلت هذه الأفكار مكونة هذا الاتجاه –اتجاه الزهد– في الشعر العربي في القرن الثاني .

وقد بدأ الشعر الأندلسي حيث كان الشعر المشرقي قد وصل ، " ذلك لأن الشعر الأندلسي شعر أمة جاوزت مراحل طفولتها البدائية منذ ما اجتازت عهود الجاهلية وحملها الإسلام، والفتوح ، وتركز السلطان السياسي ، والتمازج الاجتماعي إلى مرتبة مرموقة من النضج في مختلف ميادين الثقافة والحياة . . "[١] .

والواقع أن شعر الزهد الذي انتقل إلى الأندلس بعد قرابة مئة عام على ظهوره في المشرق بوصفه فنًا مستقلاً له خصائصه التي تميزه عن سائر الفنون، لا يخضع لمسألة التقليد التي ذهب إليها بعض الباحثين في الأغراض الأخرى كما أسلفت[٢] ، ذلك لأن شعر الزهد يعتمد في مضمونه على أفكار مستمده من الدين الإسلامي الذي يرتكز بدوره على مصدرين أساسيين هما الكتاب والسنة ،ومنهما تنطلق مبادئ الدين الإسلامي إلى المسلمين كافة في مشارق الأرض ومغاربها ، ثم يخضع بعد ذلك للعوامل البيئية والسياسية والاجتماعية والثقافية التي تختلف من أمة لأخرى .

---

١ الشعر والبيئة في الأندلس –د.ميشال عاصي –ط١ –منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع –بيروت – ص ٥١
٢ انظر ص٣٠- ص٣١ من هذه الدراسة

كما أن الزهد موضوع كبير ينطوي على الكثير من المعاني الإسلامية التي يصعب الفصل بينها فصلا دقيقا لا سيما المواضيع التي تتعلق بالوعظ الديني والحث على الآداب والأخلاق الكريمة ذلك لأنها تحث على ترك الدنيا والزهد فيها ،والإقبال على الآخرة والترغيب فيها . ومن قال أن الشعر الأندلسي فقير جداً من الناحية الذهنية التفكيرية [١]، ينظر إلى هذه المعاني التي تضمنتها أبيات الزهد ،وما فيها من التأمل وإعمال الفكر ،وعمق التجربة ،وصدق الانفعال ، مثل قول ابن عبد ربه :

أَلا إِنَّمـا الـدُّنْيا نَضَـارَةُ أَيْكـةٍ ... إِذا اخْضَـرَّ مِنْهَـا جَانِـبٌ جَـفَّ جَانِـبُ

هِـيَ الـدَّارُ مَـا الآمَـالُ إِلاَّ فَجَـائِعُ ... عَلَيْهـا وَلا اللَّـذَّاتُ إِلاَّ مَصَـائِبُ

فَكَـمْ سَـخِنَتْ بِـالأَمْسِ عَـيْنٌ قَرِيـرَةٌ ... وَقَـرَّتْ عُيُونـاً دَمْعُهَـا الْيَـوْمَ سَـاكِبُ

فَـلا تَكْتَحِـلْ عَيْنَـاكَ فِيهَـا بِعَبْـرَةٍ ... عَلَـى ذَاهِـبٍ مِنْهَـا فَإِنَّـكَ ذَاهِـبُ[٢]

هـذه المعاني الإسلامية والأفكار الدينية القائمة على حقائق واقعية ، هي مناط الدراسة في كل محور من هذه المحاور التي دار حولها مجمل ما وصلنا من أبيات زهديه في هذه المرحلة ،وهي معانٍ يشترك فيها الشعراء ذلك لأن منبعها ومصدرها واحد ،إلا أن أساليبهم في التعبير عنها يختلف من شاعر إلى آخر ،كلا بحسب الزاوية التي ينظر من خلالها إلى الموضوع ،والطريقة التي يعالجه بها .

---

١ انظر الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه – ص١٧

٢ ديوان ابن عبد ربه – ص ٤٩

١ – غرور الدنيا وزوالها وباطلها *:

أخبر الله تعالى عن زوال الدنيا وذهابها ، وذهاب ما عليها ، إذ يجعل الله جميع ما عليها خرابا ً يبابا ً ، وبلقعا ً لا نبت فيه في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ (١) . والرسول صلى الله عليه وسلم يبين حقارة الدنيا في قوله : «ما مثل الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع » (٢)

واعتماد الزهاد على نبذ الدنيا والانصراف عنها وعن التعلق بنعيمها الزائل صرفهم إلى اتخاذ زوال الدنيا وغرورها ،واثبات هذه الحقيقة وسيلة لوعظ الناس ، وتذكيرهم بمآل هذه الحياة ومصير الأحياء فيها ، وعدم التعلق بأسبابها الفانية .

والبيئة الأندلسية التي عاش فيها الكثير من الزهاد والفقهاء بما اشتملت عليه من ترف ونعيم ، كانت مهيأة أصلا لوعظ الناس بزوال الدنيا ونعيمها ، ودعوتهم إلى النعيم الذي لاينفد في دار المقامة ، لذا عمد الشاعر الأندلسي إلى استغلال هذا الجانب في الإكثار من الأبيات التي تتطرق للدنيا وغرورها وزخرفها ومباهجها التي مصيرها الفناء .

ففي تأملات الشاعر الأندلسي في الحياة تظهر رؤيته للدنيا وموقفه منها حيث أشار إلى زوال الدنيا وغرورها بتأكيده للعديد من الحقائق التي تتمثل فيما يلي:

---

* هذا العنوان اقتباس من كتاب اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري–د/محمد مصطفى هدارة–ص ٣٢٠

١ الكهف : ٨

٢ سنن ابن ماجه –الجزء الثاني– كتاب الزهد–باب ٢–٣–رقم الحديث ٤١٠٨– ص ١٣٧٦

- فناء الدنيا وصيرورة الأشياء فيها إلى زوال ،هذه الحقيقة التي تنطوي على خبرة سابقة في الحياة ، وصراع مستمر مع الأحداث ، يدركها الأمير عبد الله الذي يتأمل في هذا التحول الذي يقع فريسته كل شيء في الدنيا وينتهي به إلى فناء وذلك في قوله :

أَرَى الــــدُّنيا تَصِـــيرُ إلى فَنَــــاء وَمَــا فيهــا لشــيء مــن بَقَــاء[1]

واستخدام الشاعر للفعل (أرى) يدل على معاصرته لهذه الأحداث التي عُرف بها عصره فقد تولى هذا الأمير عرش الإمارة "فورث حملا ثقيلا من المشكلات العويصة "[2] .

-غرور الدنيا وفراق من فيها ، فالدنيا مطبوعة على الفراق ،لأنها دار الموت ، ودار الغرور تغر الإنسان وتخدعه بزبرج عيشها الذي سرعان ما يتلاشى ،وينتهي إلى زوال يقول محمد بن عبد السلام الخشني في ذلك واعظا :

أَخِـــي إِنْمَــا الَــدنيَا مَحَّلَــةُ فُرْقَــةٍ وَدَارُ غَـــرُورٍ آذَنَـــتْ بِفِـــرَاقِ[3]

ومما يدل أيضا على غرور الدنيا تغير هذه الحياة فهي لا تستقر على حال ، ولا يقر لها قرار ، فقد لاحظ ابن عبد ربه هذا التغير الذي يصاحب الحياة باستمرار، فمن حزن إلى

---

١ البيان المغرب في أخبار الأندلس – ٢/١٥٥

٢ الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري - ص٨٣

٣ جذوة المقتبس – ص ٦٤ – هذا البيت هو جزء من قصيدة مطلعها :

كـــأن لم يكـــن بـــين ولم تـــك فرقـــة إذا كـــان مـــن بعـــد الفـــراق تـــلاق

وقد حدث تناقض عند ابن خاقان في هذه القصيدة حيث ذكرها منسوبة للفقيه أبو عبد الله محمد بـن أبي عيسـى في موضـع ، وفي موضع آخر نسبها لشاعرنا- المرجع:مطمح الأنفس ومسرح التأنس لأبن خاقان دراسة وتحقيق محمد علي شـوابكله –دار عمـار – مؤسسة الرسالة – ط١ -١٤٠٣هـ-ص ٢٦٠ – ص٢٨٤،كما وردت الأبيات عند المقري منسوبة للفقيه أبو عبد الله محمد بن أبي عيسى ،وذلك لأن المقري يعتمد في أكثر نقله على مطمح الأنفس - نفح الطيب –٢/ ١٣

فرح، ومن مصائب إلى مسرات، والدنيا بهذه الحال أشبه بالأيكة التي إذا أخضر منها جانب جف جانب، فهذه الصورة المتغيرة للنبات التي تنتهي بزواله ما هي إلا مثال واقعي ملموس لغرور الدنيا وباطلها والانتهاء بزوالها وفنائها ،يقول ابن عبد ربه في ذلك:

أَلا إنَّما الدُّنيا نَضَارَةُ أَيْكَةٍ إذا اخْضَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانِبُ

هِيَ الدَّارُ مَا الآمَالُ إلاَّ فَجَائِعُ عَلَيْهَا وَلا اللَّذَّاتُ إلاَّ مَصَائِبُ

فَكَمْ سَخِنَتْ بِالأَمْسِ عَيْنٌ قَرِيرَةُ وَقَرَّتْ عُيُونَاً دَمْعُهَا الْيَوْمِ سَاكِبُ

فَلا تَكْتَحِلْ عَيْنَاكَ فِيهَا بِعَبْرَةٍ عَلَى ذَاهِبٍ مِنْهَا فَإِنَّكَ ذَاهِبُ[1]

لقد وُفق ابن عبد ربه في مطلع هذه الأبيات التي تنبض بالحياة ،حيث ألبس الدنيا بلباس الخير والشر ، ويتمثل ذلك في هذه الثنائية المتضادة في اخضرار النبات وجفافه التي "تسري على جوانب الحياة الأخرى فآمال اليوم فجائع الغد ،والملذات تتبعها مصائب، وقد تسخن العيون القريرة اليوم، وتقر العيون الباكية غدا"[2] ، والحقيقة لا تستحق الدنيا الحزن على ذاهب منها لأن كل ما فيها وما عليها ذاهب.

ويبدو أن ابن عبد ربه اختار الشجرة لرسم هذه الصورة لتأثره بالقرآن الكريم الذي مثل الدنيا بالنبات[3] ،وتأثره بالبيئة الأندلسية، لأن أول ما يلفت الأنظار في الأندلس كثرة أشجارها وبساتينها الغناء ،فقد أسرف الأندلسيون في تزيين قصورهم وبيوتهم بالأشجار

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٤٩

٢ القصص القرآني في الشعر الأندلسي – ص ٣١

٣ مثل ما ورد في سورة الحديد : ٢٠

"وكأنهم تنبهوا بأن القصور التي لا تحيط بها الأشجار تكون عارية تماما كالناس بلا ملابس "[1]،وفي ذلك دلالة على أهمية الشجرة ،ومكانتها في حياة الأندلسيين .

- نعيم الدنيا الذي شغل الشعراء فعملوا على وعظ الناس ببيان حقارته ،وسرعة زواله ،ومن ذلك تشبيهه بالخيال ، فكل ما فيها من نعيم زائل ،وإذا أقنع الإنسان نفسه بهذا النعيم وقنع إليه فقد قنع إلى خيال ، يقول الغزال في هؤلاء المغترين بالدنيا ونعيمها :

وَينَـــامُ عَـــن دُنيـــاهُ نومـــةَ قَـــانِعٍ　　　بنَعـــيمِ دُنيـــاهُ وذاكَ خَيَـــالُ[2]

وبهذا النعيم يطيب العيش لابن آدم لما فيه من متع وملذات إلا أن حقيقة الزوال والفناء تكدر صفوء العيش وتقلقه، وهذا ما يظهر في قول ابن عبد ربه الذي يدرك هذه الحقيقة :

مَـــا أطيَـــبَ العَـــيشَ لَـــولا أنَّـــهُ　　　عَـــنْ عَاجِـــلٍ كُلُّـــه مَتْـــرُوكُ[3]

- الزمن الذي يعد آلة العد لأيام الماضي والمستقبل في هذه الدنيا ،فما هذه الدنيا سوى اللحظة التي يعيشها ابن آدم ، وكل ما ينقضي فكأنه لم يكن ، فما مر انتهى ولن يعود ، وما سيأتي من الغيبيات قد يأتي أو لا يأتي على الإنسان ، وهذه الفلسفة في الزمن التي تدل دلالة واضحة على زوال الدنيا جاءت على لسان الغزال حيث يقول :

---

١ الإنسان الأندلسي بين الواقع العربي وما طمح إليه– ص٢٠٢

٢ ديوان الغزال – ص ٩٤

٣ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٢٩

وَمَـا هـذِهِ الـدُّنْيا سـوى كَـرِّ لَحظَـةٍ نعُـدُّ بهـا المَاضِـي ومَـا لمْ يَكُـن بَعْـدُ
هِـيَ الـزَّمَنُ المَوجُـود لا شَـئَ غَيْـرَه ومَـا مَـرَّ والآتِـي عَـدِيمَانِ يَـا دَعْـدُ[1]

وقد ذكر الدكتور محمد رضوان الداية في مقدمة هذه الأبيات قول الإمام ابن حزم في (رسالة التوقيف على شارع النجاة باختصار الطريق) :"وعلم العدد الذي تكلم فيه (أندر وماخش) مؤلف كتاب الارثماطيقي في طبائع العدد ومن نحا نحوه وهو علم حسن صحيح برهاني ،إلا أن المنفعة به إنما هي في الدنيا فقط : في قسمة الأموال على أصحابها ونحو هذا ، وكل ما لا نفع له إلا في الدنيا فهي منفعة قليلة (وفي رواية :تافهة) لسرعة خروجنا من هذه الدار ، ولامتناع البقاء فيها ، وكل ما ينقضي فكأنه لم يكن "[2] .

وإذا كان ابن حزم يحتقر علم العدد لاقتصار منفعته في الدنيا ،فالغزال يبالغ في هذا الاحتقار حين جعل الدنيا جزءاً حقيراً من هذا العدد يتمثل في اللحظة التي يعيشها ابن آدم في هذه الحياة ،التي بانقضائها ينعدم ذكرها فكأنها لم تكن ،و ذلك دلالة على زوال الدنيا .

ومن هنا تظهر لي نظرة الغزال للدنيا التي تدل على إدراكه بأنها ممر سريع ، لذا يحذر الإنسان من الاغترار بها لذهاب ما فيها من خير أو شر وهذا ما يظهر أيضا في قوله :

أَخِـي عُدَّ مَـا قَـاسَيْتَهُ وَتَقَـلَّبَتْ عَلَيْـكَ بِـهُ الـدُّنْيَا مِـنْ الخَيْـرِ والشَّـرِ
فَهَـلْ لَكَ فِي الدُّنيا سِوَى السَّـاعَةِ التي تَكُـونْ بِهَـا السَّـرَاءُ أَو حَاضِـرُ الضُّـرِّ

١ ديوان الغزال – ص ١١٧
٢ نفسه

فمَـا (كانَ) مِنْهَا لا يُـحَسُّ ولا يُـرى　　　وَمَـا لَـمْ يَكُـنْ مِنْهَـا عَمِـيٌّ عَـنْ الفِكْـرِ

فَطُـوبَى لِعَبْدٍ أَخْـرَجَ اللهُ رُوحَـهُ　　　إِلَيْـهِ مِـنْ الـدُّنْيَا عَلَـى عَمَـلِ البِـرِّ[1]

ويؤكد في هذه الأبيات على المعنى السابق الذي يحدد فيه حقيقة ملكية الإنسان للوقت الحاضر فقط ، بينما ينعدم الزمن الماضي والمستقبل .

كما أن للزمن أثراً آخر يتمثل فيما يخلفه في الإنسان من تغيير ، يجعله يبلى مع تقدم الزمان ، وتتبدل خلقته ، وتضعف قوته ، هذا التغير الذي طال كل من طال زمانه ،وفارق أقرانه ، تعرض له الغزال الذي يرى أنه لم يبقَ منه صحيحاً سوى اسمه ولسانه ، ولو كانت الأسماء تبلى ، لبلى اسمه لطول الزمان الذي عاشه ويصور ذلك في قوله :

أَلَسْـتَ تَـرَى أَنَّ الزَّمَـانَ طَـوَانِي　　　وَبَـدَّلَ خَلْقِـي كُلَّـهُ وبَرَانِـي

تَحيَّفَنِـي عُضْـواً فَعُضْـواً فَلَـمْ يَـدَعْ　　　سِوَى اسْمِي صَحِيْحَاً وَحْدَهُ ولِسانِي

وَلَـو كَانَـتْ الأَسْـمَاءُ يَدْخُلـها البِلَـى　　　لَقَـدْ بلَـى اسْـمِي لامْتِـدَادِ زَمَـانِي

وَمَـا لِـيَ لا أَبْلَـى لِتسْـعِينَ حِجَّـةً　　　وَسَـبْعٍ أَتَـتْ مِـنْ بَعْـدِهَا سَـنَتَانِ

إِذْا عَـنَّ لِي شَـخْصٌ تخَيَّـلَ دُونَـه　　　شَـبيهُ ضَـبْابٍ أَو شَـبيهُ دُخَـانِ[2]

---

١ ديوان الغزال – ص ٧٩ ،ص٨٠

٢ نفسه – ص١١٢–ص١١٣

لقد عُرف عن الدنيا أنها سريعة الزوال ،جُبلت على الفراق والفناء ،تتقلب بأهلها من حال إلى حال ،نعيمها خيال ،ودوامها محال ،كثيرها عناء ،وصاحبها في بلاء ،ومن ذلك كله تنطلق رؤية شعراء الزهد للدنيا .

وهذه الفكرة المتمثلة في زوال الدنيا وغرورها ، الناشئة من احتكاك الإنسان بالحياة وصراعه المستمر مع أحداثها ، ورؤيته لمجريات الأمور فيها ، كانت تراود الشعراء منذ الأزل مثل ما ورد لدى أمية بن أبي الصلت[1] الشاعر جاهلي ،والمتنبي[2] أحد مفاخر الأدب العربي في العصر العباسي ، وأبو العتاهية[3] الذي أدرك هذه الحقيقة ، فنبذ الدنيا بعد أن عرف حقيقتها ،وانصرف عنها إلى حياة الزهد والعبادة ويظهر ذلك كثيرا في ديوانه .

وتحتاج معرفة هذه الحقيقة إلى صراع مستمر مع الدنيا ، وأحداثها ، فلا يدركها الجاهل المتغافل إلا بعد موقف معين يتعرض له ، أو حادثة ما تجلو له هذه الحقيقة .

فمن خلال دواوين الشعراء القدماء تبين وجود هذه الفكرة لديهم ، وتناولهم لها في أشعارهم ، لذلك لا يمكن حصر هذه الفكرة على شعراء الزهد في هذه المرحلة ، لأنها

١ انظر ديوان أمية بن أبي الصلت – ص٥٠

٢ ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبرى المسمى بالتبيان في شرح الديوان –ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا–إبراهيم الإبياري –عبد الحفيظ شلبي– مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده– مصر – الطبعة الأخيرة ١٣٩١هـ/١٩٧١م– ١٣/٣

٣ ديوان أبي العتاهية – ص ١٦٦

فكرة ساذجة مستوحاة من واقع الحياة قد تأتي على لسان زاهد منقطع النظير في الانقطاع للعبادة ، وقد تأتي على لسان ماجن عربيد لا يمت للدين بصلة .

وأياً كان الأمر ففكرة زوال الدنيا يدركها كل إنسان باختلاف دينه ومذهبه ، في حين أن غرور الدنيا وتقلبها وتقلب أحوالها يحتاج الإنسان فيها إلى تجارب وخبرات حتى يدرك هذه الحقيقة التي كثيراً ما يغفل عنها ويحتاج إلى من ينبهه إليها ، لذا استغل الزهاد مثل هذا الأمر في الدعوة والتذكير بها مستغلين ما يحدث على أرض الواقع من أحداث الدهر وصروفه .

٢- ذكر الموت والأجداث:

لقد وجدت فكرة الموت والفناء أرضاً خصبة لدى الكثير من الزهاد والفقهاء ورجال الدين متمثلين هذه الفكرة في أقوالهم ،واستشعرها بعضهم فجادت قرايحهم بأبياتٍ هي أقرب إلى الموعظة منها إلى الشعر .

وشعراء الأندلس وفقهاؤها في مرحلة الفتح الإسلامي للأندلس تأثروا بتلك المعارك الطاحنة التي أخذت تقصف بأرواح الأبرياء حينا بعد حين والمتمثلة في "الحروب الدينية بين المسلمين والأسبان والفرنجة أولا ، وكان النزاع العنصري الدموي بين العرب والبربر ثانيا ،ثم الصراع القبلي بين العرب أنفسهم آخر الأمر ،لهذا كله كانت السمات السياسية لتلك الفترة هي النزاع والصراع والاضطراب والقلق "[1] .

ومن شأن هذه الحروب في كل زمان ومكان أن تخلف الموت والدمار ، ولم يكن الزهاد من الفقهاء والشعراء بمعزل عن كل هذه الأحداث ،بل من المؤكد أنهم تأثروا بما يدور حولهم من أحداث ،وصبوا ذلك كله في قالب الشعر الذي فجر مكنونات الصدور، وخفايا النفوس ، فانتابهم من الشعور بالموت والرهبة منه ما انتاب غيرهم من الشعراء .

إلا أنهم في ذكر الموت ذهبوا إلى أبعد من ذلك حيث نظروا إليه من منظور ضعف الإنسان وهيبته من الموت مهما بلغ من قوة وعتاد ، ويظهر ذلك في قول غربيب الطليطلي :

---

١ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة – ص٥٩

يُهَددِّدُني بمخلوقٍ ضَعِيفٍ ... يهابُ مِنَ المنيَّةِ مَا أَهَابُ

ولَيْسَ إِليْهِ مُحْيَى ذي حَيَاةٍ ... ولَيْسَ إِلَيْهِ مَهْلكُ مَنْ يُصَابُ

لَهُ أَجَلٌ ولِي أَجَلٌ وكُلٌّ ... سَيَبْلُغُ حَيْثُ يَبْلُغُهُ الكِتَابُ

وما يَدْرِي لَعَلَّ المُوتَ مِنْهُ ... قَرِيبٌ أُيَّنا قبلُ المُصَابُ

لَعَمْرُكَ مَا يَرُدُّ المَوْتَ حِصْنٌ ... إذا انْتَابَ المُلُوكَ ولا حِجَابُ

لَعَمْرُكَ إِنَّ مَحْيَايَ ومَوْتِي ... إلى مَلِكٍ تَذِلُّ لَهُ الصِّعَابُ[1]

فالعدو في نظر غربيب الطليطلي مخلوق ضعيف –ويقصد الحكم بن هشام– لأنه مهدد بالموت شأنه في ذلك شأن أي مخلوق آخر ، لذا هو لا يشكل خطرا على أحد فهو لا يملك هلاك أحد أو نجاته، لأن كلهم تحت طائلة الموت سواء .

وألمح بين طيات كلامه الشجاعة ،والقوة ،والتحدي ، والإصرار ، وقد كسا ذلك كله بلباس الدين والتقوى المتمثل في قوة إيمانه واعتقاده في الله عز وجل وقدرته ، وليس أدل على ذلك مما ذكره الكتاني في كتابه التشبيهات ، من أن طليطلة ظلت ممتنعة عن أمراء بني أمية طوال حياة غربيب ، وأن الحكم بن هشام لم يجدد محاولاته للاستيلاء عليها إلا بعد

---

١ المغرب في حلى المغرب – ٢/ ٢٤ ، كما وردت الأبيات في جذوة المقتبس – ص ٣٠٧ ، مع تغيير (وما ندري) بدلا من (وما يدري) في البيت الرابع ،وزيادة بيت في آخر الأبيات يقول فيه :

إلى مَلِك يُدَوِّخ كل مَلْك ... وتخضع من مهابته الرقابُ

وقد ذكر الدكتور عمر فروخ البيت الأول –وبدأه بـ(يخوفني)–والبيت الثالث من هذه الأبيات منسوبة إلى محمد البريدي –قالها في السجن عندما أُخبر أن الأمير أبو إسحاق إبراهيم الثاني يريد قتله .انظر تاريخ الأدب العربي –الأدب في المغرب والأندلس إلى آخر عصر ملوك الطوائف ، د/ عمر فروخ– دار العلم للملايين –بيروت–ط١ - ١٩٨١م –٤/ ١٤٠

وفاته[1] . والجدير بالذكر أن غربيب يعد من أوائل الشعراء في الأندلس كما صنفه الكتاني وأن وفاته تمت قبل عام ٢٠٠هـ ،وكان مشهوراً بالفضل والخير ، وتعد هذه الأبيات من الحكمة التي تميز بها فقد كان حكيماً داهية ، لذا كان أهل بلده يلجأون إلى رأيه[2] .

وأما ابن عبد ربه فيستشعر هذا الضعف في نفسه وفي أهله في معرض الخوف والوجل عندما تحين وفاته وتنتابه سكرات الموت ،وحوله أهله وولده عاجزين عن فعل شيء له وهو مؤمن بأن ذلك قضاء من الله عز وجل لا يمكن صرفه أو تغييره بأي حال من الأحوال حتى تفارق الروح الجسد ،وذلك في قوله :

مَنْ لي إذا جُدْتُ بَينَ الأَهْلِ والوَلَدِ ... وَكَانَ مِنّي نَحْوَ المَوْتِ قِيدَ يَدِ

وَالدَّمْعُ يَهْمُلُ وَالأَنفاسُ صَاعِدَةٌ ... فَالدَّمْعُ في صَبَبٍ والنَّفْسُ في صُعُدِ

ذَاكَ القَضَاءُ الذي لا شَيءَ يَصْرِفُهُ ... حَتّى يُفَرِّقَ بَينَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ[3]

يبدو أن هذه القطعة[4] قالها ابن عبد ربه في أيامه الأخيرة ،يدل على ذلك قوله (قيد يد)التي تحمل إحساسه بدنو أجله .

---

١ انظر التشبيهات من أشعار أهل الأندلس– ص ٥٦

٢ نفسه – ص ٧٧

٣ ديوان ابن عبد ربه – ص ٧٦

٤ ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه المقطوعة هي إحدى ممحصات ابن عبد ربه التي محص بها مقطوعته التي يقول فيها :

يَا مَنْ يَضِنُّ بِصَوْتِ الطَّائِرِ الغَرِدِ ... مَا كُنْتُ أَحْسَبُ هذا البُخْلَ من أحَدِ

ولا يخفى ما بين القطعتين من اتفاق بداية بالاستفتاح ببيت مصرع ،وانتهاء بالوزن والقافية .انظر رسالة ماجستير بعنوان ظاهرة التوبة والاستغفار في الشعر المقصد والمقطعات من بداية العصر الأموي إلى نهاية القرن الثامن الهجري –دراسة تحليلية فنية –إعداد الباحثة رقية بنت عبد الرحمن بن إبراهيم الصبة–إشراف د/عبد الله بن إبراهيم الزهراني–عام ١٤٢٣هـ–٢٠٠٢م – ص١١٩

وإذا كان ابن عبد ربه يصور لحظات الاحتضار ومفارقة الروح الجسد ، فإن الغزال يصور ما يحدث بعد ذلك من تشييع ودفن ، وكيف ينفضّ أحبابه من حوله إلى أشغالهم الدنيوية بعد دفنه ليقابل مصيره وحيدا وذلك في قوله :

أَصبَحتُ وَاللَهِ مَحسُوداً عَلى أَمَدٍ ... مِنَ الحَياةِ قَصيرٍ غَيرِ مُمتَدّ
حَتّى بَقيتُ بِحَمدِ اللَهِ في خَلَفٍ ... كَأَنَّني بَينَهُمْ مِن خَشيَةٍ وَحدْي
وَما أُفارِقُ يَوماً مَنْ أُفارِقُهُ ... إِلّا حَسِبتُ فِراقي آخِرَ العَهدِ
انظُرْ إِلَيَّ إِذا أُدرِجتُ في كَفَني ... وَانظُرْ إِلَيَّ إِذا أُدرِجتُ في اللَحدِ
وَاقعدْ قَليلاً وَعايِنْ مَنْ يُقيمُ مَعي ... مِمَّن يُشَيِّعُ نَعشي مِن ذَوي وُدّي
هَيهاتَ كُلُّهُم في شَأنِهِ لَعِبٌ ... يَرمي التُرابَ وَيَحثُوهُ عَلى خَدّي[1]

يخبر الغزال في هذه الأبيات عن وحدته بعد تقدم عمره ،ورحيل أبناء جيله ،ولأن هذا الأمر لا يحتاج إلى دليل وإثبات لأنه ظاهر للعيان ،لم يلجأ الشاعر إلى المؤكدات ،بل لجأ إلى التخيل والتصور لما يحدث بعد موته ،وعند إدراجه في قبره ،من وحده ووحشة ،وقد ربط الشاعر بأسلوب رشيق بين وحدته في حياته في أول الأبيات ،ووحدته بعد وفاته في نهايتها ،وفي ذلك دلالة على شدة تأثره بهذه الوحدة وما تنطوي عليه من نتائج ،مع ما يصاحب هذا الإحساس من تدفق وحرارة العاطفة ،وقوة الانفعال .

---

١ ديوان الغزال — ص ٦٤

وعن المشهد ذاته ، مشهد التشييع والدفن ، يدعو الأمير عبد الله الإنسان إلى تخيل هذه الصوره ، وكيف سيحمله الناس إلى مضجعه الأخير ، ويغيبونه في الثراء فكأنه لم يكن ، لأن ذلك من شأنه أن يدفع الإنسان للتوبة والإقبال على الله ، حيث يقول واعظاً :

كَأَنَّكَ قَدْ حُمِلتَ عَلَى سَرِيرٍ ... وَغُيِّبَ حُسْنُ وَجْهِكَ فِي الثَّرَاءِ [1]

وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على زهد الشاعر وورعه الذي بلغ به إلى تخيل ذلك الموقف مع ما فيه من صورة مؤلمة تنفر منها النفس التي اعتادت راحة الدنيا ونعيمها .

ويذَّكر ابن عبد ربه اللاهي العابث المغرور بالأمل وطوله ، بحقيقة قصر الأجل ،ووقوع الموت ،ويتساءل كيف يفرح الإنسان وهو يرى كل يوم من يسوقه الموت إلى مضجعه الأخير؟ ،وذلك في قوله في الموعظة :

أَتلهو بَينَ باطِيةٍ وَزِيرِ ... وأنتَ مِنَ الهلاكِ على شفيرِ ؟

فيا مَنْ غَرَّهُ أَمَلٌ طويلٌ ... بِهِ يُرْدَى إلى أجَلٍ قَصيرِ

أَتَفْرحُ والمَنِيَّةُ كُلَّ يَوْمٍ ... تُريكَ مَكانَ قَبرِكَ في القُبورِ ؟

هِيَ الدُّنيا وَإِنْ سَرَّتْكَ يَوْماً ... فَإنَّ الحُزْنَ عَاقِبَةُ السُّرورِ [2]

---

١ البيان المغرب في أخبار الأندلس — ٢/ ١٥٥

٢ ديوان ابن عبد ربه — ص ٩٧

وهذه المقطوعة ما هي إلا إحدى ممحصات ابن عبد ربه التي نقض بها قوله :

ـــةٍ بَأَنْفَاسِ العَبْيِرِ ... ــةِ المفَارِقِ بِالقَتَيْرِ

انظر ديوان ابن عبد ربه — ص ٩٤ ، وهي من ممحصاته التي اتفقت مع النقيضة في الوزن والقافية ،بالإضافة إلى بعض الأمور الأخرى المتشابهه ،التي من ضمنها التصريع .

فالموت غاية يسعى إليها كل حي ، من حيث لا يدري ، ممتطياً ليله ونهاره إلى دار البقاء والخلود ، وفي هذا يقول محمد بن مسرة :

إنَّما المـوتُ غايـةٌ نَحْـنُ نَسْـعَى خَبَبْـاً نَحْوَهَـا عَلَـى الأَقْـدَامِ
إنَّمَـا اللَّيْـلُ والنَّهَـارُ مَطَايَـا لِبَنِـي الأَرضِ نَحْـوَ دَارِ حِمَـامِ[1]

فابن مسرة برؤيته للحياة وإلى نهاية الأحياء فيها ،جعل الموت شبيها بالغاية مع فارق الرغبة ،حيث لا يرغب في الموت أحد ،في حين أن الغاية يبذل الإنسان ما في وسعه للحصول عليها ،ولا تخلو الأبيات من الفلسفة التي تميز بها المتصوفة في ذلك الوقت ،فقد كان ابن مسرة من أشهر الزهاد في الأندلس ، تعمق في زهده حتى التصوف،وعدَّ الدكتور منجد بهجت مذهبه باعثا من بواعث ترسيخ الاتجاه الزهدي في الأندلس[2] .

وقد توفي ابن مسرة كما يؤكد ابن الفرضي في كتابه بأقوال كثيرة في صدر شَوَّال سنة (٣١٩هـ)[3]، وبذلك يمكن أن نعد نهاية القرن الثالث بداية لظهور التصوف في الأندلس وهو ترسيخ وتعميق لاتجاه الزهد الذي ظهر قبل ذلك .

ومن حكمة الله عز وجل أن جعل وقت وقوع الموت مخفياً عن عباده ، فكم من مسافر ظن لهول السفر ومشقته أنه ليس بعائد فعاد سالماً ، في حين رحل من المقيمين الكثير .

---

١ كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس– ص ٢٧١

٢ انظر الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي – ص٥٧

٣ انظر تاريخ علماء الأندلس – لابن الفرضي –١٩٦٦ – الدار المصرية للتأليف والترجمة–٢/ ٤٠

والغزال الذي كان سفيراً لدولته في أكثر من رحله ، يدرك ذلك فيقول بلسان الحكيم :

وَكَمْ ظَاعِنٍ قَدْ ظَنَّ أَن ليس آيباً … فَآبَ وَأَودَى حَاضِرُونَ كَثِيرُ
وَإِنَّ الَّذي أَعظَمتهِ مِن تَغَرُّبي … عَلَيَّ وَإِن أَعظَمتِ ذاكِ يَسيرُ
رَأَيتُ المَنايا يُدرِكُ العُصْمَ عَدْوُها … فَيُنْزِلُها وَالطَّيْرُ مِنهُ تَطِيرُ
وَعَلَيَّ أَمضي ثُمَّ أَرجِعُ سالِماً … وَيَهلِكُ بَعدي آمِنونَ حُضورُ
جَعلتُ أُرَجِّيها إِيابي وَمَنْ غَدا … عَلى مِثْلِ حالِي لا يَكادُ يَحُورُ
وَكَيْفَ أُبالي وَالزَّمانُ قَدْ انقَضى … وَعَظمِيْ مُهيضٌ وَالمَكانُ شَطيرُ
وَإِنّي وَإِنْ أَظهَرتُ مِنّي تَجَلُّداً … لَذو كَبِدٍ حَرَّى عَلَيكِ حَسيرُ[1]

يتجلى في الأبيات السابقة مدى حكمة الشاعر التي استمدها من معاصرته للحياة ،ومشاهداته المستمرة لأحوال الناس فيها ،وتقلب المنية بينهم تقلباً لا يأمنه آمن ،ولا يخشى منه ظاعن . ويحذر الزاهد محمد بن عبد الله الغازي من الاطمئنان إلى الدنيا في سياق حديثه عن الموت ،حيث يقول حامداً شاكراً الله عز وجل :

الحَمْدُ لِلَّهِ ثُمَّ الحَمْدُ لِلَّهِ … كَمْ ذَا عَنِ المَوتِ مِنْ سَاهٍ وَلاهِ !
يَا ذَا الَّذِي هُوَ فِي لَهْوٍ وَفِي لَعِبٍ … طُوبَى لِعَبْدٍ حَقِيبَ القَلْبِ أَوَّاهِ !
مَاذَا تُعَايِنُ هَذِي العَيْنُ مِنْ عَجَبٍ … عِنْدَ الخُرُوجِ مِنَ الدُّنيا إِلى اللهِ ![2]

---

١ ديوان الغزال – ص ٧٣

٢ بغية الوعاة – ١/ ١٤٠

والموت مع غيابه عن بعض الناس ، إلا أنه بقبض الأرواح في كل لحظة شاهد حاضر ، والناس مع علمهم بحقيقة الموت وحتميته ، إلا أنهم كالجاهل بهذه الحقيقة لانصرافهم لملذات الدنيا وتناسي هذه اللحظة التي لا بد منها لكل حي ، يقول ابن عبد ربه في ذلك:

وَمَا الْمَوتُ إلا شَاهِدٌ مِثْلُ غَائِبٍ   وَمَا النَاسُ إلا جَاهِلٌ مِثْلُ عَالِمِ[1]

كما يدعونا الغزال إلى الاعتبار بفناء الناس ، محاولا إيقاظنا من غفلتنا في قوله:

فَإذا مَا نَظَرتُ في عُرضِ النّا   سِ كَأنّي أَراهُمُ في الظَّلامِ
وَكَأَنَّ الَّذي أُصيبُ عَلى الأَيّا   مِ شَيءٌ أَصَبتُهُ في المَنَامِ[2]

فالشاعر بما تميز به من حكمة دائم النظر في أحوال الدنيا وأحوال الناس فيها ،كثير الاتعاظ والاعتبار بهذه الأحوال ،داعيا غيره لأخذ العظة والعبرة من هذه الحقائق .

ويتعجب الغزال من واقع كان يراه في زمانه ويتمثل في تمييز الأغنياء لقبورهم عن الفقراء وذلك بتشييد المدافن وتزيينها ،مباهاة وفخرا عليهم ، على الرغم من أن الموت ساوى بين الجميع فلا فضل لأحد على أحد مهما علا شأنه واشتد سلطانه ، ونلمس السخرية منهم ، ومن حالهم في ما ذكره بهذا الشأن من أبيات يقول فيها :

أَرى أَهلَ اليَسارِ إِذا تُوفُّوا   بَنَوْا تِلكَ المَقابِرَ بِالصُّخورِ
أَبَوْا إِلّا مُباهاةِ وَفَخراً   عَلى الفُقَراءِ حَتّى في القُبورِ

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٥٧
٢ ديوان الغزال – ص١٠٨

فَــإِن يَكُــنِ التَفاضُــلُ في ذُراهــا   فَــإِنَّ العَــدلَ فيهــا في القُعــورِ

رَضــيتُ بِمَــنْ تَــأَنَّــقَ في بَنــاءٍ   فَبــالَغَ فيــهِ تَصــريفُ الأُمــورِ

أَلَمّــا يُبصِــروا مــا خَرَّبَتْــهُ الــدُّ   هُــورُ مِــنَ المَــدائِنِ وَالقُصــورِ

لَعَمــرُ أَبــيهِمُ لَــو أَبصَــروهُمْ   لَمــا عُــرِفَ الغَنِــيُّ مِــنَ الفَقــيرِ

وَلا عَرَفُــوا العَبيــدَ مِــنَ المَــوالي   وَلا عَرَفُــوا الإِنــاثَ مِــنَ الــذُّكورِ

وَلا مَــن كــانَ يَلــبِسُ ثَــوبَ صــوفٍ   مِــنَ البَــدَنِ المُباشِــرِ لِلحَريــرِ

إِذا أَكَــلَ الثَّــرى هَــذا وَهَــذا   فَمــا فَضْــلُ الكَــبيرِ عَلــى الحَقــيرِ[1]

يتجلى في الأبيات تفشي الطبقية بين أفراد المجتمع الأندلسي،التي بلغت أقصى مداها في هذا المظهر الاجتماعي الذي ساد المجتمع في ذلك الزمان ، والمتمثل في تمييز الأغنياء لقبورهم عن الفقراء ،حيث يتم تشييدها بالصخور المتينة[2]، وهذه المظاهر المتمثلة في تشييد القبور والمبالغة في تزيينها يمكن أن تُعد دلالة على ما آل إليه المجتمع الأندلسي في تلك المرحلة من ترف وبذخ ، وما عُرف به من حب للعمارة والزخرفة ليس إلا .

هذه القبور هي مساكن الموتى ، يحتجبون فيها من وراء تراب ، لا يسمعون ولا يجيبون ، ولا يرافقهم فيها إلا ثلاثة أثواب ، ويصور الغزال هذا المسكن الذي يؤول إليه الموتى ،وذلك

---

١ ديوان الغزال – ص ٨٥– ص٨٦

٢ انظر التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، د/حسن أحمد النوش–ط١– ١٤١٢هـــ –دار الجيــل – بــيروت– ص٤٥٠

عند ذكره لنصر الخصي بعد موته وكيف أُخرج من قصره إلى قبره في قوله :

أَخرَجُوه مِنها إلى مَسكَنٍ لَيـ ... سَ عَلَيهِ إلّا التُرابَ حِجابُ

لا يُجيبُ الدّاعيهِ فيهِ ولا يَر ... جِعُ مِن عِندِهِ إلَيهِ جَوابُ

وَتَغانَت تلكَ المَراكِبُ عنهُ ... وَأُميلَتْ إلى سَواهُ الرِّكابُ

لَيسَ مَعَهُ مَن كل ما كانَ قَد جَمّـ ... ـعَ إلّا ثَلاثَةٌ أَثوابُ

وَتَلاشى جَميعُ ذاكَ فَلَمّا ... يَبقَ إلّا ثَوابُهُ أَو عِقابُ

عَسكَرٌ جَنَّدوا فَلَيسَ بِمَأذو ... نٍ لَهُم عَنهُ أَن يَكونَ الحِسابُ[1]

"ويكاد الزهد يتحول عند الغزال إلى فلسفة ،تقوم على الأساس الفكري الممزوج بالتندر والتهكم "[2]،وهذا ما يظهر في كثرة تندره بالخصي وتهكمه به .

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن حقيقة الموت واستخدامها في الشعر ، لها جذور ضاربة في أعماق الأدب العربي حيث استشعرها الكثير من الشعراء مثل عنترة بن شداد [3]، طرفة بن العبد[4] ، عدي بن زيد العبادي[5] ، أبو نواس[6] ،وأبو العتاهية[7] ، وغيرهم .

---

١ ديوان الغزال – ص ٥٢-ص٥٣

٢ الأصول الفنية للشعر الأندلسي- ص٢١١

٣انظر ديوان عنترة – تحقيق محمد سعيد مولوي – المكتب الإسلامي -١٩٦٤م- ص٢٥١

٤ انظر ديوان طرفه بن العبد –دار بيروت للطباعة والنشر-١٣٩٩هـ-١٩٧٩م – ص٣٤

٥ الأغاني – ٢/ ١١٥

٦ انظر ديوان أبو نواس– ص ٣٤٧
٧ انظر ديوان أبو العتاهية – ص ٦٧

هذا الإحساس بالموت واستشعار وقوعه في أي لحظة دون سابق إنذار أمر وارد عند الشعراء باختلاف عصورهم فلا يخلو ديوان أحد منهم من ذكره ،"فقد استمد الشعراء العرب القدامى وحيهم عن الموت من تجاربهم الفطرية ،أومن الأنبياء ،أو من الفلاسفة والمفكرين "[1] .وفكرة الموت وذكره في شعر الزهد في الأندلس تعد امتداداً للفكرة نفسها عند شعراء المشرق باختلاف بيئاتهم وعصورهم ، وهذه الفكرة في حقيقتها تدور حول مخاطبة الروح ، والارتفاع بها عن الجسد ، والتحرر من قيوده [2] ، وما ألم به من ذنوب وآثام ، ليحاسب الإنسان نفسه قبل الحساب ،ويعلن توبته قبل الرحيل ، لذا فأهميتها تكمن في استغلالها من الزهاد والوعاظ في الوعظ الديني لما لها من رهبة في القلوب المؤمنة ،ووقع خاص في النفوس الزكية الطاهرة .

يقول الدكتور محمد مصطفى هدارة عن هذه الفكرة أنها تستخدم "كوسيلة لتذكير الناس بما كان من أمر أسلافهم الذين بلغوا في الحياة أقصى ما يتمنون ،ثم طواهم الموت فكأنهم ما كانوا"[3] .والشاعر الأندلسي بلور فكرة الموت بالتخيل ، فأغلب الشعراء اجتهدوا في نقل الإنسان إلى تخيل التجربة ،وخوضها بنفسه ، وإقحامه في الصورة ، لأن ذلك أبلغ في هز مشاعره وردعه عن الملذات الفانية .

١ القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه، د/ثريا عبد الفتاح ملحس – دار البشير –ط٤-١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م – ص٤٧٣
٢ انظر الأدب العربي في الأندلس تطوره موضوعاته وأشهر أعلامه – ص٢٢٦
٣ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري – ص ٣٠١

٣- القضاء والقدر والإيمان بهما

لقد جسد الشعر الأندلسي هذا المعنى الديني العظيم في أبيات وردت على ألسنة الزهاد وغيرهم ، خاصة عند تعرضهم لحادثة معينة يظهر معها قوة إيمانهم فهذا أبو المخشي يذكر القضاء في أبياتٍ عالج فيها تجربته في فقدان البصر فيقول :

خَضَعَتْ أُمِّ بَنَاتِي لِلعِدَا إذْ قَضَى اللهُ بِأَمْرٍ فَمَضَى[١]

وقد علق الدكتور أحمد هيكل على هذه الأبيات بقوله :"فالشاعر أيضا لجأ إلى الإيحاء بذكر القضاء ومضي هذا القضاء ، وصور في عباراته نفس السرعة التي يقع بها المقضي ، فكان موفقاً في تصوير المحنة كما كان موفقا في نقل الإحساس بها "[٢] .

وفي وقوع القضاء والتسليم به يستشعر عبد الرحمن الداخل الغربة وبعده عن أهله وحنينه لأرضه بعد أن قدر الله عليه الفراق والبعد عنها بسبب اضطهاد بني العباس له وفراره إلى بلاد الأندلس التي دخلها ووحد صفوفها في قوله :

قَدْ قَضَى اللهُ بالبِعادِ عَلَيْنا فَعَسَى باقْتِرابِنا سَوْفَ يَقْضِي[٣]

و في هذا البيت رغبة دفينة في نفس الأمير تتمثل في أنه "كان يحلم بالتغلب على الدولة العباسية التي اجتثت شأفة الأمويين ،والقضاء عليها بعد أن يوطد ملكه في الأندلس"[٤] .

---

١ الإحاطة في أخبار غرناطة – ٤/٢٣٣

٢ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة-ص٨٨

٣ البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب - ٢/٦٠

٤ نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي – ص٥٤

وكتب هاشم بن عبد العزيز أبياتاً من سجنه إلى جاريته عاج يبين فيها مدى شجاعته وصموده لأن الفرار مذلة ، مظهراً رضاءه بقضاء الله وقدره الذي لا مهرب للمرء منه مهما عمل فيقول :

وكم قَائِلٍ قَالَ: أنجُ وَيحَكَ سَالماً ... فَفِي الأرضِ عَنهمُ مستَرادٌ ومذهبُ
فَقُلتُ لَهُ: إنّ الفِرارَ مّذَلَةٌ ... ونَفسِي علَى الأسواء أحلَى وأطيَبُ
سأرضَى بِحُكمِ اللهِ فِيمَا يَنُوبُني ... ومَا مِن قضَاء اللهِ لِلمَرء مَهرَبُ[1]

وهؤلاء الشعراء السابق ذكرهم لم يتخذوا الزهد منهج حياة ، ولم يشكل هذا الاتجاه مرحلة من حياتهم، وإنما وُجد هذا المعنى لديهم لارتباط ذلك بحادثة معينة تعرضوا لها في حياتهم ، فأبو المخشي تعرض لحادثة العمى عندما سُملت عيناه على يد هشام بن عبد الرحمن الداخل وقصته في ذلك مشهورة[2]، أما عبد الرحمن الداخل فحادثة رحيله من المشرق بعد اضطهاد بني العباس له وملاحقتهم إياه ،كانت سببا في تفجير هذا الحنين لأرضه وأهله الذين تركهم عنوة ،كذلك الوزير هاشم بن عبد العزيز كانت حادثة سجنه على يد المنذر الذي أمر بسجنه وقتله لوشاية بلغته من بعض المغرضين ، سببا في إظهار هذا التجلد والصبر والرضاء بقضاء الله وقدره[3] .

١ البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب – ١١٦/٢

٢ انظر القصة في الإحاطة في أخبار غرناطة – ٢٣٢/٤

٣ انظر القصة في البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب –٢/ ١١٥– ووردت القصة أيضا في كتاب الحلة السيراء –١/١٣٧ وما بعدها

كذلك يظهر هذا المعنى في قول أبو الخطار حسام بن ضرار:

مَا يَقْدِرُ اللهُ فِي مَالِي وفِي وَلَدِي   لأَبدُ يُدْرِكُنِي لَو كُنْتُ بالصِينِ(١)

فالشاعر يؤمن بالقضاء والقدر ،وبأن قضاء الله ماض فيه وفي ولده ،ولابد أن يدركه ذلك في أي مكان كان .

هذا بالنسبة إلى غير الزهاد من الشعراء ، أما الشعراء الزهاد فهم أحق من غيرهم بالمعاني الدينية خاصة مسألة القضاء والقدر التي تكشف عن عمق إيمانهم بالله عز وجل ومدى خضوعهم واستسلامهم لأمره .ومن هؤلاء الزهاد ابن عبد ربه الذي استقى من معين إيمانه هذه الفكرة ،وضمنها في أبياته ،من ذلك قوله ردا على المنجمين أيام القحط :

مَا قَدَّرَ اللَّهُ هو الغَالِبُ   لَيْسَ الَّذْي يَحْسَبُهُ الحَاسِبُ(٢)

والإنسان في هذه الحياة معرض للحوادث والمصائب ، ومن ظن خلاف ذلك فهو مغرور ،وهذا رأي الغزال الذي ينظر إلى القدر من زاوية التسليم التام والرضا بما قدره الله عز وجل دون اعتراض . و ذلك في قوله الذي يخاطب فيه الناس:

مَنْ ظَنَّ أَنَّ الدَهْرَ لَيس يُصيبُهُ   بالحادِثاتِ فَإِنَّهُ مَغْرُورُ

فَالْقَ الزّمانَ مُهوّناً لِخُطوبِهِ   وَانجَرَّ حَيثُ يَجُرُّكَ المَقْدورُ

وَإِذا تَقَلَّبَتِ الأُمورُ وَلَم تَدُمْ   فَسَواءٌ المَحزونُ وَالمَسْرورُ[3]

١ كتاب الحلة السيراء –١/٦٦
٢ ديوان ابن عبد ربه – ص٤٧
٣ ديوان الغزال –ص ٧٧

إن الإيمان بقضاء الله وقدره يضفي على النفس الراحة والسكون ،هذه النفس التي تدرك أن الحزن والسرور خاضع لتقدير الله عز وجل ، فتلجأ إلى الرضا والتسليم بهذا القضاء ،لقناعتها بأنه لا راد لأمر الله يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[1] . ويؤكد الغزال أن القدر لا يخضع لتدبير حسن أو تدبير سيئ من الخلق ، وإنما هو تدبير إلهي ، يرجع إليه تكوين كل شيء والقضاء فيه ، وذلك في قوله :

إِذا أَرادَ الإِلَهُ الشَيءَ كَوَّنَهُ   فَلَن يَضُرَّكَ فيهِ سوءُ تَدبيرِ[2]

هذه الإرادة الإلهية التي تعجز القوى البشرية عن صرفها تتمثل في كل ما يقدره الله عز وجل على عبادة ، ومن هذه الأمور المقدرة الموت الذي يرتبط بالقضاء ارتباطا وثيقا ،يقول فيه ابن عبد ربه :

ذاكَ القَضاءُ الذي لا شَيءَ يَصْرِفُهُ   حَتّى يُفَرِّقَ بينَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ[3]

وقد يخشى الإنسان الهلاك في منزله ، ولكنه لا يضمن النجاة مما يخاف منه في أي مكان آخر لارتباط هلاك الإنسان ونجاته بقضاء الله وقدره وهذا ما ألمسه في قول الغزال:

وَإِن مَقامي شَطرَ يَومٍ بِمَنزِلٍ   أَخافُ عَلى نَفْسي بِهِ لِكَثيرُ
وَقَد يَهرُبُ الإِنسانُ مِن خيفَةِ الرَّدى   فَيُدرِكُهُ ما خافَ حَيثُ

يَســــــــــــــــــــيرُ[٤]

---

١ يس : ٨٢
٢ ديوان الغزال – ص ٨٤
٣ ديوان ابن عبد ربه – ص ٧٦
٤ ديوان الغزال – ص ٧٤

هذه الفكرة المتمثلة في القضاء والقدر والرضا التام به،التي تناولها الأندلسيون من الزهاد وغيرهم ، لم تخلُ منها أشعار المشارقة ، فقد وجدتها ماثلة في أشعار الكثير منهم مثل ما ورد لدى سابق البربري[١] ، ومحمود الوراق[٢] ، وأبو العتاهية[٣] ،وغيرهم .

جميع الأبيات السابقة تكشف لنا موقف هؤلاء الشعراء من هذه المسألة والمتمثل في الرضا والتسليم التام لما قدره الله على عباده ، فتكوين الأشياء ، وتسيير الأمور خاضع لتقدير رباني لا يعلمه إلا الله عز وجل ، ولم يُظهر الشعراء تبرما وتسخطا بالقدر ، بل على العكس من ذلك ظهر الرضا التام لما أصابهم من حوادث وما اعترضهم من صروف الدهر وخطوبه ، وذلك يقينا منهم بأن الحياة مجلبة للصعاب ، وأنه لا مفر لابن آدم مما قدره الله عليه ، إذ أن أمره ماض لا محالة ، فلا مفر من الرضا والتسليم . وقد بلغ من اهتمامهم بأمر القضاء والقدر أن نقش حاكم منهم –وهو الأمير عبد الرحمن– خاتمه (عابد الرحمن بقضاء الله راض)[٤] . "ومع أن هذا الموضوع واسع ومتشعب من الناحيتين الدينية والفلسفية "[٥] ،إلا أن الشعراء تناولوه بمعناه الظاهر دون فلسفة وتعقيد . معتمدين على الواقع وردة الفعل المباشرة إزاء هذا الواقع .

١ شعر سابق بن عبد الله البربري –تحقيق د/ بدر ضيف – دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر- ط١- ٢٠٠٤م- ص ٥٠

٢ ديوان محمود بن الحسن الوراق البغدادي –تحقيق د/محمد زهدي يكن-دار يكن للنشر-بيروت- ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م – ص٥٦

٣ ديوان أبو العتاهية – ص٨٩

٤ نفح الطيب – ٣٤٧/١ - وفي ذلك قيل :

خَاتِمُ لِلمُلك أَضْحَى حُكمُه فِي النَّاس مَاضِـــي

عَـــابِدِ الرَّحَمن فِيْهِ بِقَضَـــــاءَ اللَّه رَاضِـــي

٥ أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي –ص٢٦٠

٤- التنفير من المعاصي والذنوب :

يرتبط الميل إلى الزهد بالنفور من المعاصي والذنوب ، لما يترتب على الوقوع فيها من عذاب تقشعر منه الأبدان، لاسيما من جنح إلى الزهد في مرحلة متأخرة من حياته بعد أن وقع فيها ، فيكون أول أثر لتزهده هو إقلاعه عن الذنوب والتوبة منها ، وتنفير الناس من الوقوع فيها .

وفي الشعر الأندلسي عبر الشاعر عن الذنوب والمعاصي بما يرتكب منها من شرب للخمر ولهو ومجون ،وكان ذلك في الغالب على لسان الغزال الذي وضع لنفسه في أواسط عمره أو قبيل ذلك" نظاما أو دستورا حياتيا يعلن فيها آراءه في ضرورة السلوك القويم من كل أحد ابتداء من نفسه، والبعد عن الخمر ،والبعد عن الإسراف"(١) فيقول مترفعا بنفسه عن الهوى في قصيدة طويلة(٢) :

لَعَمـرِيَ مـا مَلَّكْـتُ مِقـوَدِيَ الصِّـبا فَـأَمْطُوَ للــذّاتِ في السَـهلِ وَالـوَعِرِ

وَلا أَنـا مِمَّــنْ يُـؤثِرُ اللَهــوَ قَلبــهُ فَـأُمسي في سُـكرٍ وَأَصبـحَ في سُـكرِ

وَلا قــارِعٌ بـابَ اليَهُــودِيِّ مَوْهِنــاً وَقَــد هَجَـعَ النُّـوامُ مِـن شَـهوَةِ الخَمْـرِ

وَأَوتَغَـهُ[3] الشَـيطانُ حَتّـى أَصـارَهُ		مِـنَ الغَـيِّ في بَحـرٍ أَضَـلَّ مِـنَ البَحـرِ

١ ديوان الغزال – ص٢١

٢ نفسه – ص٧٨-ص٧٩

٣ " الوتغ بالتحريك الهلاك وتغ يوتغ وتغا فسد وهلك وأثم" – لسان العرب – مادة (وتغ)

أَغُـذُّ السُّـرى فِيْهَا إِذَا الشَّـرْبُ أَنْكَروا		وَرَهِنـي عِنـدَ العِلْـجِ ثَوبي مِنَ الفِجْرِ

وأستشف من حديث الغزال عن نفسه وطريقته في الحياة ،وبعده عن اللذات والشهوات صوره واضحة للحياة السائدة التي كان عليها المجتمع الأندلسي في تلك الآونة ،من لهو ومجون ،والمتمثلة في ملاهي الأنس والغناء والشراب التي فيما يبدو أنها تقام في دور اليهود –أو ما تعرف بحانات اليهود– في الليل وتستمر حتى الصباح[1] . وفي موضع آخر من القصيدة ذاتها يذكر الغزال هذه المعاصي وسبب نفوره منها فيقول:

وَبِاللَـهِ لَـو عُمِّـرتُ تِسـعينَ حَجَّـةً		إلى مِثلِها مَـا اشتَقتُ فِيهَـا إِلى خَمـرِ

وَلا طَرِبــتْ نَفســي إِلى مِزهِــرٍ وَلا		تَحَــنَّنَ قَلــبي نَحــوَ عُــودٍ وَلا زَمْــرِ

وَقَـد حَـدّثوني أَنَّ فيهـا مَـرارةً		وَمـا حاجَـةُ الإِنسـانِ في الشـرّبِ لِلمُـرّ[2]

وفي هذه الأبيات أيضا إشارة إلى بعض هذه المعاصي التي ترتكب من شرب للخمر ومجالس للهو والغناء ،التي يبدو فيها المجاهرة ،إلا أن الغزال يؤكد في هذه الأبيات بُعده عن هذه الأمور بنفيه لها وتكرار هذا النفي ،كذلك في قوله (وقد حدثوني) التي تدل دلالة

صريحة على أنه بعيد عن الخمر ،ولم يذقها في حياته ،إلا أن سماعه عنها ،وتداول الناس الحديث عنها في مجالسهم ، يدلان على انتشارها .

---

١ يدل على ذلك قوله (ولا قارع باب اليهودي)،وباب اليهود :هو اسم أُطلق على أحد الأرباض الثلاثة شمال قرطبة (انظر نفح الطيب –١/٤٦٦)،وهو كما يبدو من الاسم ربض خاص باليهود –كما يدل على ذلك قوله (ورهني عند العلج) ،والعلج " الرجل من كفار العجم " لسان العرب–مادة (علج)

٢ ديوان الغزال — ص ٧٩

وللغزال في ذم نصر الخصي الذي على الرغم من سكنه بجانب المقابر التي تغني عن كل واعظ، لم يردعه ذلك عن ارتكاب المعاصي والذنوب ،حيث يقول مخاطباً ومتوعداً بما ينتظره من عذاب على ما اقترفت يداه:

أَيـا لاهِيـاً فِي القَصْـرِ قُـرْبَ المَقـابِرِ   يَـرى كُـلَّ يَـومٍ وارِداً غَـيرَ صـادِرِ

كَـأَنَّكَ قَـد أَيقَنْتَ أَنْ لَـسْتَ صـائِراً   غَـداً بَينَهُـمْ فِي بَعضِ تِلكَ الحَفـائِرِ

تَـراهُمْ فَتَلـهُو بِالشَّـرابِ وَبَعـضِ مـا   تَلَـذُّ بِـهِ مِـن نَقْـرِ تِلـكَ المَزاهِـرِ

وَمـا أَنتَ بِالمَغْبـونِ عَقـلاً وَلا حِجىً   وَلا بِقَلِيـلِ العِلْـمِ عِنـدَ التَّخـابُرِ

وَفِي ذاكَ مـا أَغنـاكَ عَن كُلِّ واعِـظٍ   شَفِيـقٍ وَمـا أَغنـاكَ عَن كُلِّ زاجِـرِ

وَكَـم نِعمَـةٍ يَعصِـي بِهـا العَبـدُ رَبَّـهُ   وَبَلْـوى عَـدَتْهُ عَن رُكوبِ الكَبـائِرِ

سَـتَرحَلُ عَـن هَـذا وَإِنَّـكَ قـادِمٌ   وَمـا أَنتَ فِي شَـكٍّ عَلى غَيرِ عاذِرِ [1]

وعلى الرغم من أن الغرض الأساسي من هذه الأبيات هو الهجاء ، لأن نصر الخصي بمكانته عند الأمير عبد الرحمن وتمكنه منه [2] ، كان يؤذي الغزال وغيره من رجال الحاشية

،إلا أنها تتضمن في طياتها تنفيراً من الذنوب والمعاصي ، التي وجد الغزال منها ثغرة يهجو نصر من خلالها ،فالشاعر يستنكر ،ويتعجب من حال هذا الإنسان الذي لم تردعه

١ ديوان الغزال – ص ٨١–ص٨٢
٢ حيث كان خليفة الأمير "المقدم على جميع خاصته، المدبر لأمر داره، المشارك لأكابر وزرائه في تصريف ملكه "– المقتبس من أنباء أهل الأندلس– ص١٤٩

مجاورته للمقابر عن المعاصي مع ما فيها من الوعظ والترهيب .كما لا تخلو هذه الأبيات من الحكمة المترتبة على مشاهداته المستمرة في الحياة وتتجلى في البيتين الأخيرين .

ويقرر الغزال أن جوهر الناس واحد ، ويكمن الفرق بينهم في الأعمال ، فمنهم من يعمل بالصالحات ، ومنهم من يسلك مسلك السيئات وكبائر الذنوب ، شاغلا نفسه بصغيرة غيره ، ومن خلال هؤلاء الذين يثقل كاهلهم بالذنوب يصور الغزال هذا التناقض في الإنسان بأسلوب فلسفي ،مع التعريض بآفة اللسان على الإنسان في قوله :

النَّاسُ خَلْقٌ واحِدٌ مُتَشابِهٌ ... لَكِنَّما تَتَخالَفُ الأَعمالُ
وَيُقالُ حَقٌّ في الرِجالِ وَباطِلٌ ... أَيُّ امرِئٍ إِلّا وَفيهِ مَقالُ
وَلِكُلِّ إِنسانٍ بِما في نَفسِهِ ... مِن عَيبِهِ عَن غَيرِهِ أَشغالُ
يَستَثقِلُ اللَّمَمَ الخَفيفَ لِغَيرِهِ ... وَعَلَيهِ مِن أَمثالِ ذاكَ جِبالُ !
وَيَنامُ عَن دُنياهُ نَومَةَ قانِعٍ ... بِنَعيمِ دُنياهُ وَذاكَ خَيالُ
وَرَأَيتُ أَلسِنَةَ الرِّجالِ أَفاعِياً ... طَوراً تَثورُ وَتارَةً تَغتالُ

فَـإذا سَـلِمتَ مِـنَ المَقالَـةِ غَـيرَ مـا تَجني فَـأَنتَ الأَسـعَدُ المِفضـال ![1]

ويجنح الغزال إلى الشك والتشاؤم ، فهو يظن في الناس ، ويرى أنهم مذنبون ، ومن

---

١ ديوان الغزال – ص ٩٣–ص٩٤

رحمة الله بهم أن ذنوبهم ليست تفوح ،وهذا من حصاد تجربته الطويلة في الحياة ،يقول في ذلك:

إذا أُخبِـرتَ عَـن رَجُـلٍ بَـريءٍ مِـنَ الآفـاتِ ظـاهِرُهُ صَـحيحُ

فَسَـلْهُم عَنـهُ هَـلْ هَـوَ آدَمِـيٌّ فَـإِنْ قـالوا نَعَـمْ فَـالقَولُ رِيْـحُ

وَلَكِـنْ بَعضُـنا أَهـلُ اِسـتِتارٍ وَعِنـدَ اللَـهِ أَجمَعُنـا جَـريحُ

وَمِـن إِنعـامِ خالِقِنـا عَلَينـا بِـأَنَّ ذُنوبَنـا لَيسَـتْ تَفـوحُ

فَلَـو فاحَـتْ لَأَصـبَحْنا هُروبـاً فُـرادى بِـالفَلا مـا نَسـتَريحُ

وَضـاقَ بِكُـلِّ مُنتَحِـلٍ صَـلاحاً لَنَـتْنِ ذُنوبِـهِ البَلَـدُ الفَسـيحُ[1]

فقد بلغ الغزال من فقد الثقة بالناس بأن نظر إليهم على أنهم متظاهرون ليس إلا ، ولو كشفت حقيقتهم لضاق البلد الفسيح بنتن ذنوبهم ،وتعد هذه الأبيات صريحة في نقد المجتمع . ومن موقفه الصارم من المجتمع أيضا أنه تعقب بعضهم ممن يرى أنهم يتظاهرون بالصلاح عن طريق ما يظهرونه من مظاهر الورع والتقوى ، والغزال يرى ذلك كله مجرد مراء يخفون وراءه أثقال من الذنوب . ويظهر ذلك في قوله:

١ ديوان الغزال — ص٥٩

وَمُــــــراءٍ أَخَـــــذَ النّـــــا س بِسَــــــمْتٍ وَقُطـــــوبِ

وَخُشـــــوعٍ يُشـــــبِهُ السُّقْـــــ ـــمَ وَضَـــعفٍ فِي الـــدَّبيبِ

قُلـــــتُ هَــــل تَــــأَلَمُ شَــــيئاً قـــــالَ أَثقــــالَ الـــذُّنوبِ

قُلــــــتُ لا تُعْـــــنَ بِشَــــيءٍ أَنــــتَ في قالَــــبِ ذيــــبِ

إِنَّمـــــا تَـــــبني عَلَـــى الوَثْـــ ـــبَةِ في حـــينِ الوُثـــوبِ

لَــــيسَ مَـــنْ يَخفـــى عَلَيـــهِ مِنـــكَ هَـــذا بِلَبيــــبِ[١]

ويبدو أن هذا التظاهر في الدين الذي انصرف إليه بعض الناس في الأندلس كان بسبب توافد دفعات الحماس للدين التي وفدت على الأندلس من جانب العباسيين القائلين بأنهم أقارب الرسول الكريم ، وأولى الناس بسيادة أمته ، وقد أثاروا ضمن دعاياتهم تساؤلات حول حقيقة الإيمان عند خصومهم من بني أميه ، وهذا يعني بعض إشارات الخطر للأمويين بالأندلس فأندفع هؤلاء نحو التظاهر بالإيمان والتقوى[٢] . وأيضا يعود إلى سلطة الفقهاء التي كان لها " تأثير في دفع الناس إلى التعصب الديني والتظاهر بالعبادة والعزوف عن الدنيا "[٣] .

١ ديوان الغزال – ص ٥١
٢ انظر مع المسلمين في الأندلس –د/علي حبيبة – ط٢ –دار الشروق –ص ٣٢٩
٣ في الأدب الأندلسي–د/جودت الركابي–دار المعارف–ص١١٨

هذا الموضوع الذي تناوله الأندلسيون ،سبقهم إليه المشارقة،فقد أقلق أمر الذنوب والمعاصي والتنفير منها مضاجع الكثير من الفقهاء والزهاد في المشرق من أمثال محمود الوراق [١]، وعبدالله مبارك [٢]، وغيرهم .

ومن هنا يستبين لي أن هذا المحور لقي حظوة واهتماما لدى(شاعر ذلك الأوان) [٣] يحيى بن الحكم الجياني المعروف بالغزال ، وهو أحد قطبي الشعر الأندلسي في هذه المرحلة ،ولم أجد أحداً غيره من الشعراء أو الفقهاء تطرق لهذا المحور ، في حين أن ابن عبد ربه وجه نظره لما ينبغي فعله بعد ارتكاب الذنوب من التوبة والإنابة إلى الله عز وجل .

لقد كان الغزال "جريئاً ، صريحاً ، يقول ما يعتقده ، ويصرح بما يجول في نفسه "[٤]،لذا عُرف بالنقد الاجتماعي الذي كثيرا ما يتطرق إليه في بعض المواقف التي تعترضه في حياته . هذا بالإضافة إلى أنه جنح إلى الزهد في مرحلة متأخرة من حياته ، فقد عاش قرابة قرن من الزمان صاحبها ما صاحبها من الذنوب ، إلا أنه رسم لنفسه في آخر حياته

خطاً واضحاً بعيداً عن حياة اللهو والمجون التي كانت متفشية في عصره ،مترفعا عن الهوى ، منتقدا من وقع فيه ، كما حدث من انتقاده لنصر الخصي بما وقع فيه من ذنوب وآثام .

١ ديوان محمود الوراق – ص ٧٣–ص٧٤ –ص ٥٩

٢ بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس –لأبي عمر يوسف بن عبد البر القرطبي–تحقيق محمد مرسي الخولي–دار الكتب العلمية–بيروت–ط٢–١٤٠٢هـ/١٩٨٢م –٣/٣٣٤

٣ هو وصف وصفه به ابن دحيه الكلبي في كتابه المطرب – انظر المطرب من أشعار أهل المغرب –لابن دحية–تحقيق الأستاذ إبراهيم الابياري–الدكتور حامد عبد المجيد –الدكتور احمد احمد بدوي –الناشر إدارة نشر التراث القديم بالإدارة العامة للثقافة بوزارة التربية والتعليم بالمطبعة الأميرية بالقاهرة عام ١٩٥٤م–ط١–ص١٣٣

٤ ديوان الغزال – ص ١٤

٥– التوبة والإنابة إلى الله عز وجل :

لقد ارتبطت التوبة بالمعصية،كما ارتبط الزهد بالتوبة والإقلاع عن الذنوب والمعاصي ،حيث تعد التوبة "أول درجة ينبغي أن يبلغها الزاهد "[١] .

ومن شعراء الأندلس من جنح إلى الزهد في آخر حياته معلنا توبته عن ما سبق من لهو في شبابه ، ويتمثل هذا النموذج في الغزال وابن عبد ربه ، حيث كان الأخير مولعا بالموسيقى والغناء يدافع عنه ويرى إباحته ، وما صاحب مجالسه من لهو ومجون في شبابه ، ثم أقلع عن صبوته في آخر عمره معلناً توبته ، يدل على ذلك مجموعة من أبياته ، منها أبيات يذكر فيها ما كان في صباه من مجالس لهو وشرب للخمر بيد ساقيات حسان ثم ختم ذلك بالتوبة والتكفير عما بدر منه ،لأن خاتمة الأعمال تكفير ، وذلك في قوله :

يا لَيْلَةً ليسَ في ظَلمائِها نُورُ إلا وجُوهاً تُضاهِيها الدَّنَانِيرُ
حُورٌ سَقَتْني بِكأسِ المَوْتِ أعْيُنُها ماذا سَقَتْنِيهِ تِلْكَ الأَعْيُنُ الحُورُ ؟

إِذا ابْتَسَمْنَ فَدُرُّ الثغْرِ مُنْتَظِمٌ   وَإِنْ نَطَقْنَ فَدُرُّ اللَّفْظِ مَنْثُورُ
خَلِّ الصِّبا عَنْكَ واخْتُمْ بالنُّهى عَمَلاً   فَإِنَّ خاتِمَةَ الأَعمالِ تكْفيرُ
والخَيرُ والشَّرُّ مَقْرُونانِ في قَرَنٍ   فَالخَيْرُ مُتَّبَعٌ والشَّرُّ مَحْذورُ[٢]

١ التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول – ص١٩٦
٢ ديوان ابن عبد ربه – ص ٩٤

هذه الليلة التي تبدو غارقة في اللهو والمجون هي مجرد نموذج لليالي الأنس التي قضاها ابن عبد ربه في شبابه ، وهو يؤكد ذلك عندما يذكر زمان غيه بعد أن تاب وأناب فيقول :

زَمانٌ كانَ فِيهِ الرُّشْدُ غَيّاً   وكانَ الغَيُّ فِيهِ مِنَ الرَّشادِ[١]

إلا أن ذلك لا يقطع بحتمية شربه للخمر ،وولعه بالنساء ، لأنه في أبياته التي ذكر فيها الخمر إنما "كان يصف الخمر لذاتها أو يصف كؤوسها ، أو يصف مجالس الأنس التي تحليها القناني والأقداح ، وتديرها الساقيات الملاح"[٢] ، والدكتور إحسان عباس يشير إلى ذلك بقوله : " أما الخمر فلا أظنه كان يشربها وإن أكثر من ذكرها في شعره "[٣] ،كما يرى الدكتور شوقي ضيف –رحمه الله– أنه كان ينظم في الخمر والغزل لا عن عاطفة بل محاكاة لأقرانه ،يقول في ذلك : "فأخذ ينظم مثل أقرانه في الغزل والخمر ،وقلما يقع له شعر جيد ويبدو أنه لم يكن ينظم فيهما عن عاطفة حقيقية وأنه كان يصدر فيهما عن محاكاة أنداده"[٤] .

وقد فرق ابن عبد ربه بين الخمر والنبيذ من ناحية التحريم في فصلٍ من عقده حيث يقول " أن تحريم الخمر مجمع عليه لا اختلاف فيه بين اثنين من الأئمة والعلماء . وتحريم النبيذ مختلف فيه بين الأكابر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين بإحسان "[٥] .

١ ديوان ابن عبد ربه –ص٧٥

٢ نفسه– ص ٢٦

٣ تاريخ الأدب الأندلسي– ص١٨٤

٤ تاريخ الأدب العربي –عصر الدول والإمارات(الأندلس)- ص١٨٨

٥ العقد الفريد – ٦/ ٣٧٥

ومع ذلك فهو يربأ بنفسه عن شرب النبيذ مع ما فيه من الاختلاف في التحريم ، وفي هذا دلالة على بعده عن الخمر وشربها ،وكل ما من شأنه الإخلال بالعقل وقيمته .

ومما يؤكد ذلك مع تأكيد ولعه بالغناء ، ما ذكره الفتح بن خاقان في مطمح الأنفس نقلا عن ابن حزم أنه مرَّ بقصر من قصور قرطبة لبعض الرؤساء فسمع منه غناء أذهب لبه وألهب قلبه ،وبعد أن مُنع من السماع ،كتب قطعه لصاحب القصر يعاتبه على بخله واستئثاره السماع لنفسه[١] ،ذكر منها هذا البيت الذي ينفي فيه شربه للنبيذ فيقول :

أَمَّـا النَّبيـذ فَـإِنِّي لَسْـتُ أَشْـرَبُهُ وَلَسْـتُ آتِيـكَ إِلَّـا كِسْـرَتي بِيَـدِي[٢]

ومن هنا يظهر لي أن توبته إنما كانت عن مجالس الغناء وما يصاحبها من لهو وأنس ،وأنه صان نفسه عن المجون ،والعبث .

ويؤكد ذلك الدكتور إحسان عباس حيث يقول في توبته: " ولكني أعتقد أن توبته كانت توبة الفقيه المتحرج لا توبة العابث اللاهي "[٣]، بمعنى أن توبته كانت ناتجة عن شيخوخته التي أدرك فيها قرب الأجل ، فاعتراه الخوف من صغائر الذنوب ، ومن كل ما كان يستحسنه في شبابه من مجالس الأنس والغناء[٤]، وإن صح ذلك فإن زهده يكون زهد الشيخوخة الذي سبق وأن أشرت إليه .

---

١ انظر مطمح الأنفس - ص٢٧٠
٢ ديوان ابن عبد ربه — ص ٧٨
٣ تاريخ الأدب الأندلسي— ص١٨٤
٤ نفسه — ص ١٨٤

وأياً كان الأمر فإن توبته وثقافته الفقهية انعكست على شخصيته فأكسب شخصية الداعية الذي يدعوا الناس إلى المبادرة إلى الأعمال الصالحة ،ومن ذلك أنه أخذ يحض الناس على التوبة ويدعوهم إلى المبادرة إليها قبل الممات في قوله:

بَادِرْ إلى التَّوبَةِ الخَلصاءِ مُجْتَهِداً وَالمَوْتُ وَيْحَكَ لم يَمْدُدْ إليكَ يَدا
وَارْقُبْ مِنَ اللهِ وَعْداً لَيْسَ يُخْلِفُهُ لا بُدَّ لِلَّهِ مِنْ إنْجازِ ما وَعَدا[١]

ويصاحب التوبة طلب المغفرة والإكثار منها فيلجأ ابن عبد ربه إلى ربه طالبا المغفرة بعد أن أسرف على نفسه في الذنوب والمعاصي وندم عليها فيقول :

يَا ربِّ غُفرانَكَ عَنْ مُذنبٍ أَسْرَفَ إلا أَنَّهُ نَادِمُ[٢]

كما يصاحبها الندم على ما فات ،الأمر الذي يتجلى في قول ابن عبد ربه :

أَلاَ يَا وَيحَ قَلبِي للشْ ... شَبابِ الغَضِّ إذْ وَلَّى
جَعلتُ الغَيَّ سِربالي ... وَكَانَ الرُّشدُ بِي أَوْلى[3]

فهو يتحسر على أيام الشباب وما صاحبها من غي ،معلنا الندم على ما حدث فيها من ذنوب بقوله (وكان الرشد بي أولى) .

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص٦٨
٢ نفسه – ص١٥٠
٣ نفسه – ص١٣٦

وقد عُرفت قصائد ابن عبد ربه في التوبة بالممحصات حيث جعلها على أعاريض قصائده أيام الشباب ، ففي شبابه أكثر من شعر الغزل والخمر ، ثم أخذ ينقض ذلك في شيخوخته بقصائد عارض فيها قصائد الشباب وأطلق عليها الممحصات[1] . ويقصد بالممحصات أي المخلصات من الذنوب ، وكأنه في ذلك يعد شعره في شبابه من الذنوب والآثام[2] . ويمكن أن تعد الممحصات دليلا على تأثره بالثقافة المشرقية ، التي تتجلى في معارضته لشعراء المشرق " حتى انه حين شبع من معارضة الآخرين اخذ يعارض نفسه بالمحصات "[3] .

ومن الباحثين من يعد ابن عبد ربه في ما قدم من شعر في التوبة والمبادرة إلى العمل الصالح نداً لأبي العتاهية ، بل أنه استقى كثيرا من مواعظه[4] . يقول الدكتور سامي مكي

العاني عنه:"ويبدو أنه كان متأثرا بأبي العتاهية في زهده ،فهما متشابهان في الرجوع عن اللهو في الشباب إلى الزهد في أواخر العمر . . "[٥] .

وبالفعل يبدو تأثر ابن عبد ربه بأبي العتاهية واضحاً ،فيما انتهجه في حياته ،وما سلكه من مسلك الزهد والتوبة بعد حياة اللهو والعبث ، كما يبدو التأثر بارزا في اقتراب

---

١ انظر ما ذكره التونجي بهذا الشأن – ديوان ابن عبد ربه — ص ٢٧

٢ انظر تاريخ الأدب العربي —عصر الدول والإمارات الأندلس–ص١٨٨

٣ تاريخ الأدب الأندلسي—ص٢٠١

٤ انظر ما ذكره الدكتور محمد التونجي في ذلك – ديوان ابن عبد ربه — ص ٢٧

٥ دراسات في الأدب الأندلسي— ص٢٨٣

كثير من مواعظه وزهدياته مما ورد في ديوان أبي العتاهية من مواعظ ، ومن ذلك ما سبق وأن أشرت إليه في المبحث الأول ،وربما يكون السبب في تأثره انكبابه المتواصل على كتب الشرق دراسة وتنقيباً ،وإعجابه بهذه الشخصية الفذة التي ترجم الإعجاب بها عن طريق الإكثار من ذكره ،والاستشهاد بأبياته– خاصة في الزهد – في عقده .

كما يدعو الأمير عبد الله إلى التوبة والإنابة إلى الله عز وجل في رسالة كتبها عندما أحس بدنو أجله وبفراق الدنيا الفانية فقال فيها :

فبَادِر بالإنابة غير وَانٍ   على شَيءٍ يصِير إلى فَنَاءِ[١]

لقد سلك الشاعر خلقاً إسلامياً يحث عليه الدين الإسلامي ،يرتبط بالتراجع عن الخطأ والاعتذار عنه ، وقد علق الدكتور منجد مصطفى بهجت على هذه الأبيات بقوله :"وهي أبيات صريحة الدلالة في طلب العفو لهفوة بدرت منه ، وهو خلق إسلامي ولا ريب دعا إليه القرآن الكريم ،وأكدته السنة النبوية "[٢] .

وموضوع التوبة من الموضوعات الزهدية التي اكتظت بها دواوين الشعراء في المشرق ومن هؤلاء أبو العتاهية الذي سيطر الزهد على شطرٍ كبير من ديوانه[٣] ،وابن المعتز[٤] ،وغيرهما .

---

١ البيان المغرب في أخبار الأندلس – ٢/١٥٥

٢ الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين-ص٨٢

٣ ديوان أبو العتاهية – ص ٣٠

٤ ديوان ابن المعتز – دار صادر للطباعة والنشر-دار بيروت للطباعة والنشر-بيروت ١٣٨١هـ/١٩٦١م- ص٨٣

لا شك أن موضوع التوبة من الموضوعات الدينية التي ينطوي عليها الزهد بالضرورة ، لكن ليس من الضرورة أن يكون المتحدث بها شاعراً زاهداً ،ذلك لأنها من المواضيع الإسلامية التي يمكن أن يتطرق لها أي أحد بغض النظر عن كونه زاهدا أو غير ذلك .

يقول الدكتور منجد مصطفى بهجت :" نستطيع أن نعد شعر التوبة والاستغفار ،شعر أدب وخلق إسلامي ،إذ ليس كل من قال شعراً في التوبة شاعراً زاهداً ، وإن كان شعر الزهد ينطوي على معاني التوبة والاستغفار بالضرورة "[١] .

وعند الوقوف على شعر الشعراء في هذه المرحلة أجد أن هذا الموضوع ارتبط بتقدم العمر الذي يشعر فيه الإنسان بدنو أجله ،خاصة لمن عاش في لهو ومجون في شبابه ، فيتجرد في آخر عمره من ذنوبه مقبلا على الله عز وجل ، طالبا عفوه ، وهذه ظاهرة طبيعية لكل إنسان انغمس في الملذات إذ لا بد له من ساعات ندم يخلد فيها إلى نفسه .

وبناء على ما سبق من أبياتٍ شعرية ذكر فيها شعراء الأندلس موضوع التوبة يمكن أن نقصر ذكر التوبة عندهم في هذه المرحلة على غرضين وهما :

- لإعلان توبتهم وتنسكهم وتجردهم من ذنوبهم بعد ما كان منهم من آثام .
- لوعظ الناس ودعوتهم إلى الله عز وجل ، وضرورة التزود بالأعمال الصالحة قبل الرحيل عن هذه الدار الفانية .

١ الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي – ص٢٥٤

٦- التذكير بالآخرة والجزاء :

لا شك أن الوقوف بين يدي الله عز وجل للحساب موقف جليل مهيب تقشعر منه الأبدان ،وكيف لا يكون كذلك ؟ وهو وقوف بين يدي الجبار، القاهر فوق عباده ، وما بعده إما خلود في الجنة ،أو خلود في النار والعياذ بالله .

هذا الموقف المهيب الذي تستشعره القلوب الندية بذكر الله ووحدانيته ،يهابه ويتخوف منه ابن عبد ربه ، ومن العدل الإلهي في تلك اللحظة الحاسمة في قوله :

يَـا وَيلتَـا مِــنْ مَوْقــفٍ مَـا بــهِ　　أَخْــوفُ مِــنْ أَنْ يعــدِلَ الحـاكمُ

أبـــارزُ اللّـــهَ بعِصــــيْانِهِ　　ولـــيْسَ لي مـــن دُونـــهِ راحِــمُ

يــا ربِّ غُفرانَــك عــن مُــذنبٍ　　أسْـــرَفَ إلا أَنَّـــهُ نَـــادِمُ[1]

ويوجه الغزال نظر الإنسان لهذا اليوم مستغلا حادثة موت نصر الخصي حيث يقول:

لَيس مَعَـهُ مَن كـل مـا كـانَ قَـد جَمَّـعَ　　إلّـــا ثَلاثَـــةُ أَثْـــوابُ

وَتَلاشـــى جَميـــعُ ذاكَ فَلَمّـــا　　يَبـــقَ إلّـــا ثَوابُـــهُ أَو عِقـــابُ

عَســـكَرٌ جَنَّـــدوا فَلَـــيسَ بِمَـــأذونٍ لَهُـم عَنـهُ أَن يَكـونَ الحِسـابُ[2]

يتجرد الإنسان في هذا الموقف العظيم من كل ما يملك من الدنيا ،ويخرج من دنياه بثلاثة أثواب ،مستقبلا يوم الحساب ،يرافقه ثوابه أو عقاب .

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٥٠

٢ ديوان الغزال – ص٥٢-٥٣

ومن العقاب الذي أعده الله عز وجل في اليوم الآخر (نار جهنم) ، وفي التذكير بهذا الجزاء رادع للنفس عن التعلق بأمور الدنيا ،لذا يفصل ابن عبد ربه في وصف هذه النار ، ذاكراً ما تتميز به من صفات ترجف من هولها القلوب في إحدى قصائد الممحصات التي يقول فيها :

يــا قــادراً لــيس يَعْفُــو حِــينَ يَقْتَــدِرُ　　ولا يُقَضَّــى لــه مِــن عَيشَــهٍ وَطَــرُ

عـــاينْ بقَلْبِـــكَ إنَّ العَــــينَ غافِلَـــةٌ   عَــنِ الحقيقَــةِ واعْلَــمْ أَنَّهــا سَــقَرُ

سَــوداءُ تَزْفــرُ مِنْ غَيْــظٍ إذا سُعِـــرَتْ   للظـــالمينَ فمـــا تُبقـــي ولا تَـــذَرُ

إنَّ الَّـــذينَ اشْـــتَرَوا دُنْيـــا بِـــآخِرةٍ   وَشِــقْوَةً بنَعــيمٍ سـاءَ مـا تَجَـروا[٢]

وتحمل الأبيات في طياتها زجرا وردعا للإنسان اللاهي المتغافل عن الحقيقة ،ووصفا دقيقا للعقاب الرادع لمثل هذا الإنسان ،والمتمثل في سقر ،وقد أجاد ابن عبد ربه في ما قدمه من وصف للنار ،وهي صفات في حقيقتها مستمدة من كتاب الله عز وجل .

أما في الجانب الآخر جانب الثواب والجزاء الحسن يذكر الغزال جزاء من قبضت روحه على عمل البر ،ومقدار منزلته عند الله عز وجل، من جاه جليل وقدر عظيم في قوله:

فَطـوبى لِعبـدٍ أَخـرجَ اللَـهُ روحَـهُ   إِلَيـهِ مِـنَ الـدُّنيا عَلـى عَمَـلِ البِـرِّ

وَلَكِـــنَّني حُـــدِّثتُ أَنَّ نُفوسَــــهُمْ   هُنالِـكَ في جـاهٍ جَليـلٍ وَفي قَـدْرِ

---

٢ ديوان ابن عبد ربه — ص ٩١

وَأَجســادُهُم لا يَـــأْكُلُ التُّربُ لَحمَها   هُنالِـكَ لا تَبْلـى إِلى آخِـرِ الـدّهرِ[١]

هذه الأبيات التي وردت في العقد الفريد —ولم ترد في غيره – من قصيدة طويلة للغزال ،لا تخلو من الاضطراب الذي يظهر بصورة جليه في اختلاف المعنى بين الثناء والجزاء ،فالشاعر يثني في أول هذه الأبيات على من مات على عمل البر ، ولكن الجزاء الذي ذكره هو جزاء الشهيد الذي يقول الله تعالى عنه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[2] . كذلك الاستدراك بـ(لكن) يدل على أن هناك كلام سابق معارض له ،وهذا يوحي بإسقاط بعض الأبيات من القصيدة ،التي ربما سقطت مع ما حدث في الكتاب من نسخ متكرر .وفي جزاء الشهيد أيضاً يقول سعيد بن جودي[3] في رثاء يحيى بن صقالة :

فَجَزاكَ الإلهُ جنَّةَ عَدْنٍ   حَيْثُ يُجْزى الثّوابَ كلُّ شهيدِ[4]

ومن صور الشهادة الموت في سبيل الله ، لذا كان لقتال المسلمين في سبيله ، ونصرة دينه فضل كبير ، وجزاء عظيم ، هذا القتال الذي يتطلب منهم الجهاد بالمال والنفس ، جعل الله عز وجل ثمن ذلك جنة عرضها السموات والأرض ، وما يجاهد المجاهد في سبيل الله إلا

---

١ ديوان الغزال – ص ٨٠

٢ آل عمران : ١٦٩

٣ هو أبو عثمان سعيد بن سليمان بن جودي بن أسباط بن إدريس السعدي ،من هوازن ،وجده الأعلى أسباط بن جعفر من أهل العلم والفقه ،عاش سعيد في القرن الثالث ،كان فارسا شجاعاً رابط الجأش ،وشاعرا مفلقاً ،قتل غيلة وغدراً سنة ٢٨٤هـ. سعيد بن جودي السعدي الإلبيري الأندلسي سيرته ومجموع شعره ، د.محمد رضوان الداية -دار الفكر - دمشق- ١٩٩٧م – ص٤٥ وما بعدها

٤ سعيد بن جودي الأندلسي - ص ٧٩

رغبة وطلبا لهذا النعيم العظيم، وفي أبياتٍ منسوبة لطارق ابن زياد يذكر رغبته وجيشه في هذا الجزاء ، وعدم مبالاتهم بذهاب أنفسهم إن كانت ستحظى بهذا الشرف العظيم والمنزلة الرفيعة عند الله عز وجل فيقول في قصيدة قالها في الفتح:

رَكِبْنَا سَفيناً بالمَجازِ مُقَيَّرا   عَسى أنْ يَكونَ اللهُ مِنّا قَدْ اشتَرَى

نُفُوسَـــاً وَأَمْـــوَالاً وَأَهْـــلاً بِجَنَّـــةٍ إِذْا مَـا اشْتَهَيْنَـا الشـئ فِيْهَـا تيَسَّـــرَا

وَلَسْـنَا نُبَـالِي كَيْـفَ سَـالَتْ نُفُوسُـناً إِذْا نَحْنُ أَدْرَكنَـا الذْي كَـانَ أَجْـدَرَا[1]

ولو صحت نسبة هذه الأبيات لطارق لكانت أول شعر عربي في الأندلس ، إلا أنه يحف بها كثير من الشكوك لعدة أسباب ذكرها الدكتور أحمد هيكل في كتابه [2] .

وقد تناول الشعراء هذه القضية منذ القدم ،فعبروا عن خوفهم ،وهيبتهم من ذلك الموقف شعرا ،ومن هؤلاء على سبيل المثال أبو العتاهية [3] ،وأبو نواس [4] ،والعجاج[5] . .وغيرهم .

---

١ نفح الطيب – ١/ ٢٦٥

٢ انظر الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة –ص٦٨

٣ انظر ديوان أبي العتاهية ص٨ – ص١٥٣

٤ انظر ديوان أبو نواس –ص٦١١

٥ انظر ديوان العجاج –رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي–تحقيق عزة حسن– مكتبة دار الشرق–بيروت–ص٢٦٧

٧– الخشية والخوف من الله عز وجل :

يعد القرآن الكريم وعلومه من أبرز " العلوم التي برز فيها الأندلسيون ، وفاقوا غيرهم من علماء الأمصار الإسلامية "[1] ، لذا كان من الطبيعي أن يتأثروا بما جاء به من تهديد ووعيد وقد اعتبر الغزال ما جاء في كتاب الله من آيات الزجر زاجرا له عن ارتكاب

المعاصي حيث يبرر انصرافه عن المعاصي والذنوب بالخوف والخشية مما ورد في كتاب الله عز وجل من آيات الزجر والعذاب ويظهر هذا المعنى في قوله :

كَـأَنّي لَـم أَسمَـع كِتـابَ مُحَمَّـدٍ وَمـا جـاءَ في التَنزيـلِ فيهِ مِنَ الزَّجْـرِ [2]

وللبكاء من خشية الله فضل عظيم يدل على ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع) [3] ،وفي موضع آخر يقول عليه الصلاة والسلام :(عينان لا تمسهما النار أبدا : عين بكت من خشية الله ،وعين باتت تحرس في سبيل الله) [4] . والأمير عبد الله يدعو الإنسان إلى البكاء طلبا لرحمة الله عز وجل في قوله :

فَنفْسِـكَ فَابْكِهَـا أَو نُـحَ عَلَيْهَـا فَرُبَّمَـا رُحِمْـتَ عَلَـى الُبُكَـاءِ [5]

---

١ الإسلام في اسبانيا –ص٤٥

٢ ديوان الغزال – ص٧٩

٣ صحيح سنن الترمذي –محمد ناصر الدين الألباني–ط١–١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م–مكتبة المعارف–الرياض–كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم –باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله –رقم الحديث ١٦٣٩– ٢/٢٣٠

٤ نفسه –كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب ما جاء في فضل البكاء من خشية الله–رقم الحديث ٢٣١١–٢/٥٢٨

٥ الحلة السيراء – ١/١٢٢– ووردت في كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب–٢/١٥٥

كما يصور ابن عبد ربه في مشهد حسي حال المعتكفين في محاريبهم وما يعلوهم من مظاهر الخشوع والسكينة والبكاء من خشية الله في قوله :

مَـدامِعُ قَـدْ خَـدَّدَتْ في الخُـدود وأَعْـيُنٌ مَكْحُولَـةٌ بـالهُجودِ

وَمَعْشَــــرٍ أَوْعَـــــدهُمْ رَبُّهُـــــمْ فبـــادَروا خَشْــيَةَ ذاكَ الوَعِيـــدِ

فَهُـــمْ عُكُــوفٌ في مَحـــارِيبِهِمْ يَبْكــونَ مِنْ خَـوْفِ عِقابِ المَجيـدِ

قَـدْ كـادَ أَنْ يُعْشِـبَ مِـنْ دَمْعِهِـمْ مـا قابَلـتْ أَعْيُـنُهُمْ في السُّـجُودِ[1]

وفي هذا المشهد الحسي تظهر صفة مشتركة بين هؤلاء الزهاد وهو الإخلاص المنافي للرياء حيث كان اعتكافهم على الطاعة ، وبعدهم عن أنظار الناس ، وإطالتهم في السجود دلالة على إخلاصهم ،كما كان خوفهم من الله عز وجل الذي فجر مدامعهم بالبكاء دلالة على خشيتهم من الله في السر والعلن ،فمما يدل على إخلاص المؤمن في عبادته أنه يستشعر وجود الله معه دائما لأن الله عز وجل هو الرقيب على عباده ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾[2] .

لاشك أن خشية العبد من ربه وخوفه منه أمر ينعكس على تصرفاته ، ويصاحب أعماله فلا يحيد عن الصواب ولا ينجرف في طريق الهلاك ، وهذه الصورة الحسنة تعتبر من السمات البارزة للزهاد ، الذين كانوا يراقبون الله في كل تصرفاتهم .

---

١ ديوان ابن عبد ربه — ص٧٧
٢ غافر : ١٩

وقد ذكر أبو عمران الزاهد أبياتاً تدل على خوفه من الله عز وجل الذي حمله على الترفع عن المعاصي والذنوب ،وذلك في قوله :

لَــوْلا الحَيــاءَ وَخَــوْفُ اللَّــهِ يَمْــنَعُني وَأَنْ يُقـالَ صَبا مُوسَى عَلى كِبَرِهِ

إِذاً لمتّعْـــتُ لحْظِـــي فِـــي نَـــوْاظِرِه　　　حَتّى أَوفّي جُفُونِي الحقّ مِنْ نَظْرِهِ[1]

الحياء من الله دليل الإيمان ، والخوف منه رادع عن المعصية ،والكبر يتعارض مع الصبوة ،وهذه الأمور تعد كافية ومبررة لابتعاد أبو عمران عن هذه المعصية التي تعد متعة يتمتع بها الكثير من أبناء المجتمع الأندلسي الذي عُرف بحب الغلمان والتغزل بهم في ذلك الوقت .

وعلى الرغم من قلة ما وصلنا من أبيات في هذا الموضوع ، إلا أنها تعكس شخصية الأندلسي المؤمن المتمسك بكتاب الله عز وجل ، الذي يخشى زواجره ويرتدع عن نواهية ، ويتخذ من البكاء واللجوء إلى الله عز وجل ذريعة لبلوغ رحمته، كما تحمل هذه الخشية في طياتها إحساساً بمراقبة الله له في السر والعلن .

ويعد موضوع الخشية من المواضيع التي تطرق لها الشعراء منذ القدم في كثير مما ورد عنهم،فقد ذكروا الخشية والخوف من الله عز وجل في مواطن عدة ،من أمثال أبي نواس[2] ،وأبي العتاهية[3] وغيرهما .

---

١ نفح الطيب –٢/٢٧ –ولهذه الأبيات قصة ذكرها المقري في كتابة –انظر نفح الطيب –٢/٢٧

٢ انظر ديوان أبي نواس –ص ٦١٠

٣ انظر ديوان أبي العتاهية –ص٣٧– ص٥٥

٨– النصح والموعظة الحسنة :

لقد حظي هذا الموضوع باهتمامٍ بالغ من شعراء هذه المرحلة ،الذين استخدموا أسلوب الوعظ في كثيرٍ من أبياتهم الشعرية ، فهذا محمد بن عبد السلام الخشني يعظ الإنسان بحقيقة هذه الدنيا وبضرورة التزود بالأعمال الصالحة قبل الرحيل منها فيقول:

أَخِي إِنْمَا الدُنيَا مَحَلّةُ فُرْقَةٍ وَدَارُ غُرُورٍ آذَنَتْ بِفِرَاقِ

تَزوَّدَ أَخِي مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْكُن الثَّرَى وَيلتَفَّ سَاقٌ للنُّشُورِ بسَاقِ[1]

تعتمد الدعوة في الإسلام على الرقة واللين ،والله عز وجل يوجه نبيه إلى ذلك في قوله : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[2] ،وقد ترجم الشاعر دعوته مستخدما هذا الأسلوب الذي يتراءى لي من خطابه الرقيق الذي يحمل في طياته شفقة الناصح وحرصه على المنصوح .

والإنسان في هذه الحياة في غفلة يغتر بطول الأجل ،ويلهيه الأمل ، وهو غافل عن طلب النجاة ،هذا الإنسان يخاطبه الأمير عبد الله ويزجره بقوله:

يَا مَنْ يُراوِغُهُ الأَجَلْ حَتَّامَ يُلهِيكَ الأَمَلْ

حتَّامَ لا تَخْشَى الرَّدَى وكَأَنَّهُ بِكَ قَدْ نَزَلْ

أَغْفَلتَ عَنْ طَلَبِ النَّجَاةِ وَلا نجَاةَ لِمَن غفَلْ

---

١ جذوة المقتبس – ص ٦٤

٢ آل عمران : ١٥٩

هَيْهَاتَ يَشغلك المُنَى وَلَمَا يدومُ لكَ الشَّغَلْ

فكـــأنَّ يومَـــك لم يكُـــنْ   وكـــأنَّ نَعْيَـــكَ قَـــد نَـــزَلْ[1]

يظهر في خطاب الأمير عبد الله بعض الحدة ،والغلظة ، التي قد يكون السبب فيها ما كان في عهده من كثرة الفتن والمنازعات ، التي أورثته حدة في الأسلوب ،وصرامة في المنطق . وتكرار عبارة (قد نزل) في هذه الأبيات توحي بتخوفه المستمر من الأمر المحتوم وساعة وقوعه ،وتضع في الذهن صورة للحظة وقوعه .وفي موضع آخر يعظ الأمير عبد الله الإنسان بضرورة التنافس في تقوى الله فيقول:

فَنَـــافِس في التُّقَـــى واجـــنح إليـــه   لَعَلَـــك تُرضِـــينْ رَبَّ السَّـــماءِ[2]

وقد غلبت على الأمير عبد الله "الرصانة واتسمت مجالسه بالوقار وكان من الشعراء البارزين في الأسرة الأموية"[3] ،وعُرف بين رعيته بأنه " التقيّ النقيّ، العابد الزاهد ، التالي لكتاب اللّه، والقائم بحدود الله "[4]، مع أنه ابتلي بعهد مليء بالفتن والمنازعات .لذا نزع إلى الزهد الذي كان أكثر تعبيرا عن طبيعته المتدينة وواقع الحال في عهده ،وما رافق ذلك من معاناة شديدة انعكست على شخصيته[5] .

١ كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب- ٢/١٥٥

٢ نفسه

٣ الأمراء الأمويون الشعراء في الأندلس ، د/إبراهيم بيضون-دار النهضة العربية-بيروت-١٩٨٢م- ص١٠٤

٤ العقد الفريد - ٤/٤٥١-٤٥٢

٥ انظر الأمراء الأمويون الشعراء في الأندلس- ص١٨٩

وفي الموعظة أيضا يقول ابن عبد ربه لمن طال عمره حتى بلغ المشيب ، ويذكره بالموت والرحيل الذي يُكتفى به واعظا وزاجرا عن اللذات والشهوات :

يا مَنْ تَلَهَّى وشَيْبُ الرأسِ يَنْدُبُهُ ماذا الَّذي بَعْدَ شَيْبِ الرأسِ تَنْتَظِرُ ؟
لو لم يَكُنْ لكَ غيرَ المَوتِ مَوْعِظَةٌ لكانَ فيهِ عَنِ اللَّذَّاتِ مُزْدَجَرُ
أنتَ المَقُولُ لَهُ ما قُلْتُ مُبْتَدِئاً هَلَّا ابتكَرْتَ لِبَينٍ أَنْتَ مُبتكِرُ ؟[1]

الشاعر هنا يزجر نفسه اللاهية العابثة التي لم يردعها المشيب عن اللهو ،ويذكرها بالموت الذي يكتفى به زاجرا عن اللذات والشهوات ،ويتفجر في هذه الأبيات صدق الشاعر ،الذي يتجلى في غضبه من نفسه وزجره لها . وهو من خلال حواره مع نفسه يقدم موعظة لكل من طال عمره وبلغ المشيب وهو على حياة اللهو والعبث ويذكره بالموت والرحيل .

وتعد هذه الأبيات من الممحصات التي اشتهر بها ابن عبد ربه ، يدل على ذلك شطر البيت الذي ضمنه فيها وذلك في قوله :

هَلَّا ابتكَرْتَ لِبَينٍ أَنْتَ مُبتكِرُ ؟[2]

وهو مطلع لقطعه "قالها في خطاب فتى كان يألفه أزمع على السفر فحال المطر الغزير دون ذلك"[3] ، وبعد توبته محصها بالأبيات السابقة .

---

١ ديوان ابن عبد ربه — ص ٩١-٩٢

٢ نفسه — ص٨٧

٣ الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة—ص ٨٨

وهذه "المحَّصة الوحيدة في ديوانه التي ضمنها ابن عبد ربه في عجز البيت الأخير صدر مطلع القطعة الممحَّص عنها ،وهذا النوع الجديد والفريد من نوعه يتجلى فيه صدق التوبة"[١] . والحميدي يؤكد كثرة هذه الممحصات التي لم يصلنا منها إلا القليل وذلك في قوله :"ولأحمد بن محمد بن عبد ربه أشعار كثيرة جداً سماها الممحصات، وذلك أنه نقض كل قطعة قالها في الصبا والغزل، بقطعة في المواعظ والزهد، محصها بها، كالتوبة منها، والندم عليها"[٢] . وقد وقف الدكتور موسى رزق على ما لا يتجاوز خمسين بيتاً ،والكثرة الكاثرة من ممحصاته قد ضاع[٣] .

وللحياة حقيقة مفادها أنها مهما طالت فهي قصيرة يقول ابن عبد ربه واعظا :

أَتلْهـو بَـينَ باطِيـةٍ وَزيـرِ ... وأنـتَ مِـنَ الهـلاكِ على شـفيرِ ؟
فيـا مَـنْ غَـرَّهُ أَمَـلٌ طويـلٌ ... بـه يُـرْدَى إلى أجَـلٍ قَصـيرِ
أَتَفْـرحُ والمَنِيَّـةُ كُـلَّ يَـوْمٍ ... تُريـكَ مَكـانَ قَـبرِكَ في القُبـورِ ؟
هِـيَ الـدُّنيا وَإِنْ سَـرَّتْكَ يَوْمـاً ... فَـإِنَّ الحُـزْنَ عَاقِبَـةُ السُّـرورِ
سَتُسْـلبُ كُـلَّ مـا جَمَّعْـتَ مِنْهـا ... بعارِيـةٍ تُـرَدُّ إلى مُعِـيرِ
وَتَعتـاضُ الـيقينَ مِـنَ التَّظَنّـي ... ودارَ الحـقّ مِـنْ دارِ الغُـرورِ[٤]

---

١ ظاهرة التوبة والاستغفار في الشعر المقصد والمقطعات من بداية العصر الأموي إلى نهاية القرن الثامن الهجري-ص١٤٥

٢ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس – ص ٩٥

٣ انظر الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي – ص٧٠

٤ ديوان ابن عبد ربه – ص ٩٧

اعتمد الشاعر في أبياته على الاستفهام الإنكاري ،الذي يكشف بتكراره عن مدى إنكاره لمثل هذا الأمر ،وتغلغل فكرة الموت والهلاك في نفسه .

وينصح عباس بن ناصح المرء بضرورة الابتعاد عن الدنيا التي لا يضره منها إلا ابتعاده عن تقوى الله عز وجل والكرم حيث يقول:

لَعَمْـرُكَ مَـا البَلْـوَى بِعَـارٍ ولا العَـدَمْ   إذا الَمْـرءُ لَـمْ يَعْـدَمْ تُقَـى اللهِ وَالكَـرَمْ

تَجْـافَ عَـنْ الـدُّنيا فَمَـا لُمْعْجّـزٍ   وَلا عَـاجزٍ إلا الـذْي خُـطَّ بِـالقَلَمْ[1]

ويبدو أن البيتين وردا ضمن قصيدة طويلة ،يشكل البيت الأول مطلعها ،والبيت الثاني آخرها ،ولم يصلنا من هذه القصيدة إلا هذين البيتين اللذين ذكرتهما أغلب المصادر وهذا ما اهتديت إليه من القصة التي حكاها المقري في نفح الطيب من أن عباس بن ناصح عندما ورد على قرطبة ،ومرت عليه هذه القصيدة من أولها (البيت الأول في الأبيات السابقة)حتى انتهى القاري إلى آخرها (البيت الثاني في الأبيات السابقة) ،قال له الغزال وكان حدث صغير،ذكي القريحة ،أيها الشيخ ما تصنع مفعل مع فاعل ،قال له عباس بن ناصح وكيف تقول أنت ؟ قال :كنت أقول : فليس لعاجز ولا حازم، فقال له عباس: والله يا بني لقد طلبها عمّك فما وجدها[2] . كما تحمل هذه القصة البوادر الأولى للنقد الأندلسي ، الذي نضج واكتمل بعد ذلك .

---

١ نفح الطيب – ٢/ ٢٦١ –كما وردت في المغرب في حلى المغرب –٣٢٤/١ مع تغيير (ولا حازم) بدلا من (ولا عاجز)

٢ انظر نفح الطيب–٢٦١/٢

ويعظ ابن عبد ربه محمد بن وضاح أحد علماء قرطبة الذي جادت له الدنيا بنعيمها ، بضرورة أن يكتفي منها بمثل زاد الراكب ، في قوله:

جادتْ لكَ الدنيا بنعمةِ عيشِها ... وكفاكَ منها مثلُ زادِ الراكبِ[1]

أما حياة الترف والبذخ ورغد العيش ، فيدعو ابن عبد ربه أصحاب الخليفة إلى تركها لأن التكلف في اللباس والمظهر يؤدي بهم إلى التكبر والغرور فيقول:

تَجنَّبْ لِباسَ الخَزِّ إنْ كُنْتَ عَاقِلاً ... ولا تَخْتَتمْ يوْماً بفَصِّ زَبَرْجَدِ
ولا تَتَطَيَّبْ بالغَوالي تعطُّراً ... وَتَسْحَبَ أَذْيالَ المُلاءِ المُعَضَّدِ
ولا تَتَخَيَّرْ صَيِّتَ النَّعْلِ زاهِياً ... ولا تَتَصَدَّرْ في الفِراشِ المُمَهَّدِ
وكُنْ هَمَلاً في النَّاسِ أَغْبَرَ شَاعِثاً ... تَرُوحُ وَتَغْدُو في إزارٍ وَبُرْجُدِ
يَرى جِلْدَ كَبْشٍ تَحْتَهُ كُلَّما اسْتَوى ... عَلَيْهِ سَريراً فَوْقَ صَرْحٍ مُمَرَّدِ
ولا تَطْمَحِ العَيْنانِ مِنكَ إلى امْرِئٍ ... لَهُ سَطَواتٌ باللِّسانِ وباليَدِ
تَراءَتْ لَهُ الدُّنْيا بزِبْرِجِ عَيْشِها ... وقادَتْ لَهُ الأَطْماعُ مِنْ غَيرِ مِقْوَدِ
فَأَسْمَنَ كَشْحَيْهِ وَأَهْزَلَ دِيْنَهُ ... وَلَمْ يَرْتَقِبْ في اليَومِ عاقبةَ الغَدِ
فَيَوْماً تَراهُ تَحْتَ سَوْطٍ مُجَرَّداً ... وَيوماً تَراهُ فَوْقَ سَرْجٍ مُنَضَّدِ
فَيُرْحَمُ تاراتٍ ويُحسَدُ تارَةً ... فَذا شَرُّ مَرْحُومٍ وَشَرُّ مُحَسَّدِ[2]

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٥٣ ٢ ديوان ابن عبد ربه – ص ٧٣

تدل هذه الأبيات دلالة واضحة على ما اتسم به المجتمع الأندلسي في تلك الآونة ،من حب للتأنق وميل إلى الزينة واهتمام واضح باللباس من ديباج وحرير وحلل نفيسة فقد انفرد الأندلسيون بتقاليد في الزي تخالف ما كانت عليه الأقاليم الأخرى [١] .

كما أسرفوا في التطيب بالغوالي ،التي بلغ من اهتمامهم بها وإسرافهم في استخدامها ما حكاه ابن سعيد في المغرب أن الحكم أيام فتنة الربض عندما رأى أن الحرب قد حمي وطيسها "دعا بقارورة غالية فجاءه بها خادم له، فأفرغها على رأسه، فلم يملك الخادم نفسه أن قال له: وأية ساعة طيب هذه؟ فقال: اسكت لا أمَّ لك! ومن أين يَعْرِف قاتل الحكم رأسه من رأس غيره" [٢] . وفي ذلك دلالة أيضا على حبهم للتميز والظهور حتى في أصعب المواقف . هذا كله من شأنه أن ولَّد في أنفسهم نوعا من الغرور والميل إلى التكبر .

وقد كانت حياة الترف والبذخ التي انتشرت في الأندلس في ذاك الزمان –وتمثلها هذه الأبيات – من ضمن الأسباب الهامة التي دفعت الزهاد إلى وعظ الناس وتذكيرهم بمآل هذه الحياة وتحذيرهم من الدنيا وغرورها ،ومآل المتكبرين فيها . ومع ما في هذه الأبيات من موعظة تراوحت بين الأمر والنهي ،والوعظ والزجر ،يُظهر الشاعر اتجاها نحو المعاني الحضارية [٣] السائدة في ذلك الوقت .

١ انظر الإنسان الأندلسي بين الواقع العربي وما طمح إليه–ص١٩٦

٢ المغرب في حلى المغرب –١/ ٤٣

٣ انظر الأصول الفنية للشعر الأندلسي –ص٤٢٢

ومن هنا يتبين لي كثرة هذا اللون من الشعر لدى شعراء هذه المرحلة ، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على إقبال الناس على الدنيا وزخرفها ، وافتتانهم بمباهجها ولذاتها ، مما جعل الحاجة ملحة لوعظ الناس وإعادتهم إلى سابق عهدهم .

ويعد هذا المحور شامل للمحاور السابقة لأنه – في رأيي – كل ما يتطرق لفناء الدنيا والأحياء ، والتنفير من الذنوب والتوبة منها ، والخشية والخوف من الله عز وجل هو في حقيقته يحمل في طياته موعظة للإنسان ، ورادع للنفس البشرية عن الافتتان بالدنيا .

وتشكل هذه المواعظ ، والعبر ، والحكم نصوصا أدبية هامة إذ اقتصرت في النثر على عبارات بليغة وموجزة ، إلا أن أهميتها تزداد إذا شُكلت شعرا ، لأن الشعر يخاطب الوجدان مباشرة ، ويتغلغل في أعماق النفس البشرية .

ويعد الشعراء الزهاد بنهجهم للزهد في حياتهم وعاظ ، يثقل كاهلهم بمسئولية إيقاظ الناس وتنبيههم من غفلاتهم . لذا أكثروا من وعظ الناس بزوال الدنيا وفنائها وضرورة الابتعاد عن ما فيها من مظاهر البذخ والترف ، والتزود فيها بالأعمال الصالحة .

ومن الجدير بالذكر أن هذا الأسلوب المعتمد على تقديم النصيحة والموعظة الحسنة هو أسلوب قديم في الشعر العربي ويظهر ذلك في بعض ما ورد لدى المشارقة بهذا الشأن ، ومن ذلك ما ورد لدى الشافعي[1] ، وأبو العتاهية[2] ، وأبو نواس[3] . . وغيرهم من الشعراء .

١ انظر ديوان الشافعي – ص ٧٦

٣ انظر ديوان أبي نواس – ص ٢٣٢

٢ انظر ديوان أبي العتاهية — ص ٧٦

٩- الدعوة إلى مكارم الأخلاق :

لقد جسد الشعر الأندلسي في هذه المرحلة هذا المعنى في بعض ما ورد لدى الزهاد من أبيات شعرية، ومن هذا ما ورد عن ابن عبد ربه الذي يدعو في دعوة صريحة للأخلاق الكريمة في قوله :

يـــا مَـــنْ تَجلَّـــدَ للزَّمـــا ... ن أمـــا زمانُـــكَ مِنْـــكَ أَجْلَـــدْ ؟

سَـــلِّطْ نُهَـــاكَ عَلَـــى هَـــوَا ... كَ وَعُـــدَّ يَوْمَـــكَ لَـيْسَ مِـــنْ غَـــد

إِنَّ الحيـــــــاةَ مَـــــــزارِعٌ ... فَـــازرَعْ بهـــا مـــا شِـــئْتَ تَحْصُـــد

وَالنَّـــاسُ لا يَبْقَـــى سِـــوَى ... آثَـــارِهِمْ وَالعَـــيْنُ تُفْقَـــد

أَوَ مـــا سَـــمِعْتَ بِمَـــنْ مَضَـــى ... هَـــذا يُـــذَمُّ وَذاكَ يُحْمَـــدْ ؟

والمـــالُ إِنْ أَصْـــلحْتَهُ ... يَصْـــلُحْ وَإِنْ أَفْسَـــدْتَ يَفْسُـــدْ

وَالعِلْـــمُ مـــا وَعَـــتِ الصُّـــدُو ... رُ ولَـيْسَ مَـا في الكُتْـبِ يَخْلُـدْ (١)

وقد كانت الدعوة الإسلامية في مضمونها دعوة خُلقية تدعو الناس إلى ضرورة استثمار مزرعة الدنيا لجني ثمار الآخرة ، وقد عالج ابن عبد ربه ذلك من خلال أبياته التي تدور في مجملها حول الأخلاق الكريمة التي يترك الإنسان بها الثناء الحسن بعد رحيله من الدنيا ، و يعلق الدكتور منجد مصطفى بهجت على هذه الأبيات بقوله : " ودعوة

١ ديوان ابن عبد ربه — ص ٦٧

ابن عبد ربه في أبياته دعوة خلقيه ، يشيد فيها بحسن الانتفاع من الحياة بصالح العمل والوعي والإدراك بأن الحياة فانية ولا يبقى منها سوى الذكر إن ذما أو حمداً والدعوة لا تلبث أن تختلط بنزعة زاهدة في الدنيا "[١] . كما يقول ابن عبد ربه في وصف رقة الأدب مظهرا إعجابه به:

أَدَبٌ كمِثْلِ الماءِ لَوْ أفْرَغْتَهُ   يَوْماً لَسَالَ كما يَسِيلُ الماءُ[٢]

وفي أبياتٍ أخرى يشيد ابن عبد ربه بالكرم وهو من الأخلاق الكريمة التي تعتز بها العرب ، لذا يحتل الكريم منزلة رفيعة لديهم ، وابن عبد ربه يشيد بهذا الخلق الحسن من وجهة نظره الخاصة التي يرى من خلالها أن الكريم ليس من يعطي عند السؤال ، ولكن من يعطي بغير سؤال ويظهر ذلك في قوله:

كريمٌ على العِلاّتِ جَزْلٌ عطاؤهُ   يُنيل وإنْ لم يُعتَمَدْ لنَوالِ

وما الجُودُ مَن يُعطي إذا ما سألتَهُ   ولكنَّ مَن يُعطي بغَيرِ سُؤالِ[٣]

وللجود علامة بارزة تتمثل في البذل والعطاء ،وفي هذا يقول الأمير هشام بن عبد الرحمن:

البَذْلُ -لا الجَمعُ- فِطْرةُ الكرمِ   فَلا تَرِدْ بِيَ مَا لمْ تَرِدْ شِيَمِي[٤]

---

١ الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين – ص ٦٨

٢ ديوان ابن عبد ربه – ص ٤١

٣ نفسه - ص ١٣٩

٤ الحلة السراء –١/ ٤٣

ومن الأخلاق الكريمة الصبر الذي حث الله عز وجل عليه في خطابه للرسول صلى الله عليه وسلم وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾[1] ، وسعيد بن جودي يدعو إلى الصبر لأن في الصبر راحة للحر ، خاصة في وقت الكرب والشدة وذلك في قوله :

خَليلَـيَّ صَبراً راحَـةُ الحرِّ في الصَّبرِ   وَلا شَـيءَ مِثل الصَّبـرِ في الكَربِ لِلحُـرِّ[2]

والحر دائما يتطلع للمزيد من المكارم ، وتأبى نفسه الاكتفاء بالقليل منها وفي هذا يقول ابن عبد ربه :

وَالحُـرُّ لا يكْتَفـي مِـنْ نَيْـلِ مَكْرُمَـةٍ   حَتَّى يَـرُومَ الَّتي مِـنْ دُونِهَـا الْعَـطَبُ

يَسْـعى بِـهِ أَمَـلٌ مِـنْ دُونِـهُ أَجَـلٌ   إنْ كَفَّـهُ رَهَـبٌ يَسْـتَدْعِهِ رَغَـبُ

لِـذاكَ مَـا سَـالَ مُوسَـى رَبَّـهُ أَرِنـي   أَنْظُـرْ إِلَيْـكَ وَفي تَسْـالِهِ عَجَـبُ

يَبْغـي التَّزَيُّـدَ فِيمـا نَـالَ مِـنْ كَـرَمٍ   وَهْـوَ النَّجِيُّ لَدَيْـهِ الـوَحْيُ والكُتُبُ[3]

ومن الأخلاق الكريمة التي دعا إليها الدين الإسلامي ،وأثنى عليها (الصدق) ، يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[4] .

---

١ المعارج : ٥

٢ سعيد بن جودي الأندلسي – ص٨٤

٣ ديوان ابن عبد ربه– ص ٤٦

٤ التوبة : ١١٩

وموسى بن أصبغ المرادي الزاهد المنقطع للزهد والعبادة تحيأ نفسه بالصدق ،ويحسن عيشه ، وتنعش أفكاره ويهوى التقى قلبه يقول في ذلك:

مَتى يَعْتَلي عَزْمي وَيَذْكى سَنَا لُبيّ وَأَسقي بِكَأْسِ الصّدق مِنْ مَائِه العْذب

فتحَيَا بهَا نَفْسُ أَضرَّ بهَا المُنَى وَيَحْسن لي عَيْشي وَيَعْذب لي شُربي

وَيُنْعِشُ أَفكَاري بِرُوحِ نَسِيمَهُ وَيُرضِي الرضَى رُوحِي وَيَهْوى التُّقى قلبي[١]

وفي علاقة الشعر الأندلسي بالأخلاق يقول الدكتور منجد مصطفى بهجت :"لقد عالج الشعر الأندلسي مفاهيم الأخلاق والآداب الإسلامية ، وكان صورة لما جاء به الإسلام من نظام متكامل ، يعالج مناحي شتى في الحياة ، ومن أنظمته التي أرساها بقرآنه الكريم وحديثه الشريف ،النظام الخلقي ، الذي جعله وصياً على الأنظمة الأخرى لأنه غاية في حد ذاته "[٢] .

هذا وقد احتل هذا الموضوع مكانة مرموقة من دواوين الشعراء منذ القدم ،من ذلك على سبيل المثال ما ورد عند الحطئية[٣] ،وأبو العتاهية[٤] . .والكثير من الشعراء .

---

١ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس - ص٣١٦

٢ الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي- ص ٢١٨

٣ انظر ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت -د.حنا الحتي -١٤٢٤هـ -دار الكتاب العربي-ص٥٤

٤ انظر ديوان أبو العتاهية-ص١٠ -ص١٧٧

١٠- ذكر الشيب وأثره ودلالته :

يعد ابن عبد ربه من أكثر الشعراء في هذه المرحلة صراخا في وجه الشيب ، إذ عاش عمرا طويلا قضى شطرا منه في اللهو والمجون ، فكان الشيب بداية انحطاط قوته وتحوله إلى الزهد في الدنيا[١] ،والنفور منها ومن كل ما كان يستحسنه في شبابه من متع فانية ،فقد أدرك برؤيته للشيب فناء الدنيا وقرب الرحيل فنزع إلى الشعر يبثه حزنه وحسرته على شبابه وقوته ،لذا أكثر من ذكره للمشيب وتحسره على الشباب في أقوال كثيرة .

فقد ارتبط الشيب عند ابن عبد ربه بالموت ، فبانتهاء عهد الشباب وما يصاحبه من لهو ومجون يبدأ عهد المشيب وما يصاحبه من إعلان للنهاية والرحيل ، وفي هذا يقول:

أَطلالُ لَهْوِكَ قد أَقْوتْ مَغانِيها ... لم يَبقَ من عهدِها إلا أثافيها

هذي المفارِقُ قد قامَتْ شَواهدُها ... على فَنائِكَ والدُّنيا تُزكّيها

الشّيبُ سُفْتَجَةٌ فيها مُعَنْوَنَةٌ ... لم يَبقَ للموتِ إلا أَنْ يُسحّيها[٢]

وفي الأبيات تتجلى نغمة حزينة على رحيل الشباب وما صاحبه من لهو ومرح ، لم يبقَ منه إلا آثاره الدالة عليه ،في حين قامت الشواهد على الرحيل ، بقيام الشيب ،وبلوغ المشيب ، ويقوي ذلك ويزكيه رحيل الدنيا وفناؤها .وتحمل الأبيات في طياتها روح الشعر القديم ،وذلك لما تحمله من ذكر للأطلال .

---

١ انظر ديوان ابن عبد ربه — ص٣٠

٢ نفسه — ص١٦٧

وقد ارتبط الشيب عند ابن عبد ربه أيضاً بانتهاء عهد اللهو والغناء ، وبهجة السرور والمرح ، وانطفاء شرارة الهوى ، حيث يقول :

أَطْفَتْ شَرَارَةَ لَهْوِي ... ولَوتْ بشِدَّةِ عَدْوِي

شُعَلٌ عَلَوْنَ مَفَارِقِي ... ومَضَتْ ببهْجَةِ سَرْوِي

لَما سَلكْتُ عَروضَها ... ذَهَبَ الزِّحافُ بِحَزوِي

يَا أَيُّهَا الشَّادِي صَهٍ ... ليْسَتْ بساعةِ شَدْوِ[1]

يعترف الشاعر في هذه الأبيات بأنه قضى شطرا من حياته في اللهو الذي انطفأت شرارته بما علا رأسه من شيب، مضى ببهجته وسروره ،ويدلل على حزنه وألمه على فراق شبابه في البيت الأخير بإيقاف الشادي عن الشدو وإيذانا ببدء الحزن والهم ،كما يوحي البيت الذي يسبقه بمدى مهارته في فن العروض ومصطلحاته التي من ضمنها (الزحاف)[2]، الذي بلغ من اهتمامه به أن أفرد له بابا في عقده ،وبسط القول فيه وفي أنواعه .

كما ارتبط الشيب عنده بظلم الحكام وجورهم ، رابطاً تغيرهم على الرعية بتغير لون الشعر بالشيب حيث يقول:

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٧٠

٢ الزحاف :هو "ما يلحق أي جزء كان من الأجزاء السبعة التي جعلت موازين الشعر ،من نقص ،أو زيادة ،أو تقديم حرف ،أو تأخيره،أو تسكينه،ولا يكاد يسلم منه شعر " العمدة في صناعة الشعر ونقده-لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق الدكتور/النبوي عبد الواحد شعلان- الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة – ط١ -١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م-١/٢٢٤

جـارَ المَشـيبُ علـى رأسِـي فغَيَّـرَهُ   لمَّـا رأى عندَنـا الحُكَّـامَ قَدْ جَـارُوا
كَأَنَّمـا جُـنَّ لَيْـلٌ في مَفارِقِـهِ   فَاعْتَاقَـهُ مِنْ بَيـاضِ الصُّبحِ إسْفَـارُ[1]

لم يؤثر عن المصادر جور الحكام الذي ذهب إليه ابن عبد ربه ، ولم يصرح ابن عبد ربه بهذا الجور في غير هذه الأبيات ،ومن المعروف أن ابن عبد ربه ولد سنة ٢٤٦هـ ،أي بعد تولي الأمير محمد بن عبد الرحمن مقاليد الحكم بحوالي ثماني سنوات ،ومر عليه من الحكام بعد الأمير محمد ،ابنه منذر ،ومن بعده أخوه الأمير عبد الله إلى أن توفي عام ٣٢٨هـ زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر ،والغرض من ذكرهم هنا هو الإشارة إلى أن هؤلاء الحكام لم تذكر المصادر عنهم عداء للشعب ، أو ظلماً لهم ، بل على العكس من ذلك ، فقد ذكرت المصادر أن الأمير منذر عندما تولى الحكم تقرب لأهل قرطبة بإسقاط عشور السنة عنهم ،وللجند بالعطايا ،كما عُرف عن أخيه عبد الله ميله للزهد والورع ،وسيرته محمودة ،وهو أحد الزهاد الذين تشملهم هذه الدراسة ، كما أن الوضع السياسي الذي عاشه هؤلاء الحكام يزخر بالفتن والثورات المختلفة ،فقد ورث كل منهم عن الآخر الكثير من الفتن التي نشأت على أيدي المتمردين في أنحاء متفرقة من البلاد ، وعمل كل منهم جهده في إخماد هذه الثورات[2] ،وهو أمر من شأنه إشغال الحكام عن الأحوال الداخلية للبلاد ،لأنها تؤرق مضاجعهم ،وتبدد الكثير من جهدهم . وبناء على ذلك من المحتمل أن تكون هذه الأبيات

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٩٠
٢ انظر الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري –ص٣٨ وما بعدها

منسوبة لابن عبد ربه ،أو على أقل تقدير أن يكون هناك سبب ما منعه من الإفصاح عن هذا الأمر ومراده منه. كما أن الشيب عند ابن عبد ربه هو الثوب الجديد الذي يجرد المرء من الثوب المعار المتمثل في الشباب ويظهر ذلك في قوله :

بَدا وَضَحُ المَشيبِ على عِذاري وَهَلْ ليلٌ يَكُونُ بلا نَهارِ ؟
وَأَلبَسَني النُّهى ثَوباً جَديداً وجَرَّدَني مِنَ الثَّوْبِ المُعارِ
شَرِبتُ سَوادَ ذا بِبَياضِ هذا فَبَدَّلتُ العِمامَةَ بالخِمارِ
وما بِعْتُ الهَوى بَيعاً بِشَرطٍ وَلا اسْتَثْنَيْتُ فِيْهِ بالخِيارِ[١]

يعد ابن عبد ربه أحد فقهاء الأندلس وعالمها ، وعلى عادة الفقهاء هناك فإنهم يضعون العمامة . .يقول المقري في تمسك أهل غرب الأندلس بلبس العمائم "لا تكاد ترى فيهم قاضيا ولا فقيها مشاراً إليه إلا وهو بعمامة . ." [٢]، "والعمائم أنواع من حيث المكانة الاجتماعية لحامليها ،فهناك عمائم للخلفاء ،وعمائم للعلماء ،وأخرى للفقهاء ،وعمائم لأهل الذمة ، وكانت العمائم تختلف في الألوان فمنها ما كان لونه أبيضا ومنها ما اتخذ اللون الأصفر أو الأخضر أو الأسود "[٣] ،ويبدو من الأبيات أن عمائم الفقهاء سوداء ،كما تشير الأبيات إلى بياض الخمار الذي تحتجب به النساء في الأندلس ،ويتجلى ذلك في تبديل

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٩٧
٢ نفح الطيب – ١/ ٢٢٢

٣ بحوث ندوة الأندلس الدرس والتاريخ -موضوع الندوة (ملابس الرجال في الأندلس في العصر الإسلامي)-د/سحر عبد العزيز سالم-جامعة الإسكندرية – ص٢٥٢

العمامة التي تحمل دلالة على سواد الشعر بالخمار الذي يحمل دلالة على الشيب .

ما سبق من شعر في الشيب هو لا بن عبد ربه فقد انفرد بغالبية ما ورد عن الشيب من الشعراء في هذه المرحلة، وأظهر تفوقا لا نظير له في هذا المجال وأكثر من صراخه وندبه للمشيب وتحسره على شبابه وانحطاط قوته التي كانت باعث قوي من بواعث زهده .

إلا أن ذلك لم يقتصر عليه ،فمن الشعراء من ذكر الشيب وإن كان مُقلاً في ذلك ،ويتمثل هذا النموذج في الغزال الذي يرى في المشيب زهرة الإفهام والألباب ، يقول في ذلك:

بَكَرتْ تُحَسِّنُ لي سَوادَ خِضَابي ... فكأنَّ ذاكَ أعادني لشَبابِي

ما الشَّيبُ عندِي والخضابُ لواصفٍ ... إلاّ كَشَمسٍ جُلِّلتْ بضَبابِ

تَخْفَى قليلاً ثم يَقْشَعُها الصَّبا ... فيصيرُ ما سُتِرتْ بهِ لذَهابِ

لا تُنكري وضَحَ المَشيبِ فإنما ... هو زَهْرَةُ الأَفْهامِ والأَلْبابِ

فلديَّ ما تَهوَيْنَ مِنْ شَأنِ الصِّبا ... وَطُلاوةِ الأَخْلاقِ والآدابِ[1]

كما ورد في الشيب قول الأمير المطرف ابن الأمير محمد وكان من علماء الغناء وأهل الصبوة ،إلا أنه رجع عن صبوته في آخر عمره[2] حيث أنشد :

١ ديوان الغزال – ص ٥٥ –وقد ورد البيت الأول والثاني في العقد الفريد ضمن أبيات منسوبة لمجهول –انظر العقد الفريد- ٥٣/١ وترتبط هذه الأبيات بمناسبة قيلت فيها ، ذكرها ابن دحية في كتابه وهي أن الغزال عندما مشى إلى بلاد المجوس وهو في الخمسين من عمره وقد علاه الشيب

سألته زوجة الملك عن عمره فأجابها مداعبا عشرين سنة فتعجبت من ذلك فقالت للترجمان من عشرين سنة ويكون به هذا الشيب ؟ فأنشدها بعض الأبيات ضحكت منها وأمرته بالخضاب ، ففعل ذلك ، وغدا عليها يوماً ثانيا. وقد اختضب؛ فمدحت خضابه وحسنته عنده . انظر المطرب من أشعار أهل المغرب –ص١٤٤–ص١٤٦

٢ ذكر ابن الأبار عنه نقلا عن ابن حيان أنه "توفي معتبطا في حياة أبيه وهو ابن أربع وعشرين" –الحلة السيراء–١٢٨/١– إلا أن هذه الأبيات التي بين أيدينا تدل على أنه عاش حتى بلغ المشيب ورجع عن صبوته.

إِنَّ شَيْبًا وَصَبْوَةً لَمُحَالُ ... قَدْ أَنَى أَنْ يَكُونَ عَنْهَا زَوَالُ

رَكِبَ الشَّيْبُ لِمَّتِي خَلَلَ الشَّعْـ ... ـرِ لِوَقْتٍ حَالَتْ بِهِ الأَحْوَالُ

فَدَعِ النَّفْسَ عَنْ مُزَاحٍ وَلَهْوٍ ... تِلْكَ حَالٌ مَضَتْ وَجَاءَتْ حَالُ[1]

يؤكد الشاعر على استحالة الجمع بين الشيب والصبوة ،ذلك لما يصاحب الشيب من إعلانا للرحيل ،وزهد في متاع الحياة .

ومنهم أيضا من ذكر الشيب ودلالته ، وهو موسى بن محمد بن حدير –المعروف بالزاهد الذي اعتبر الشيب شر ضيفٍ حل به ينقل له خبر اقتراب الموت منه ، وهذا ما جعله يبكي ويتحسر على ما مضى من شبابه ، ويظهر هذا في قوله :

فَيَا شَرَّ ضَيْفٍ حَلَّ بِي، وَحلولُهُ ... يُخَبِّرُنِي أَنَّ المَمَاتَ قَرِيبُ

وأَنَّ جَدِيدِي كُلَّ يومٍ إلى بِلًى ... وأَنِّي مِنْ ثوبِ الشَّبَابِ سَلِيْبُ

فَمَا طِيبُ عَيشِ المرءِ إلا شَبابُهُ ... ولَيْسِ إِذْا مَا بَانَ عَنهُ يَطِيبُ

سَأَقْرِيكَ يَا ضَيْفَ المشَيّبِ قِرَى القِلَى ... فَمَا لكَ عِنْدِي في سِوَاهُ نَصِيبُ

وَأَبْكِي عَلى مَا قَدْ مَضَى مِنْ شَبِيْبَتِي ... بُكَاءَ مُحِبٍّ قَدْ جَفَاهُ حَبِيْبُ

مَضَى مُسْلَماً –لهفي عليه !–مَدْى المَدَى ... فَلَيْسَ إِلى يَوْمِ التَنَادِ يؤوبُ[2]

١ الحلة السيراء – ١/ ١٣٠

٢ نفسه –١/ ٢٣٦ – وقصة الأبيات في الحلة ١/ ٢٣٥

ومن هنا يستبين لي أن موضوع الشيب من المواضيع الرئيسية التي أكثر منها الشعراء ، ولم يطرقه في الأندلس ويكثر من ذكره في هذه المرحلة إلا ابن عبد ربه الذي يمثل شخصية الشاعر بالدرجة الأولى ،في حين نجد الكثير من الشخصيات الفقهية والدينية التي تطرقت لشعر الزهد لم يلقَ هذا الموضوع اهتماما كافيا منهم ،وهذا يرجعنا إلى تقسيم الشعراء الذي تطرقنا له في المبحث الأول من هذا الفصل ، إذ كان منهم من عاش في بيئة دينيه هيئته لحياة الزهد والعبادة وهؤلاء بالطبع روضوا أنفسهم على تقبل مجريات الحياة وما يصاحبها من تغيير ومن ضمنها (الشيب) ،وابن عبد ربه لم يذكر الشيب إلا بعد أن علا مفارقه ، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن الشيب كان في نظره مرحلة انتقاليه انتقل فيها من حياة اللهو التي قضاها في شبابه إلى حياة الزهد والورع التي ختم بها حياته ، لذا يمكن أن نعد الشيب باعثاً من بواعث زهده وتوبته .

ولا يعد الشيب والصراخ في وجهه والتذمر منه من الموضوعات التي انفرد بها شعراء الأندلس ، بل أن نصيب الأسد منه أختص به المشارقة اللذين بلغوا به شاوًا عظيمًا منذ أقدم عصورهم، والمتتبع لدواوينهم يرى مقدار اهتمامهم بهذا الموضوع ، من أمثال البحتري [١] ، وأبي فراس الحمداني [٢] ، وأبي العتاهية [٣] ،وغيرهم .

١ انظر الأبيات في ديوان البحتري –اعتنى به عبد الرحمن أفندي البرقوقي – ط١-مطبعة هندية بالموسكي بمصر – ١٣٢٩هـ/١٩١١م- ١/ ١٤

٢ انظر الأبيات في ديوان أبي فراس – رواية أبي عبد الله الحسين بن خالوية–دار صادر للطباعة والنشر–دار بيروت للطباعة والنشـــر– بيروت ١٣٨٠هـــ/١٩٦١م – ص ١٨٧
٣ ديوان أبي العتاهية – ص ٢٤١

والحقيقة أن الشيب الدال على تقدم العمر والشيخوخة ما هو إلا لون من ألوان التغيير الذي يصيب الحياة كلها ،وامتداد لإحساس الإنسان بتغير الدهر وتبدله [1] ،وتقلب الدنيا وغرورها ،وإيذان بالرحيل واقترابه ، لذا فأغلب الشعراء سواء في الأندلس أو المشرق يقرن الشيب بالموت ،فالشيب رادع عن الملذات ،ناع لابن آدم لأنه رسول الردى ،ويجد فيه الأندلسيون نذير الموت ،وناهي عن الصبا ،ودليل العقل والحكمة .

١ انظر ما ذكره الدكتور محمد مجيد السعيد نقلا عن الدكتور عبد الحكيم حسان عن الشيخوخة والكبر– الشعر في عهـــد المـــرابطين والموحدين بالأندلس–د/محمد مجيد السعيد–الدار العربية للموسوعات –بيروت –لبنان – ص٢٦٦ –ص٢٦٧

١١– ذم الدهر :

يظهر بعض الزهاد في الأندلس في هذه المرحلة تبرماً من الدهر نتج عن خبرة طويلة في الحياة ، وصراع مستمر مع الأحداث ، وما صاحبها من حزن وفراق أسقطه البعض منهم على الدهر فأظهر تبرمه من الزمان الذي وجد الغزال بعد خبرة طويلة وعمر طويل أنه لا يدوم على حال فمرة حلو وأحيانا مقر ، يقول في ذلك:

إنِّـي حَلَبتُ الــدَّهرَ أَصنافَ الــدِّرَرْ ... فَمَـــرَّةً حلـــوُ وَأَحيانـــاً مَقِـــرْ

وَعَلقَمـــاً حينـــاً وَأَحيانـــاً صَـــبِرْ ... وَجُـلُّ مـا يَسـقيكَهُ الـدَهرُ كَـدِرْ

فَلَــم أَجِــدْ شَــيئاً مِــنَ الفَقــرِ أَمَــرْ ... أَلا تَــرى أَكثَــرْ مَــن فيهــا يَفِــرْ

مَخافَـــــةِ الفَقـــــرِ إِلى نــــــارِ سَــــــقَرْ ؟[1]

فالشاعر يتذمر من الدهر ،الذي تأرجح بين حلو قليل ،ومر كثير ،ولشدة كره الشاعر للدهر يرى أن كل ما يأتي به كدر ،إلا أنه يتفاوت في ذلك ،إذ أن أمرَّ ما فيه الفقر الذي يفر الناس منه إلى نار سقر ،وهنا يظهر تعريض الشاعر بما يرتكب في زمانه من مخالفات شرعية تتمثل في الجري وراء المكاسب غير المشروعة ،وبطرق يرفضها الدين وينأى عنها .

وللدهر خطوب وأحداث تمر على الإنسان ، وتخلف الأحزان ، ومن ظن غير ذلك فهو مغرور ، يقول الغزال في ذلك :

١ ديوان الغزال – ص ٦٧

مَنْ ظَنَّ أَنَّ الدَهْرَ لَيس يُصِيبُهُ ... بالحادِثاتِ فَإِنَّهُ مَغْرُورُ

فَالْقَ الزَّمانَ مُهوِّناً لِخُطوبِهِ ... وَانْجَرَّ حَيثُ يَجُرُّكَ المَقْدورُ

وَإِذا تَقَلَّبَتِ الأُمورُ وَلَم تَدُمْ ... فَسَواءٌ المَحزونُ وَالمَسْرورُ[1]

وبمرور الدهر على الإنسان وتعاقب الأزمان ، قد يتجرع الإنسان من الغصص ما يكدر صفو حياته ،ولكن تظل الغايات النبيلة هي التي ترد الأرواح في الأبدان يقول ابن عبد ربه في ذم الدهر :

يَا دهْرُ مالِي أَصَفي ... وأَنتَ غَيرُ مُواتِ ؟

جَرَّعْتَني غُصَصاً بِهَا ... كَدَّرْتَ صَفْوَ حَياتي

أَينَ الَّذين تَسَابَقُوا ... في المَجدِ للغايَاتِ ؟

قَومٌ بِهِمْ رُوحُ الحَيا ... ةِ تُرَدُّ في الأَمْواتِ

وإِذا هُمُو ذكَرُوا الإِسَا ... ءَةَ أَكْثَرُوا الحَسَناتِ[2]

وقد أكثر شعراء الزهد من ذكر الدهر ، وإسقاط حزنهم وهمومهم عليه ، وإظهار تبرمهم وسخطهم منه ، ولم يكن الشرق وشعراؤه أقل حظوة في ذلك فقد استحوذ الدهر والتنديد به على اهتمام الكثير منهم ، تدل على ذلك دواوينهم التي اكتظت بذكره ،من ذلك

---

١ ديوان الغزال – ص ٧٧

٢ ديوان ابن عبد ربه – ص ٥٥

على سبيل المثال ما ورد عند امرؤ القيس[1] ،وابن المعتز [2]، وأبو العتاهية[3]، وغيرهم من الشعراء .

ومن هنا أجد أن الدهر تعرض لإسقاطات الشعراء ، وارتبط في أغلب أبياتهم بالذم لتقلب أحواله بين فرح وترح ، ولما يصاحبه من خطوب تمر على الإنسان في كل زمان ومكان ،إلا أن الخير فيه في استغلال أيامه في طلب النجاة ، والرضا بما قدره الله فيه من أمور ينقاد إليها الإنسان طائعاً أو مكرهاً .

١انظر ديوان امرئ القيس–دار صادر –بيروت – ط١–١٣٧٧هـ/١٩٥٧م–١٤١٨هـ/١٩٩٨م– ص٩٩

٢ انظر ديوان ابن المعتز – ص ٢٩٠

٣ انظر ديوان أبي العتاهية – ص ١٢٥

١٢- في الرزق والغنى :

يعد الرزق من الموضوعات الشعرية التي تناولها الشعر الأندلسي في هذه المرحلة ، وإن كان ذلك في لمحات بسيطة عمد إليها الشعراء في مناسبات شتى ، إلا أن ذلك أظهر اختلاف رؤيتهم لهذه المسألة . فقد ارتبطت مسألة الرزق عند الشعراء بأمرين ، وذلك بناء على ما وصل من أبياتٍ بهذا الشأن وهما :

١ - ارتباط الرزق بالقضاء والقدر ، فالإنسان لا يستطيع أن يحصل على شيء مهما بذل في سبيله من مشقة وعناء إذا لم يقدره الله له .

٢ - ضرورة التعب والمشقة والكد والعناء من سفر وترحال بحثا عن الرزق ،الذي ليس إليه سبيل إلا هذا الطريق ، واعتبار ذلك مقياسًا للتفريق بين الرزق الحلال والحرام .

ويدل على ذلك ما ورد عند الغزال وابن عبد ربه حيث يقرن كلُ منهما الرزق بأحد هذين الأمرين ، فالغزال يقرنه بالتعب والجهد المبذول للحصول عليه ، أما ابن عبد ربه فيقرن الرزق بقضاء الله وقدره . وبطبيعة الحال رؤية الغزال لضرورة التعب وبذل الجهد للحصول على الرزق جعله يذهب إلى أبعد من ذلك حيث فرق بين الرزق الحلال والحرام ، في كون الحلال لا يأتي إلا بعد تعب ومشقة ،وسفر وعناء ، في حين أن الحرام يأتي بسهولة ودون عناء ،وهو بذلك "يلمز أساليب الكسب غير المشروعة " (١) .

١ الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة– ص٧٦

ويظهر ذلك في قوله :

طالـــبُ الــــرّزقِ الحَــــلالِ لا يَقِــــرْ
نَهــــارُهُ ولَيلَـــــهُ عَلـــــى سَـــــفَرْ
في الحَـــــرِّ والبَـــــردِ وأَوقــــاتِ المَطَـــرْ
وَمالُــــــهُ في ذاكَ نَـــــزْرٌ مُحتَقَـــــرْ
إنَّ الحَـــــلالَ وَحـــــدَهُ لا يَختَمِـــــرْ !
أَيـــنَ تَـــرى مـــالاً حَــلالاً قَــد ثَمَـــرْ ؟
مـــا إن رَأَينـــا صـــافِياً مِنــهُ كَثُـــرْ ![1]

فمسألة الرزق عند الغزال محسومة تتمثل في كون الرزق الحلال لا يأتي إلا بعد جهد وعناء وسفر وترحال . ويدعو الشاعر من خلال هذه الأبيات إلى الزهد والقناعة في الحياة والاكتفاء بالرزق الحلال .

ونستطيع أن نفهم ونقدر موقفه هذا من كل مستغل وجامع للمال الحرام لأنه كان ينقم سوء استعمال المنصب[2] ، ويتحدث بلسان الجمهور ومن حبست ألسنتهم عن الإدلاء بآرائهم ، لذا فهو يتعجب من الفقهاء الأغنياء من أين حصلوا على المال على الرغم من أنهم

١ ديوان الغزال – ص ٦٦–ص ٦٧
٢ نفسه –ص ١٩

لم يقطعوا في سبيله البراري والبحار ولم يتحملوا المشاق ، وهذا ما جعله يؤكد أن لهم طريقا آخر ومضربا لم يعرفه أحد يقول الغزال في ذلك :

لَيتَ شِعري مِن أَينَ يَستَغنونا ؟ لَستَ تَلقى الفَقيهَ إِلّا غَنِيّاً
زْقِ وَالقَومُ ها هُنا قاعِدونا نَقطَعُ البَرَّ وَالبِحارَ طِلابَ الرِ
لَم يُصِبْ قَصدَ وَجْهِهِ الرّاكِبونا إِنَّ لِلْقَومِ مَضْرَباً غابَ عَنّا[1]

ومع ما في الأبيات من تعريض بالفقهاء لأن الغزال في بداية ظهوره كان يحمل على الفقهاء في عنف حتى سخطوا عليه ورموه بالزندقة لصراحته وحرية تفكيره[2]، إلا أنها تحمل معنى ضرورة العمل لطلب الرزق ،دون تكاسل أو تقاعس ،وليس هذا حال الغزال فحسب بل إن المجتمع الأندلسي ككل عرف بحب العمل ،حتى أنهم "إذا رأوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه ،فضلا عن أن يتصدقوا عليه "[3]، كما أن الجاهل" الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ،ويربأ بنفسه أن يرى فارغا عالة على الناس "[4] .

ويعد هذا السبب من ضمن أسباب رخاء المجتمع الأندلسي ، وسعة رزقهم المرتبطة بكثرة العاملين الذين احترفوا الكثير من الصناعات والمهن المختلفة .

---

١ ديوان الغزال – ص ١٠٩

٢ انظر بحوث ندوة الأندلس الدرس والتاريخ – ص٤٢-٤٣

٣ نفح الطيب –١/٢٢٠

٤ نفسه

وفي الغنى وجمع المال يرى الغزال أن سيادة العالم لأصحاب الغنى والثروة ، يقول في ذلك:

إِذا كُنْتَ ذا ثَروَةٍ مِن غِنىً … فَأَنتَ المُسَوَّدُ في العالَمِ
وَحَسبُكَ مِن نَسَبٍ صورَةٌ … تُخَبِّرُ أَنَّكَ مِن آدَمِ[١]

وألمس في الأبيات بعض السخرية من الأغنياء ،فالغزال وقف من الدنيا موقف الزاهد "غير المكترث بالمال غير المحتفل به "[٢] . وهو نفسه يؤكد ذلك باعترافه بعدم جمعه للمال أو بحثه عن الكسب ، ومن يعرفه لا يلتمس من ورائه ربحا أو مكسبا إذ إن من إحسان الله إليه أن يبقي له رأس ماله حيث يقول في قصيدة طويلة بعث بها من السجن إلى الأمير عبد الرحمن يشكو فيها :

إِن تُرِدِ المالَ فَإِنّي اِمرُؤٌ … لَم أَجمَعِ المالَ وَلَم أَكسَبِ
إِذا أَخَذتَ الحَقَّ مِنّي فَلا … تَلتَمِسِ الرِبحَ وَلا تَرغَبِ
قَد أَحسَنَ اللَهُ إِلَينا مَعاً … أَن كانَ رَأسُ المالِ لَم يَذهَبِ[٣]

ولنظمه هذه الأبيات سببٌ ذُكره ابن دحية ، وهو أن أبا المطرف عبد الرحمن وكَّله بقبض الأعشار ببلاط مروان واختزانها في الأهراء ،وبعد ارتفاع الأسعار بالقحط باع الغزال كل ما في الأهراء فغضب الأمير وأمر بأن يأخذوا منه المال إلا أنه امتنع وأراد أن يشتري طعاما بدلا عن الطعام الذي باعه لأن الأسعار قد رخصت فأمر الأمير بسجنه[٤]

---

١ ديوان الغزال – ص ١٠٨
٢ نفسه – ص١٩
٣ نفسه– ص ٥٧
٤ انظر المطرب من أشعار أهل المغرب – ص ١٣٦

فالغزال يحتقر جمع المال ،ويدعو إلى التنفير منه ، لذا ينظر إلى نصر الخصي نظرة ذم لما يرى منه من التصانع للدور ، وإقباله على الدنيا بجمع الأموال التي يشقى بها ويحفر بها قبره ، وذلك في قوله:

أَغْنى أَبا الفَتْحِ ما قَد كانَ يَأمَلُهُ مِنَ التَّصانُعِ وَالتَّشريفِ لِلدُّورِ
وَكُلُّ عَرْضٍ وَقَرضٍ كانَ يَجمَعُهُ حَفيرَةٌ حُفِرَت بَينَ المَقابِرِ
لَم يَأْلُها القَومُ تَضْييقاً وَلا وَقَعَتْ فيها الكَرازينُ إِلّا بعدَ تَقْديرِ
فَصارَ فيها كَأَشْقى العالَمينَ وَإِن لَفّوهُ بالنَّفْحِ في مِسْكٍ وَكافورِ
ما العَرْفُ لَو أَخْبَرونا بَعدَ ثالِثَةٍ إِلّا كَعَرْفٍ سَواهُ في المَناخيرِ
وَكانَ أَزْمَعَ شَيئاً لَم تَكُنْ سَبَقَتْ بِهِ مِنَ اللَهِ أَحكامُ المَقاديرِ
إِذا أَرادَ الإِلَهُ الشَيءَ كَوَّنَهُ فَلَن يَضُرَّكَ فيهِ سوءُ تَدبيرِ[1]

يعمل الغزال من خلال هذه الأبيات على ترسيخ مبدأ الإيمان بالقضاء والقدر ، وكعادة الغزال يستغل الأحداث الواقعية ويصورها في شعره معتمدا على القص حينا ،وعلى التحليل حينا آخر ،وهذا ما يتجلى في هذه الأبيات حيث استغل موت نصر الخصي ومكانته عند الخليفة في التزهيد في الدنيا والتنفير منها ومن التمسك بملذاتها .

١ ديوان الغزال – ص ٨٣– ص٨٤

هذا بالنسبة إلى الغزال وما ورد لديه بشأن الرزق وما صاحبه من غنى ،وجمع للأموال، في حين أن مسألة الرزق عند ابن عبد ربه مرتبطة بالقضاء والقدر ،فلا أحد يُعطى رزق غيره مهما بذل في سبيله من مشقة وعناء ، يقول في ذلك :

لَسْــــتُ بِقَـــاضٍ أَمَلِــــى وَلا بِعَـــــادٍ أَجَلِــــــي
وَلا بِمَغْلُـــوبٍ عَلَـــى الـــرزْ قِ الَـــذْي قُـــدِّرَ لَـــي
وَلا بِمُعطًـــــىً رِزْقَ غَيْــــــ ــرِي بِالشَّـــقَا وَالعَمَـــــلِ
فَلَيْـــتَ شِـــعْرِي مَـــا الَــذْي أَدْخَلَنِـــي فِـــي شُـــغْلِي ؟[1]

ابن عبد ربه مع ما تميز به من ممحصات لشعره السابق ،سلك لوناً آخر من الشعر ينظم فيه أقوال الزهاد شعراً ،ومن ذلك هذه الأبيات التي ذكرها ابن عبد ربه في عقده في باب القناعة ،لما تحمله من قناعة الشاعر بما قدره الله له من رزق .

ولأنه ينظر لمسألة توزيع الرزق نظره قدرية ، فهو يرى أن الرزق لا يخضع لعطاء الناس، ولا لمقاييس العقل والذكاء والحكمة يدل على ذلك أن الله يرزق المعتوه- الذي لا يملك مقومات السعي لجلب الرزق — ويحرم العاقل ، ويظهر هذا المعنى في قوله :

رِزْقٌ من الله أرضاهـم وأسخطَـني واللّـــهُ للأنْـــوك المَعْتـــوه رَزَّاقُ
يـا قـابضَ الكف لا زالت مُقبَّضَـة فمـــا أناملُهـــا للنـــاس أرزاقُ[2]

١ ديوان ابن عبد ربه — ص ١٤٣
٢ نفسه — ص ١٢٠

إلا أنه أحيانا ينظر إلى الغنى –وهو نتاج سعة الرزق- نظرة مختلفة يدخلها بعض التشاؤم من هذه الحياة التي لا يغنى فيها إلا الليئم ،وذلك في قوله:

أرى كلّ فَدمٍ قَد تَبحبَحَ في الغِنى　　　وذو الظَّرف لا تلْقاهُ غيرَ عَديمِ[1]

وابن عبد ربه أثرى بعد فقر ،وكان أول من لمح لذلك الحميدي في قوله :"كان لأبي عمر بالعلم جلالة، وبالأدب رياسة، وشهرة، مع ديانته، وصيانته؛ واتفقت له أيام وولايات للعلم فيها نفاق؛ فساد بعد خمول، وأثرى بعد فقر"[2] . وأشار ابن عبد ربه لفقره في بعض أبياته حيث يقول:

فَرَرْتُ مِنَ الفَقْرِ الذي هُو مُدْرِكي　　　إلى بُخْلِ مَحْظورِ النّوال مَنُوعِ

فَأَعْقَبَني الحِرمانُ غِبَّ مَطامِعي　　　كذلكَ مَن تَلْقاهُ غَيرَ قَنوعِ[3]

ومسألة عمله مسأله مجهولة لم يبلغنا عنها شيء [4]،إلا أن أمر غناه بعد فقر يدل على أنه سلك طريقا لبلوغ هذا الثراء ،الذي ربما بلغه بانكبابه على العلم وتثقيف نفسه بثقافات مختلفة مما رفع قدره عند الحكام الذين ينظرون للعلماء نظرة إجلال وقدر، الأمر الذي جعلهم يقدمون له (جعلا ثابتاً) [5]أغناه عن العمل .

١ ديوان ابن عبد ربه –ص١٥٤

٢ جذوة المقتبس – ص ٩٤

٣ ديوان ابن عبد ربه – ص١١٦

٤ نفسه –ص ١٢

٥ اقتباس من ديوان ابن عبد ربه –ص١٣

وفي مسألة ارتباط الرزق بالقدر يرى الفقيه عبد الملك بن حبيب أن صلاح الأمور كلها بيد الله عز وجل الذي لا يقف أمام قدرته شيء ،ولا يحول دون رزقه حائل ، فالرزق من الله عز وجل ،ولا علاقة له بشرف المهنة ورفعة صاحبها . ويظهر ذلك في قوله مستاء مما يأخذه زرياب المغني من مكافآت مالية تفوق ما يأخذه عالم مثله على الرغم من شرف صنعته ،ورفعتها عن صنعة المغني :

صَلَاحُ أَمْرِي وَالَّذِي أَبْتَغِي ... سَهْلٌ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي قُدْرَتِهْ
أَلْفٌ مِنْ الحُمْرِ وَأَقْلِلْ بِهَا ... لِعَالِمٍ أَوفَى عَلَى بُغْيَتِهْ
زِرْيَابُ قَدْ يَأْخُذُهَا دَفْعَةً ... وَصِنْعَتِي أَشْرَفُ مِنْ صَنْعَتِهْ[1]

فعبد الملك بن حبيب الفقيه المعروف تعد صنعته من الشرف والرفعة ما يفوق صنعة زرياب المغني بكثير ، ومع ذلك يلقى زرياب من الحظوة والرزق ما لا يلقاه العالم الفقيه[2] . ويبدو من تعريض عبد الملك بزرياب كراهيته للغناء ،وتحريمه ،وذلك في قوله (وصنعتي أشرف من صنعته) ،حيث رأى الشرف والرفعة في العلم الديني .

---

١ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس – ص ٢٦٥ – وفي نفح الطيب –٧/٢ وردت هذه الأبيات مع بعض التغيير :

قد طاحَ أمري والذي أبْتَغي ... هَينٌ على الرحمن في قُدْرَتِهْ
ألفٌ من الحُمْرِ وأَقْلِلْ بها ... لعالمٍ أرْبى على بُغْيَتِهْ
زِرْياب قَد أُعْطِيَها جملةً ... وحِرْفَتي أشرفُ من حِرْفَتِهْ

٢ انظر ما ذكره الدكتور سعد إسماعيل شلبي عن سبب هذه الحظوة التي لقيها زرياب عند الأمير عبد الرحمن الأوسط–الأصول الفنية للشعر الأندلسي –ص١١٩–ص١٢٠

يقول الدكتور خليل الكبيسي "فلم كان ابن حبيب يحرم الغناء ،لما فاضل بين صنعته فقيها وصنعة زرياب مغنياً" [1] .

وقد حظيت فكرة الرزق باهتمام واسع من شعراء المشرق فاق نظيره في الأندلس ، فقد تطرق إليه الشعراء في أكثر من موضع وأغلبها تدور حول ارتباط الرزق بالقدر ،ومن ذلك ما ورد عند أبن الرومي [2] ،وأبو العتاهية [3] ،وغيرهما .

ومن هنا يستقيم لي القول بأن رزق ابن آدم قد حسم أمره منذ كان في بطن أمه حيث قدره الله له يؤكد ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم :(إن الله عز وجل وكّل بالرحم ملكا يقول يا رب نطفة يا رب علقة يا رب مضغة فإذا أراد أن يقضي خلقه قال أذكر أم أنثى شقي أم سعيد فما الرزق والأجل فيكتب في بطن أمه) [4] ، إلا أن ذلك لا يعني التواكل والتقاعس عن العمل إذ لا بد من بذل الجهد والمشقة مع التوكل على الله عز وجل للحصول على الرزق وهذا يجمع كلا الأمرين التي ذهب لها الشعراء في هذه المسألة ،ويحقق التوازن بينهما .

---

١ دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالأندلس-ص٢١٨

٢ انظر ديوان ابن الرومي – ص ٣٣

٣ انظر ديوان أبي العتاهية – ص ١٣٠ –ص٢٠١

٤ صحيح الإمام البخاري – كتاب الحيض –باب١٧ (مخلقة وغير مخلقة)–رقم الحديث ٣١٨-١/ ٧٠-٧١

١٣- محاور أخرى :

رأينا فيما سبق أن الشعر الأندلسي طرق عدة موضوعات تنوعت بين عدة محاور ،تناولت نظرة الزهاد للحياة الدنيا وموقفهم منها ،وإقبالهم على الحياة الآخرة بالتجرد من المعاصي والذنوب والإقبال على الله عز وجل بالتوبة والإنابة ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تناول الزهاد في بعض الأبيات محاور أخرى تنوعت بين الفخر بالعلم ، والتذمر من تقدم العمر وما يخلفه من آثار لا يعقبها سوى الرحيل عن هذه الحياة .

ومن هذه المحاور التي طرقها الزهاد الفخر والاعتزاز بالعلم خاصة العلم الفقهي ،حيث "كان علم الفقه من أول ما اشتغل به الأندلسيون ، وللفقيه عندهم والقاضي منزلة لا تدانيها منزلة"[١] ،وقد بلغ من هذه المنزلة ما ذكره التلمساني في كتابه :" وسمة الفقيه عندهم جليلة، حتى إن الملثمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه"[٢] .

ومما ورد في الفخر بالعلم الفقهي أبيات ذكرها الفقيه عبد الملك بن حبيب يفخر بما يحوي صدره من السنن على الرغم من قلة جسمه فقال عندما ازدراه من رآه في مجلس بعض الأكابر في المشرق :

لا تَنْظُـــرَنَّ إلى جِســـمي وقِلّتِـــهِ وانْظُـرْ لصَدري ومَا يحوي مِنْ السننِ

---

١ الإسلام في اسبانيا–ص ٤٠

٢ نفح الطيب – ١/ ٢٢١

فَـرُبَّ ذِي مَنْظَـرٍ مِـنْ غَـيرِ مَعْرِفَـةٍ وربَّ مَـنْ تَزدرِيـه العـينُ ذو فِطَـنِ

ورُبَّ لؤلـؤةٍ فِـي عـينِ مَزْبَلَـةٍ لمْ يُلْـقَ بـالُ لهـا إلاّ إلى زمَـنِ[1]

"وواضح أنه يعتز بعلمه بطريق مباشر متخذاً الدليل من الحقيقة الشائعة :المرء بعلمه ومخبره لا بجسمه ومنظره ،ويضرب المثل باللؤلؤة في المزبلة ،وهو تشبيه ينأى عنه الأديب "[2] .

ومن هذه المحاور أيضا الشكوى من الكبر وآثاره ، يقول الغزال يصف آثار الكبر عليه التي فيها عبرة لكل حلوم معتبر :

تَسـألُني عَـن حـالَتِي أُمُّ عُمَـرْ وَهـيَ تَـرى مـا حَـلَّ بـي مِـنَ الغِيَـرْ

وَمـا الَّـذي تَسـأَلُ عَنـهُ مِـن خَبَـرْ وَقَـد كَفَاهـا الكَشـفُ عَن ذاكَ النَظَـرْ

وَمـا تَكـونُ حـالَتِي مَـعَ الكِبَـرْ اِربَـدَّ مِنّـي الوَجـهُ وَابـيَضَّ الشَّـعَرْ

وَصـارَ رَأسـي شُـهرَةً مِـنَ الشُّـهَرْ وَيَبِسَـت نَضـرَةُ وَجهـي وَاقشَـعَرْ

وَنَقَـصَ السَـمعُ بِنُقصـانِ البَصَـرْ وَصِـرتُ لا أَنهَـضُ إِلّـا بَعـدَ شَـرْ

لَـو ضـامَني مَـنْ ضـامَني لَـم أَنتَصِـرْ فَـانظُر إِلَـيَّ وَاعتَبِـرْ ثُـمَّ اعتَبِـرْ

فَـإِنَّ لِلحَلـيمِ فِـيَّ مُعتَبَـرْ[3]

---

١ نفح الطيب – ٨/٢

٢ الأصول الفنية للشعر الأندلسي– ص١١٩

٣ ديوان الغزال – ص ٦٥

فالغزال يقدم في أبياته دعوة لأخذ العظة والعبرة من التغيير الذي طال كل شيء في هذه الحياة ،ولم يكن بمعزل عن هذا التغيير الذي بدل خلقته ،واصفاً ما علاه من مظاهر هذا التغير ،دلالة على انحطاط قدرته وضعف قوته . وفي تقدم العمر وآثاره على الإنسان يقول الغزال في قصيدة طويلة ذكر منها ابن عذارى قوله :

قَالَ الأَمِيرُ مُدَاعِباً بِمَقَالِهِ ... جَاءَ الغَزَالُ بِحُسْنِهِ وَجَمَالِهِ

أَيْنَ الجَمَالُ مِنِ امْرِئٍ أَرْبَى عَلَى ... مُتَعَدِّدِ التِّسْعِينَ مِنْ أَحْوالِهِ

وَهَلِ الجَمَالُ لَهُ الجَمَالُ مِنِ امْرِئٍ ... أَلْقَاهُ رَيْبُ الدَّهْرِ فِي أَغْلالِهِ

وَأَعَادَهُ مِنْ بَعْدِ جِدَّتِهِ بِلىً ... وَأَحَالَ رَوْنَقَ حَالِهِ عَنْ حالِهِ[1]

عُرف الغزال بجماله في شبابه ووسامته في شيبته ، ولهذا السبب لُقب بالغزال ،والشاعر في أبياته هذه يتحسر على هذا الجمال الذي تغير ،وتبدل بعد تقدم عمره .

ومع ما تحمله هذه الأبيات من طرافة ،تحمل أيضاً القمع والتوبيخ للهو والمجون خاصة لمن تقدم عمره ،وبلغ المشيب .

وفي الإطار ذاته من التذمر من تقدم العمر وآثاره على الإنسان ، يقول ابن عبد ربه باكياً من طول عمره ، وما علاه من مظاهر هذا الكبر من ضعف ونحوه ، وذلك في آخر شعر قاله وقد أبلاه الزمان لامتداد عمره :

---

١ ديوان الغزال –ص٩٨–ص٩٩ –وانظر سبب هذه الأبيات في البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب – ص٩٢

كِلانــي لِمَــا بِــي عَــاذِلِيّ كَفَــاني	طَويــتُ زَمَــانِي بُرهَــةً وطَــوِانِي
بَليــتُ وأَبلــتْني الليــالي بكرِّهــا	وصَــرفانِ للأيــامِ مُعْتَــورانِ
ومَــا لِيَ لا أبكــى لســبعينَ حجَّــةً	وعشــرٍ أَتــتْ مِــن بَعــدِها سَــنَتَانِ ؟
فــلا تَسْــألاني عَــنْ تَبَــاريحِ عِلَّــتي	ودونَكُمــا مِنّــي الَّــذي تَرَيــانِ
وإنّــي بِحَمْــدِ اللَّــهِ راجٍ لفضــلِهِ	ولِي مــن صــمانِ اللَّــه خَــيرُ ضَــمانِ
ولســتُ أُبــالي عــن تبــاريحِ علَّــتي	إذا كــانَ عقلــي باقيــاً ولســاني
هُمــا مَــا هُمــا فِــي كُلِّ حــالٍ تُلــمُّ بــي	فَــذَا صَــارمي فِيْهَــا وَذاكَ سِنــانِي[1]

وفي هذه الأبيات دلالة على عمر ابن عبد ربه حين وفاته ، حيث أجمعت المصادر على أنها آخر أبيات قالها ،وبعض المصادر تؤكد أنه قالها قبل موته بأحد عشر يوما[2] . كما تدل على قوة الشاعر وعدم بأسه على الرغم من إصابته بالفالج في مغرب حياته ،إلا أنه ظل "ممتعا بعقله فلم يعجز ،وبلسانه فلم يتلعثم ،أو يصب بالحصر . . "[3] .

لقد ساعد الشاعرين على التحول إلى حياة الزهد والعبادة ،امتدادُ عمرهما في هذه الحياة ،وصراعهما المستمر مع أحداثها ،وإدراكهما لكنهها وحقيقتها . يقول الدكتور سعد

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٦٣–ص١٦٤

٢ انظر جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس–ص٩٦ – المطرب من أشعار أهل المغرب–ص ١٥٥–ص١٥٦ مع تغيير (بكرها) بـ(وكرها) –نفح الطيب –٧/٥٣

٣ الأصول الفنية للشعر الأندلسي – ص٤٣٠–ص٤٣١

شلبي بهذا الشأن :"ويساعد على زهدهم أنهم قد عمروا في الحياة ،فعانوا من المرض والعجز ،وألح المشيب في إنذارهم فعادوا من الأتقياء الزاهدين . . "[1] .

وفي موضوع الشعر الذي احتل مكانة مرموقة لدى شعراء الأندلس ، يقول عبد الملك بن حبيب في رسالة كتبها إلى محمد بن سعيد الزجالي ووصلها بهذه الأبيات التي يضع فيها مقياسا لمن يسلس عليه قول الشعر :

كَيفَ يُطيقُ الشِّعْرَ مَنْ أَصْبَحَتْ ... حَالَتُهُ اليومَ كحالِ الغَرِقْ
والشِّعرُ لا يُسْلِسُ إلاّ عَلى ... فَرَاغِ قلبٍ واتِّساعِ الخلقْ
فاقْنَعْ بهذا القولِ مِنْ شَاعِرٍ ... يَرْضَى مِنْ الحظِّ بأَدْنى العَنَقْ
فَضْلك قَدْ بانَ عَلَيْهِ كَما ... بانَ لأهلِ الأرضِ ضَوْءُ الشّفَقْ
أمّا ذِمامُ الودِّ مِنّي لَكُمْ ... فَهْوَ مِنْ المَحْتومِ فيما سَبَقْ[2]

ويمكن أن نعد هذه الأبيات امتداداً لحركة النقد في الأندلس [3]،لأن عبد الملك بن حبيب وضع بها مقياسا لسلاسة الشعر ، وهو فراغ القلب ، واتساع الخلق،وبدون ذلك لا يكون الشاعر شاعرا ولا ينقاد له الشعر بسهولة . وقد ساعده على الوصول إلى هذا المقياس معرفته بالشعر وضروبه ، وعلمه باللغة وفنونها ، يؤكد ذلك ما ذكره التلمساني في

---

١ الأصول الفنية للشعر الأندلسي–ص٢١٠

٢ مطمح الأنفس – ص٢٣٦ – ووردت في نفح الطيب–٢/ ٧

٣ يعد الغزال الأسبق في النقد في الأندلس وذلك عندما انتقد شيخه عباس بن ناصح وهو لازال حدث صغير –انظر ص١٤٠ من هذه الدراسة .

ترجمته بأنه " قد جمع إلى علم الفقه والحديث علم اللغة والإعراب، وتصرف في فنون الآداب، وكان له شعر يتكلم به متبحراً ، ويرى ينبوعه بذلك متفجراً "[١]، وقد وصلنا من هذه الأبيات ما لا يتجاوز خمسةَ عشر بيتاً .

وليس أدل على تميزه في الشعر من اختيار ابن خاقان لهذه الأبيات التي ضمنها في كتابه مطمح الأنفس ، ذلك لأن ابن خاقان لم يختر في كتابه إلا الأدب الرفيع [٢] .

كما ورد من المحاور أيضا حكمة تمييز الله للإنسان بالعقل ، فقد ركب الله العقل في الإنسان دون سائر الحيوان ليستدل بالظاهر على الباطن ويفهم الكثير بالقليل ، وقد ورد هذا المعنى عند ابن عبد ربه الذي يقول فيه:

يَـا غَـافِلاً مَـا يَـرَى إلا مَحَاسِـنَهُ   وَلَـو دَرَى مَـا رَأَى إلا مَسَـاوِيِهِ
انْظُـرْ إلِى بَـاطِنِ الـدُّنيا فَظَاهِرُهَـا   كُـلُّ البَـهَائِمِ يَجْـرِي طَرفُهَـا فيـــــــــــهِ[٣]

ومن الحكمة أيضا ما ورد في قول الغزال :

وَإِنْ أُعطِيـــتَ سُـــلطاناً   فَحـــاذِرْ صَـــولَةَ الـــزَّمَنِ
أَخـــو السُّـــلطانِ مَوصـــوفٌ   بِحُسْـــنِ الـــرَأيِ وَالفِطَـــنِ
فَســـاعَةً مـــا يُزاوِلُـــهُ   رَمـــاهُ النّـــاسُ بِـــاللَعَنِ

١ نفح الطيب – ٢/ ٧
٢ انظر مطمح الأنفس –ص٧٣

٣ ديوان ابن عبد ربه — ص ١٦٩

وُيُصبِحُ رَأَيُهُ المَحمُودَ منسوباً إلى الأَفَنِ
وَتُبصِرُ في مَطِيَّتِهِ سُقوطَ العَينِ وَالأُذُنِ
كَأَنَّ بَشاشَةَ السُّلْطانِ حينَ تَزولُ لَم تَكُنِ[1]

الغزال بحكم معاصرته لخمسة من خلفاء بني أمية ،وقربه منهم كان أكثر وعياً ودراية بما يدور في بلاط الملوك مما جعله يستنبط هذه الحكمة المبنية على رؤية ثاقبة للأمور ،وفحص دقيق لخفاياها .

ومن ذلك منزلة العالم الغريب فمحمد بن بشير القاضي ، الرجل الصالح ، الذي تضرب الأمثال بعدله ،استوطن قرطبة وهو من أهل باجة لذا يرى أن هذا مما يزري من قدره عند أهل قرطبة وفي ذلك يقول :

إنّما أزْرَى بقدري أنّني لستُ من بابَةِ أهلِ البَلَدِ
ليس منهم غيرُ ذي مَقْلِيَةٍ لذَوِي الألبابِ أو ذي حسدِ
يَتَحامَوْنَ لقائي مثلما يتحامَوْنَ لقاءَ الأسَدِ
مَطْلَعي أثقلُ في أعيُنهِمْ وعَلى أنْفُسِهِم من أُحُدِ
لو رأوني وَسْطَ بحرٍ لم يكُنْ أحدٌ يأخذُ منهمْ بيَدي[2]

وهو في أبياته ينتقد أهل قرطبة لما كانوا عليه من عنصرية تجعلهم يعتدون بأهل بلدهم

١ ديوان الغزال ص ١١٣—ص١١٤

٢ نفح الطيب –٢/١٤٩– وقد ذكر ابن عبد ربه هذه الأبيات في عقده منسوبة لمؤمل بن سعيد في معنى فساد الأخوان –انظر العقد الفريد – ٢/ ٣٤٢

دون غيرهم ، ولعل الناس عاملوه بجفاء لما رأوا منه من اهتمام بلبس الخز والمعصفر وإرسال لمته وقد ذكر المقري ذلك حين قال عنه : " وعوتب في إرسال لمّته ولبسه الخز والمعصفر "[٢] . إلا أن الشاعر لا يخفي مدى قوته وصرامته في الحق في أبياته حين شبه نفسه بالأسد ،فقد قيل عنه :"كان رجلاً صالحاً ، وبعدله تضرب الأمثال"[٣] .

وهكذا نرى أن محاور شعر الزهد التي تطرق لها الشعراء في هذه المرحلة تنحصر في اتجاهين :

الأول : تناول فيه الشعراء أموراً في حقيقتها فلسفية عقديه تتعلق بالتذكير بزوال الدنيا ،والقدر والإيمان به ، والموت والتذكير به ،وما يصاحبه قبل وبعد وقوعه، إلا أن الشاعر سلك في ذلك كله مسلكاً يبعد عن الفلسفة والغرابة والتعقيد ويجنح إلى الرؤية الحقيقية .

الثاني :اتخذ الشعراء من الدعوة سلاحاً ومنطلقاً إلى نفوس الآخرين والتغلغل فيها بأفكار،ومعانٍ تُنفر من المعاصي والذنوب ،وتدعو إلى التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ،وإلى الخشية والخوف منه سبحانه وتعالى،والتحلي بمكارم الأخلاق ، وتتحدث عن الشيب ودلالته ،والدهر وحقيقته ،والرزق وما يتعلق به من غنى وجمع للأموال ،كل ذلك مغلف بإطار النصح والموعظة الحسنة .هذا وقد حمل شعراء الزهد في أبياتهم في كل مناسبة ،وموقف ،ومحفل معنى من معاني الزهد التي يتضمنها إطار المحاور الأخرى .

---

٢ نفح الطيب–ص١٤٤

الفصل الثاني

دراسة فنية

المبحث الأول

اللغـــــــة

قبل الفتح الإسلامي كانت أسبانيا ترزح تحت حكم القوط الغربيين الذين كانوا يتكلمون اللغة الجرمانية في حين يتكلم سكان أسبانيا لغة رومانثية أو لاتينية عامية التي اُعتبرت اللغة الرسمية في البلاد بعد أن اعتنق القوط الكاثوليكيه ، وأصبحت اللغة اللاتينية هي لغة الثقافة حينئذ مع ما دخلها من ألفاظ جرمانية عند عامة الناس [1] .

وبذلك تكون لأسبانيا خلفية ثقافية ترتكز عليها قبل الدخول العربي إليها ،وبعد أن دانت أسبانيا للحكم الإسلامي بعد الفتح المبارك لها وعُرفت باسم الأندلس ، انتشر الإسلام فيها بسرعة فائقة ، وبانتشاره انتشرت اللغة العربية على نطاق واسع في هذه البيئة الغريبة التي لم يكن لها سابق عهد بهذه اللغة ، وقد لفت ذلك أنظار الباحثين والدارسين مما جعلهم يتتبعون هذه الظاهرة ويفردون لها بحوثا ودراسات مستقلة ، لمعرفة أسباب انتشارها والأساليب المتبعة في هذا الانتشار [2] .

كما ساعد على انتشار اللغة العربية في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الأندلس عدة عوامل تتلخص فيما يلي [3]:

١- الجموع العربية الوافدة على الأندلس مع الفاتحين لتعليم الناس أمور دينهم ،وبجانب الدين اللغة التي تعد أداة فهم هذا الدين واستيعابه .

١ انظر الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ، ألبير حبيب مطلق-المكتبة العصرية -١٩٦٧م- ص١٧ -ص١٩

٢ انظر الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة — ص ٢٧

٣ نفسه — ص ٢٨

٢- ما تميز به هؤلاء الوافدين من روح التسامح والمحبة والمعاملة الحسنة الأمر الذي حبب لغتهم لأهل تلك البلاد وساعد على إقبالهم عليها وتعلمهم لها ، تساوى في ذلك المسلم وغيره .

٣- طبيعة هذه اللغة وما تميزت به من خصائص تفوق سائر اللغات .

٤- عناية الأمراء والملوك بأمر اللغة وبذلهم للجهود والطاقات في سبيل الحفاظ عليها ومن ذلك دور هشام الأول في توحيد اللغة حيث أصدر منشوراً رسمياً يحتم فيه ضرورة تعميم اللغة العربية على المستعربين الذين يشاركون المسلمين في مدارسهم ثم أصدر منشوراً عاماً إلى جميع السكان بضرورة تعلم اللغة العربية لتكون اللغة الرسمية في البلاد .

وقد دلل الدكتور أحمد هيكل على هذا الانتشار المبكر للغة العربية الذي لم يستحوذ على اهتمام المسلمين فحسب بل جاوزه إلى المسيحيين بتلك الصرخة التي أطلقها أحد قساوستهم ويدعى (ألفرو) القرطبي [1] .

ومن هنا سيطرة اللغة العربية على اللغات السابقة في الأندلس التي بذل الكثير من الباحثين جهده في حصرها [2] .

---

١ انظر الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة – ص٤٠

٢ انظر فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة ، الدكتور/ حكمة علي الأوسي –الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة –ط٣ – ص ٤٠ وما بعدها . انظر أيضا الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة – ص ٤٣ وما بعدها .

هذه اللغة التي انتقلت إلى بلاد الأندلس مع الفاتحين خضعت لبعض الفروق اليسيرة عن مصدرها في بلاد المشرق ، وذلك من حيث السهولة والسلاسة ، ذلك لأن أهل المشرق هم أهل بادية ومن هنا كانت لغتهم خشنة قوية يغلب عليها التعقيد ،في حين تتسم لغة الأندلسيين بالسهولة والسلاسة لبعدهم عن البيئة البدوية الخشنة ،وفي هذا الأمر يقول حنا الفاخوري : " وإذا تناولنا لغة الأندلسيين ألفيناها سهلة سلسة غير محكمة البناء كلغة أهل المشرق ، وما ذلك إلا لبعد صقع الأندلس عن البادية ، ولوجود العرب في بيئة أعجمية أضعفت ملكتهم ورقت تعبيرهم ، ولئن كان هنالك بعض الصعوبة ففي شعر ابن هاني الذي رمى إلى تقليد المتنبي فانصرف إلى الإغراب والإمعان في الخشونة والتعقيد "[1] .

ومن الجدير بالذكر أن أشير إلى أن هذه السهولة والبساطة لم تظهر في الشعر الأندلسي إلا في منتصف القرن الثاني الهجري ، أما قبل ذلك فقد كانت قوالب الشعر الأندلسي لا تنفك عن الشعر القديم الذي كان يحذو حذوه في الألفاظ والأسلوب والصياغة العامة ونحوها [2] .

هذا بالنسبة إلى اللغة عموما في مختلف الأغراض الشعرية في الأندلس ، أما في شعر الزهد فالأمر يزداد سهولة وسلاسة ذلك لأن شعر الزهد يخاطب عامة الناس ، فهو بذلك يقترب من أفهامهم ليتمكن من التأثير فيهم ، وفي ذلك يقول الدكتور علي نجيب عطوي :

---

١ كتاب تاريخ الأدب العربي – حنا الفاخوري-ط١٠-١٩٨٠م– المكتبة البوليسية – ص ٨٠٣

٢ انظر اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري- ص٢٢٥

"فالشاعر في قصيدته الزهدية إذن لا يريد بها مخاطبة الملوك ، وأصحاب الجاه والسلطان ، فهؤلاء مشغولون عنه بأمور دنياهم ، ولهذا فهم لن يكترثوا له ولا لقصائده ، ولن يجد منهم أي تشجيع أو عون ، بل هو يريد مخاطبة العامة من الناس أي الطبقة الشعبية . من هنا كان عليه أن يختار اللغة القريبة إلى أفهامهم وذلك ليتمكن من التأثير على نفوسهم ، وقلوبهم ويبث بينهم رسالته التي يؤمن بها " [1] . وقد حصر الدكتور عطوي سمات اللغة الخاصة بالقصيدة الزهدية في القرنين الثاني والثالث للهجرة في ما يلي [2] :

١ –سهولة الألفاظ وبساطتها

٢ – بساطة التركيب اللغوي

٣ –الليونة لدرجة الهمس

٤ –ظاهرة الألفة في لغة الشعر الزهدي التي تجعل الشاعر قريبا من نفوس الناس

ومع هذه السهولة والسلاسة التي تعد من السمات البارزة لشعر الزهد ، إلا أن الأمر لايخلو من بعض القوة والمتانة التي تتطلبها ألفاظ الترهيب من النار ،والتذكير بالحساب والجزاء ، والتهديد والوعيد ، وهو أسلوب يعتمد أحيانا على أسلوب القرآن الكريم الذي يتأرجح بين الترغيب والترهيب ، يقول الدكتور أحمد حاجم الربيعي في دراسته للقصص القرآني في الشعر الأندلسي :"وقد تميزت قصائد الزهد بأسلوب يتفاوت بين القوة والمتانة

---

١ شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة – ص ٣٢٤

٢ نفسه – ص ٣٢٤ وما بعدها

والرقة واللين وذلك لأن طبيعة الزهد ذاتها تستدعي مثل هذه القوة في الألفاظ للترهيب من النار ، والرقة أحيانا للترغيب في ثواب الآخرة "[1] . كما تعتمد لغة الزهد على عاطفة الشاعر التي تنبع مما يعتنقه من قيم وما يتبناه من مبادئ ، وبناء على جميع ما سبق يمكنني تقسيم هذه الدراسة إلى ثلاثة محاور أساسيه هي كالتالي :

أ - الألفاظ

تطلق اللغة على كل لفظ يحمل معنى ، ومن هنا كانت مادة اللغة المفردات والألفاظ ، لذا أُطلق على المهتمين بالمفردات وشرحها (اللغويون) [2] . ولأهمية الألفاظ في بناء البيت الشعري حيث تمتاز" بأنها ذات مدلولات واسعة لا تنحصر بمدلولاتها المعجمية "[3] ، فقد اعتنى شعراء الزهد في هذه المرحلة بألفاظهم ، فأجادوا اختيارها وتطويعها لإيصال الرسالة المطلوبة لعامة الناس من الوعظ والنصح ، والتذكير بالموت والفناء .

لقد اهتم شعراء الزهد بألفاظهم ،وأحسنوا استخدامها في مواضعها الصحيحة التي تتلاءم مع المعنى المراد ،ومن أبرز ما ألاحظه على الألفاظ في هذه المرحلة ما يلي :

١ - السهولة والوضوح

من أولى السمات التي تواجهنا سهولة الألفاظ التي ربما تؤدي بالتالي إلى سهولة المعنى ووضوحه ،ومرد ذلك إلى حرص الشعراء على استقطاب الألفاظ الفصيحة البعيدة عن

---

١ القصص القرآني في الشعر الأندلسي – ص٢٤٤

٢ انظر نظرات في التراث اللغوي العربي، د/ عبد القادر المهيري - ط١ – ١٩٩٣– دار الغرب الإسلامي - بيروت - ص ١٨٤

٣ لغة الشعر في القرنين الثاني والثالث الهجريين، د/جمال نجم العبيدي - ٢٠٠٣م –دار زهران– ص٣٤

الغرابة والتعقيد ،أو العامية المبتذلة . وهي ظاهرة تتجلى في أغلب شعر الزهد في هذه المرحلة ، وحتى تتبين هذه الحقيقة لا بد من ضرب الأمثلة لذلك ، وهي كثيرة جدا ، من ذلك قول للغزال يخاطب فيه الناس:

مَنْ ظَنَّ أَنَّ الدَهرَ لَيس يُصيبُهُ   بالحادِثاتِ فَإنَّهُ مَغرُورُ
فَالْقَ الزّمانَ مُهوّناً لِخُطوبِهِ   وَانجَرَّ حَيثُ يَجُرُّكَ المَقْدورُ
وَإذا تَقَلَّبَتِ الأُمورُ وَلَم تَدُمْ   فَسَواءٌ المَحزونُ وَالمَسْرُورُ[1]

عمد الشاعر إلى التعامل مع الألفاظ السهلة التي تخلو من الغرابة والتعقيد ، وتدركها العامة بفهمها البسيط، فالكلمات مثل (الدهر ،الحادثات ،مغرور ،الزمان ،الخطوب ،المقدور ،المحزون ،المسرور) كلها من الألفاظ السهلة التي يتداولها عامة الناس فيما بينهم .

كما تتجلى مثل هذه السهولة في قول ابن عبد ربه الذي يحض فيه على التوبة :

بادِرْ إلى التَّوبَةِ الخَلصاءِ مُجْتَهِداً   وَالمَوْتُ وَيْحَكَ لَم يَمْدُدْ إليكَ يَدا
وَارْقُبْ مِنَ اللهِ وَعْداً لَيْسَ يُخْلِفُهُ   لا بُدَّ لِلَّهِ مِنْ إنْجازِ ما وَعَدا[2]

لقد صاغ الشاعر بلغته الشعرية ألفاظاً تتلاءم مع موضوع التوبة والإسراع إليها ،ومن هذه الألفاظ (بادر ، التوبة ، الموت ، ارقب ، وعد ، إنجاز . .) ،وهي جميعها ألفاظ سهلة ومألوفة ، وغير المألوف هنا هو استخدام الشاعر للفظة (الخلصاء) التي يصف بها

---

١ ديوان الغزال – ص ٧٧
٢ ديوان ابن عبد ربه – ص٦٨

التوبة الخالصة لوجه الله تعالى ، لأن هذا المعنى وقع في غير محله ، فمعنى هذه اللفظة كما ورد في لسان العرب الموضع ،أو الموضع الذي فيه ماء[1] ، وهذا المعنى يختلف تماما عن المعنى الذي أراده الشاعر هنا وهو بيان إخلاص التوبة لوجه الله تعالى دون رياء أو سمعه .

ومن هذه الألفاظ السهلة الواضحة المعبرة عن المعنى ما ورد في أبيات لابن عبد ربه قالها في الخشية والخوف من الله عز وجل يقول فيها :

وَمَعْشَرٌ أَوْعَدهُمْ رَبُّهُمْ فبادَروا خَشْيَةَ ذاكَ الوعِيد

فَهُمْ عُكُوفٌ في مَحارِيبِهمْ يَبْكونَ مِنْ خَوْفِ عِقابِ المَجيد

قَدْ كادَ أَنْ يُعْشِبَ مِنْ دَمْعِهِمْ ما قابَلَتْ أَعْيُنُهُمْ في السُّجُود[2]

هذه الأبيات تزخر بالألفاظ الدالة على هذا المظهر الإيماني ، والمتمثلة في قول الشاعر (ربهم، وخشية ،وخوف ، والوعيد ،وعكوف ، ومحاريب،ويبكون ، وعقاب ، والمجيد والسجود) لتناسب هذه الألفاظ تماما مع المعنى الذي عبر عنه الشاعر، مع ما تحمله من سهولة ووضوح . وتظهر السهولة والوضوح في الألفاظ في قول ابن عبد ربه :

جَادتْ لكَ الدُّنيا بنعمةِ عيشِها وكَفاكَ مِنْها مِثْلُ زادِ الراكبِ

(٣)

كل لفظه في هذا البيت سهلة ومستساغة وبعيدة عن الغرابة والتعقيد ، خاصة وأن شطرًا من البيت قائم على معنى حديث شريف سبق أن أشرت إليه[4] .

١ انظر لسان العرب – مادة (خلص)

٢ ديوان ابن عبد ربه – ص٧٧

٣ ديوان ابن عبد ربه – ص ٥٣

٤ انظر الحديث ص ٧٠ من هذه الدراسة

ويزداد الأمر سهولة على لسان الفقيه عبد الملك بن حبيب في قوله للأمير عبد الرحمن:

لا تَنْسَ - لا يُنْسِكَ الرحمنُ - عاشوراء   واذكُرْهُ لا زلتَ في الأَحْيَاءِ مَذْكُورَا

قالَ الرسولُ - صَلاَةُ اللهِ تَشْمَلُهُ -   قولاً وَجَدْنَا عَليهِ الحَقَّ والنُّورَا

مَنْ بَاتَ في لَيْلِ عَاشُوَراءِ ذَا سَعَةٍ   يَكُنْ بعَيْشَهِ في الحَوْلِ مَحْبُورَا

فَارْغَبْ فَدَيْتُكَ فِيمَا فِيهِ رَغَّبَنَا   خَيْرُ الورى كلَّهم حَيَّاً ومقْبُورَا[1]

هذه الأبيات أقرب إلى النظم منها إلى الشعر ،فلا ألمس فيها جودة شاعر ، وإنما علم فقيه ،فليس لها من الشعر إلا الوزن والقافية .

هذه السهولة في الألفاظ التي سبق أن أشرت إليها لم تمنع من وجود بعض الألفاظ القوية نوعا ما ، إلا أنها قليلة ولا يعتد بها من ذلك قول ابن عبد ربه في وصف نار جهنم :

سَوداءُ تَزْفُرُ مِنْ غَيْظٍ إذا سُعِرَتْ   للظالمينَ فما تُبقي ولا تَذَرُ[2]

تظهر الألفاظ القوية في لفظة(تزفر) التي تعاقبت فيها الحروف بين المهموس والمجهور ، ابتداء بالمهموس الانفجاري في حرف التاء وانتهاء بالمجهور التكراري في الراء المضمومة ومن ذلك استمدت الكلمة قوتها ودلالتها على المعنى .

١ وردت هذه الأبيات في الإحاطة في أخبار غرناطة –٣/ ٥٥٢ – والمقتبس من أنباء الأندلس – ص ١٨٤ –كما وردت في نفح الطيب ٢/ ٦. إلا أن البيت الثالث عند المقري يختلف عن ما ورد في المصادر الأخرى حيث يقول:

فيمن يوسع في انفاق موسمه   أن لا يزال بذلك العام ميسورا

والأرجح ما ورد في رواية الأبيات في المصادر الأخرى ،ويؤكد ذلك المقري نفسه الذي علق على هذا البيت بأنه نسي لفظه فكتبه بالمعنى والوزن لطول العهد به . انظر نفح الطيب –٢/٦
٢ ديوان ابن عبد ربه – ص ٩١

كذلك (غيظ ،وسعرت) ، وهما من ألفاظ القرآن الكريم التي استخدمها في وصف نار جهنم ، ففي (غيظ) اجتمعت الحروف ذات الأصوات المجهورة ، وانتهت بالظاء المفخمة ،التي تدل على شدة غيظها وغضبها من الكفار .

وفي (سعرت) اجتمع حرفان جهوريان وهما العين والراء بالإضافة إلى المهموس في حرف السين والمهموس الانفجاري في حرف التاء ،وبذلك ازدادت الكلمة قوة وتعبيرا عن أجيج النار وشدتها .

أيضا من الألفاظ القوية (خدَّدت) وقد اكتسبت قوتها من تضعيف عين الكلمة هذا بالإضافة إلى تكرار الحرف ،مما أعطى الكلمة قوة أكثر في التعبير عن المعنى وترك الأثر ، وقد استخدمها ابن عبد ربه في بيان أثر البكاء من خشية الله في قوله:

مَدامِعٌ قَدْ خَدَّدَتْ في الخُدود وأَعْيُنٌ مَكْحُولَةٌ بالهُجودِ[1]

فاستعمال الشاعر للفظ (خدد) الذي ورد في لسان العرب بمعنى أَثَّر [2]، خاصة في هذا الموضع له أبلغ الأثر في بيان صورة هؤلاء المعتكفين وما علاهم من مظاهر الخشوع المتمثل في البكاء من خشية الله ، وليس أي بكاء وإنما البكاء الشديد الذي يترك أثرا .

ومن الألفاظ القوية التي استمدت قوتها من تضعيف العين أيضاً ، ما ورد عند الغزال في قصيدة واحدة وهي :

١ ديوان ابن عبد ربه – ص٧٧
٢ لسان العرب – مادة (حدد)

(قدَّر) في قوله :

هَكَــذا قَــدَّرَ الإِلَــهُ وَقَــدْ تَجــ ــري بِمَــا لا تَظُنُّــهُ الأَسْــبَابُ[1]

و(جمَّع) في قوله :

لَيسَ مَعَهُ مَن كل ما كانَ قَد جَمَّـ ـعَ إِلّا ثَلاثَةٌ أَثْوابُ[2]

و(ذلَّت)و(عزَّت) في قوله :

فَرَأَيتُ الرقابَ مِن أَهلِهِ ذَلَّـ ـت وَعَزَّت مِن آخَرينَ رقابُ[3]

كذلك من الألفاظ القوية التي تدعو إلى الرهبة (ويل) ،وقد ذكرها ابن عبد ربه في أبيات يبين فيها مدى خوفه من الموقف العظيم يوم الحساب حيث يقول :

يا وَيلتا مِنْ مَوْقفٍ ما بهِ أَخْوفُ مِنْ أَنْ يعدِلَ الحاكمُ
أبارزُ اللّهَ بِعصيانِهِ وليسَ لي مِن دُونِهِ راحِمُ[4]

كلمة (الويل) في الأصل هي حلول الشر ، ولكن عندما يقال واويلتاه فهي تعني وافضيحتاه [5] وبذلك فُسر قوله تعالى : ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ﴾ [6] . و ابن عبد ربه عندما قرنها بالنداء جعلها أكثر مناسبة للتعبير عن خوفه ورهبته من هذا الموقف .

١ ديوان الغزال – ص٥٢
٢ نفسه – ص٥٢
٣ نفسه – ص٥٣

٤ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٥٠
٥ انظر لسان العرب – مادة (ويل)
٦ الكهف : ٤٩

فالشاعر ينادي على نفسه بالفضيحة في الموقف العظيم لما ارتكبه من ذنوب ومعاصٍ، وتجري بقية الألفاظ مثل (موقف،يعدل،الحاكم . .) متناسقة مع المعنى الذي أراده الشاعر ، وهو بيان عظمة ذلك الموقف وهيبته .

ومع ذلك فلا يمكن أن تعدّ قوة الألفاظ سمة من سمات شعر الزهد في هذه المرحلة ، وذلك لقلتها أولا ، ولارتباطها بموقف معين كموقف الخشوع ، أو الترهيب من موقف الحساب والجزاء ثانياً ، لذا تظل السمة الغالبة على شعر الزهد هي سهولة الألفاظ، وسلاستها ، ووضوحها .

وتأخذنا سهولة الألفاظ إلى أمر آخر لا يقل أهمية عنها ، لكثرة لجوء الزهاد إليه في أشعارهم حتى لا يكاد يخلو بيت منه ، ويتمثل ذلك في ظاهرة التكرار .

٢ – ظاهرة التكرار :

أفرد ابن فارس باباً في كتابه (الصاحبي في فقه اللغة) تحدث فيه عن التكرار وذكر أن من "سُنن العرب التكرير والإعادة إرادةَ الإبلاغ بحسب العناية بالأمر"(١) ،فعناية الشاعر بكلمة معينة ،أو عبارة ما تدفعه إلى تكرارها ، لذا ترى نازك الملائكة "أن التكرار في حقيقته ، إلحاح على جهة هامة في العبارة يعني بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها "(٢) .

---

١ الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها–لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا الرازي اللغوي،تحقيق الدكتور/ عمر فاروق الطباع–بيروت–ط١–١٤١٤هـ/١٩٩٣م –مكتبة المعارف –ص٢١٣

٢ قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة –ط ٥– ١٩٧٨م –دار العلم للملايين– ص٢٧٦

والقدماء يرون أن التكرار البياني – وهو أبسط أصناف التكرار – هو الأصل في كل تكرار تقريباً[1] .

فالتكرار إذن من أساليب العربية التي تسلط الضوء على جزء هام في العبارة ، ويأتي في الأصل لغرض التأكيد إذا تطلب المقام ذلك ،وقد يخرج لأغراض أخرى بحسب السياق .

وشعر الزهد من الأشعار التي تحتاج إلى التكرار سواء اللفظي أو المعنوي وذلك لتأكيد بعض المعاني التي قد تكون غائبة عن البعض ،إلا أنه ينبغي أن لا يجيء به لغير هدف لأنه حينها يضر البيت ويعيبه .وفي دراستي للأبيات يمكنني تقسيم التكرار إلى ثلاثة أقسام هي كالتالي :

- تكرار الحروف

ذكر ابن فارس نقلا عن الأخفش قوله "ما لم يحسن له الفعل ولا الصفة ولا التثنية ولا الجمع ولم يجز أن يتصرف – فهو حرف "[2] ،وقد بدت الحروف في بعض أبيات الزهد ذات أهمية بالغة ، لذا عمد الشعراء إلى تكرار بعضها لهذا الغرض ، ويمكنني أن أرى ذلك في العديد من الأبيات منها قول الغزال :

وَبِاللَّهِ لَو عُمِّرتُ تِسعينَ حَجَّةً   إِلى مِثلِها ما اشتَقتُ فيها إِلى خَمرِ[3]

---

١ قضايا الشعر المعاصر – ص٢٨٠

٢ الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها–ص٨٧

٣ ديوان الغزال – ص ٧٩

كرر الشاعر حرف الجر (إلى) ، وذلك بغرض التحقير ،فكأن هذه الخمر بعيدة عنه لدرجة التحقير ، وعدم الأهمية ، ويدل على بعده عنها ذكره للفعل (اشتقت) حيث أن الاشتياق يكون مع البعد ،كذلك تكرار الضمير في قوله (مثلها ، فيها) أسهم في تأكيد هذا البعد . ومن تكرار الحروف تكرار (لا النافية) في قول الغزال:

وَلا طَرِبَــــت نَفســــي إِلى مِزهِــــرٍ وَلا   تَحَـــنَّنَ قَلــبي نَحــوَ عــودٍ وَلا زَمــرِ[1]

حيث كرر الشاعر النفي ثلاث مرات ،وذلك في الكلمات التالية (ولا طربت ، ولا تحنن ، ولا زمر) بغرض التأكيد على بغضه ،وكرهه لهذه المعاصي ، وبعده عنها .

ومن ذلك أيضاً قول ابن عبد ربه:

يُقَلْقِــلُ مـــا بَــيْنَ الضُّــلوعِ نَشــيجُها   لهـــا شـــافِعٌ مِـــنْ عَــبرَةٍ وَتَضَــرُّعِ[2]

كرر الشاعر حرفي القاف واللام في (يقلقل) لبيان الحالة الشعورية التي كان عليها في أثناء توجهه لله عز وجل بالدعاء والابتهال ، وقوة هذه الدعوة التي أحدثت أثراً قوياً بين ضلوعه من شدة النحيب والبكاء . كما يضم البيت تكراراً لحرف الشين الذي أسهم ببعثرته وانتشاره[3] في تصوير هذه الحالة الشعورية المضطربة . وكذلك تكرار حرف العين الذي عمل كحاجز قوي يقف عنده أثر كل شيء .

---

١ ديوان الغزال – ص ٧٩

٢ ديوان ابن عبد ربه – ص١١٥

٣ انظر خصائص الحروف العربية ومعانيها –حسن عباس –منشورات اتحاد الكتاب العرب –١٩٩٨م–ص١١٥

ومن ذلك أيضا تكرار حرف الدال سبع مرات في بيت واحد ورد في قول ابن عبد ربه :

مَدامِعُ قَدْ خَدَّدَتْ في الخُدود وأَعيُنٌ مَكْحُولَةٌ بالهُجود[1]

وفي هذا التكرار دلالة على عمق الأثر الذي تركته هذه الدموع في الخدود ،وعلى صدق هؤلاء الزهاد مع الله عز وجل وخشيتهم منه .

- تكرار الكلمات

يعد هذا النوع من التكرار من السمات البارزة لشعر الزهد في هذه المرحلة ، وذلك لكثرة تناول الشعراء له ، فلا تكاد تخلو أبياتهم منه ،وهذا النوع من التكرار يخرج لعدة أمور هي كالتالي :

١- **تكرار للتأكيد** ، ومما يطالعنا منه أبيات للأمير عبد الله يقول فيها :

يا مَنْ يُراوِغُهُ الأَجَلْ حَتَّامَ يلهيكَ الأَمَلْ
حتَّامَ لا تَخْشَى الرَّدَى وكَأَنَّه بِكَ قَدْ نَزَلْ
أغفلتَ عن طَلَبِ النَّجاةِ ولا نَجَاةَ لِمَن غَفَلْ
هَيْهَاتَ يَشغلك المُنَى ولَمَا يدومُ لَكَ الشَّغَلْ
فكأنَّ يومَك لم يَكُنْ وكأنَّ نَعْيَكَ قَدْ نَزَلْ[2]

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص٧٧

٢ كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب- ٢/ ١٥٥

ففي هذه الأبيات بعض الكلمات المكررة وهي (حتام ، النجاة ، كأن) والغرض من التكرار هنا هو التأكيد والتقرير ،وقد عمل التكرار هنا على إحداث الترابط والتلاؤم بين أجزاء الأبيات . كما يؤكد ابن عبد ربه على ذهاب الدنيا ومن فيها بقوله:

فَلا تَكْتَحِلْ عَيْنَاكَ فِيهَا بِعَبْرَةٍ عَلى ذَاهِبٍ مِنْهَا فَإِنَّكَ ذَاهِبُ[1]

فالغرض من تكرار (ذاهب) هو التقرير والتأكيد ، حيث يقرر حقيقة ذهاب كل شي في هذه ومن تكرار الألفاظ ما ورد في قول ابن عبد ربه في التوبة:

إذا ابْتَسَمْنَ فَدُرُّ الثَّغْرِ مُنْتَظِمٌ وَإِنْ نَطَقْنَ فَدُرُّ اللَّفظِ مَنْثُورُ[2]

كرر الشاعر لفظة (فَدُرٌّ) للتأكيد على ما يتصفن به هؤلاء الحور من جمال الثغر والمنطق ،بحيث جعل كل من انتظام الأسنان ،وجمال الألفاظ كالدرر . ويخبر الغزال عن تجربته مع الدهر بقوله:

إِنّي حَلَبتُ الدَهرَ أَصنافَ الدِرَرْ فَمَرَّةً حُلوٌ وَأَحياناً مَقِرْ

وَعَلقَماً حيناً وَأَحياناً صَبِرْ وَجُلُّ ما يَسقيكَهُ الدَهرُ كَدِرْ[3]

كرر الشاعر كلمة (أحياناً) في البيتين ،وهي جمع (حين) وذلك للتكثير والتعظيم لأهوال الدهر وصعابه ،دل عل ذلك أنه قلل من حلاوة الدنيا بقوله(فمرة حلو) ،وأكثر من المرارة

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٤٩

٢ نفسه – ص ٩٤

٣ ديوان الغزال – ص ٦٧

بقوله (وأحيانا مقر) ،وتتضح هنا نظرة الشاعر التشاؤمية التي يرى من خلالها أن كل ما يأتي به الدهر كدر ، ويؤكد على هذه النظرة بـ (إن التأكيد) .

كما يظهر أن الشاعر ممن يخرجون على قواعد اللغة المطردة ،يدل على ذلك ما في البيت الأخير من ضعف في التأليف لأن رجوع الضمير وهو الهاء في (يسقيكه) على متأخر لفظا ورتبة وهو (الدهر) يعد خروجا عن قواعد اللغة المطردة ،ويؤدي بالتالي إلى ضعف التأليف الذي لابد أن تتخلص منه التراكيب السليمة .

٢- تكرار للتهكم والسخرية

من صور التكرار الساخر تكرار الغزال للجار والمجرور (في سكر) في قوله :

وَلا أَنــا مِمَّــن يُــؤثِرُ اللَهــوَ قَلبُــهُ فَــأُمسي في سُــكرٍ وَأُصبِــحَ في سُــكرِ[1]

أراد الشاعر بالتكرار السخرية والاستهزاء ممن قضى ليله ونهاره في لهو ومجون ، وإقبالا على الشهوات ،غير مكترث بالعاقبة والختام .

ومن هذا النوع من التكرار، تكرار (زرياب) وهو اسم لمغني وفد من المشرق على الأمير عبد الرحمن فأكرمه ، وقربه إليه ،وخصه بدار نصر بعد موته ، وقد ذكره الغزال في قوله :

ذَكَــرَ النّــاسُ دارَ نَصــرٍ لِزَريــا بَ وَأَهَــلَّ لِنَيلِهــا زِريــابُ[2]

---

١ ديوان الغزال — ص٧٨

٢ نفسه — ص٥٢

وقد عمد الشاعر إلى التهكم والسخرية من زرياب ، لأنه كان مستاءً منه ،ومن مكانته لدى الأمير ، التي أدت به إلى أن حظي بهذه الدار .

٣- رد العجز على الصدر

وهو ما أطلق عليه ابن رشيق (التصدير) وعرفه بقوله : " هو أن يرد أعجاز الكلام على صدوره، فيدل بعضه على بعض "[١] ،كما عرفه الخطيب بقوله:"أن يجعل أحد اللفظين المكررين ،أو المتجانسين ،أو الملحقين بهما ،في أول الفقرة ،والآخر في آخرهما "[٢]، وذلك "حيث يرد اللفظ في الكلام ثم ينمو بعده المعنى وصولا إلى خاتمة يتكرر فيها هذا اللفظ سواء اتحد اللفظان في المعنى أو اختلفا فيه "[٣] . وهذه اللفظة المكررة في صدر البيت قد تأتي في أوله أو وسطه أو آخره ، أما في عجز البيت فمن الضروري أن تكون في خاتمة البيت ومن الأمثلة على ذلك قول ابن عبد ربه :

حُـورٌ سَقَتْني بِكأسِ المَـوْتِ أعْيُنُهـا ماذا سَقَتْنِيـهِ تِلْكَ الأَعْيُنُ الحُـورُ ؟[٤]

كرر الشاعر (حور) للتأكيد على ما يتمتعن به من جمال ، ونلاحظ أن الشاعر بدأ بيته بهذه الكلمة نكرة ، ثم ختم البيت بالكلمة نفسها معرّفة ، وكأن الشاعر يقول أنه أنس بالتعرف عليهن حتى أصبحن مقربات إليه .

---

١ العمدة – ١/ ٥٦٠

٢ الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني – المكتبة الفيصلية –مكة المكرمة – ص٣٩٩

٣ البلاغة والأسلوبية–د.محمد عبد المطلب–الشركة المصرية العالمية للنشر–لونجمان –ص٢٩٩

٤ ديوان ابن عبد ربه – ص ٩٤

كما يقول ابن عبد ربه في أهمية الخضاب:

إِذَا نَصَلَ الخِضَابُ بَكَى عَلَيْهِ ... وَيَضْحَكُ كُلَّمَا وَصَلَ الخِضَابَا[1]

الخضاب الذي استعمله الشاعر ليغير به بياض الشيب ،استحوذ عليه وعلى مشاعره لدرجة ارتباطه بالحزن والبكاء عليه إذا نصل ،والفرح والضحك إذا وصل. كما كرر الغزال كلمة (رقاب) في قوله:

فَرَأَيْتُ الرِقَابَ مِنْ أَهْلِهِ ذَلْ ... لَت وَعَزَّت مِنْ آخَرِينَ رِقَابُ[2]

والغرض من التكرار التحقير ، يدل على ذلك أنه ذكرها بداية بالتعريف ، وكررها بالتنكير مما يوحي باحتقاره لهؤلاء الناس ويقصد زرياب وأهله .

ويكمن حسن مثل هذا النوع من التكرار في ما يقدمه من تقرير وتوضيح ،وما فيه من الزيادة في المعنى الراجعة إلى الإيحاء النابع من اللفظ الأول بتوقع الثاني وترقبه[3] .

٤- تكرار بالمجاورة

ومن التكرار ما يسمى (التكرار بالمجاورة)، "بحيث يتردد في البيت لفظتان ،كل واحدة منهما بجانب الأخرى ،أو قريبا منها ، من غير أن تكون لغوا لا يحتاج إليه "[4] .

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٤٥

٢ ديوان الغزال – ص٥٢-٥٣

٣ انظر البلاغة والأسلوبية –ص٢٩٩

٤ البلاغة والأسلوبية –ص٣٠١

ويتحقق هذا النوع من التكرار في عدة أبيات منها على سبيل المثال قول الغزال :

تَحيَّفَنــي عُضْــواً فَعضْــواً فَلَمْ يَــدعْ سِوَى اسْمِي صَحيْحَاً وَحْدَه ولِساني[1]

ويظهر ذلك في (عضوا فعضوا) ،الذي يدلل به الشاعر على تدرج التغيير الذي اعتراه جراء تقدم عمره ، وصولة الزمان ضده ،ومثل هذا التكرار "يتحقق فيه المستوى الصوتي والدلالي على صعيد واحد" [2] .كما يظهر مثل هذا النوع من التكرار في قول الغزال أيضا :

إِذْا عَــنَّ لِي شَــخْصٌ تخيَّــلَ دُونــه شَــبيه ضَــبْاب أَو شَــبيهُ دُخــانِ[3]

حيث تحققت المجاورة بالقرب في قوله (شبيه ضباب أو شبيه . .) التي تدل على تدني حالة الشاعر مع تقدم عمره ،وما أصابه من ضعف في البصر ،ووهن في الجسم .

ومن ذلك أيضا قول الغزال :

لَــو ضَــامَني مَــن ضَــامَني لَــم أَنْتَصِــر فَــانظُر إِلَــيَّ وَاِعتَبِــر ثُــمَّ اِعتَبِــر[4]

اتبع الشاعر التكرار بالمجاورة في كل من (ضامني،واعتبر) ،واستدعى ذلك ما يشعر به الشاعر من ضعف وعجز وهوان بلغ به إلى أنه إذا تعرض للضيم والانتقاص من أي شخص كان سواء أكان قويًا أو ضعيف ،صغير أو كبير –دل على ذلك (من) – فإنه لا يستطيع أن ينتصر لنفسه ،وينتقم ،وفي ذلك كله محل للنظر والاعتبار بحاله .

---

١ ديوان الغزال – ص ١١٢
٢ البلاغة والأسلوبية –ص٣٠٢
٣ ديوان الغزال – ص ١١٢
٤ نفسه – ص ٦٥

٥- تشابه الأطراف[١]

وهو "تكرار يتصل بالدلالة . . وتتمثل هذه التكرارية في إعادة الشاعر لفظ القافية في أول البيت التالي لها"[٢] . وأجد ذلك في قول ابن عبد ربه في ذم الدهر :

وأيَّـــامٌ خَلَــتْ مِـــنْ كُـــلِّ خَيْـــرٍ ... وَدُنَيـــا قَـــدْ تَوَزَّعَهَـــا الكلَـــابُ

كِـــلابٌ لَـــوْ سَـــأَلْتَهُمُ تُرَابـــاً ... لَقـــالوا عِنْـــدَنَا انْقَطَـــعَ التُّـــرَابُ[٣]

فالشاعر ينفي الخير عن الأيام التي يعيشها ، ويعيب على الدنيا التي توزعها البخلاء ،ولشدة ضيقه منهم استخدم مثل هذه التكرارية في ذكرهم بأسوأ النعوت .

٦- تكرار بلا فائدة

ومن التكرار ما لا يؤدي فائدة في المعنى ، بل ربما يخرج به مخرجا سيئًا ومن ذلك تكرار (الإعجاب) والاسم الموصول في قول الغزال:

لَتَعَجَّبْـــتُ وَالَّـــذي مِنـــهُ أُعجِبـــ ... تُ إذا مـــا نَظَـــرتُ شَـــيءٌ عُجـــابُ

لَكَـــأَنَّ الَّـــذي تَـــوَلّى الَّـــذي كـــا ... نَ عَلَيـــــهِ مُخَلَّـــــدٌ لا يُـــــرابُ[٤]

كلمة (عجب) في حد ذاتها جيدة ، وقد ذكر الدكتور إبراهيم أنيس أن من خير

١ هذه التسمية أطلقها ابن أبي الأصبع بدل مسمى (التسبيغ)الذي أطلقه الأجدابي وعلل ذلك بأن الأبيات فيه تتشـــابه أطرافهـــا ..- انظر تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن -لابن أبي الإصبع المصري ،تحقيق د/حفني محمد شرف - الكتاب الثاني - القاهرة- ١٣٨٣هـ - ص٥٢٠

٢ البلاغة والأسلوبية -ص٢٩٨

٣ ديوان ابن عبد ربه - ص٤٩

٤ ديوان الغزال - ص٥٣

التراكيب وأكثرها استعمالا ما بدئ بحرف حلق ثم حرف فم ثم حرف شفة وذكر مثالا لذلك كلمة (عجب) [١] . .إلا أن تكرارها بهذه الصورة خرج بها عن الجدية ، وقد يكون هذا التكرار نتاجا لاضطراب في نفسية الشاعر خاصة وهو يتكلم عن بعض ما حظي به زرياب من تكريم لدى الأمير ، وما يحدث من تقلب الدنيا بالناس وعدم استقرارها على حال مما أدى إلى تعجبه من هذه الحال الذي يمثل حالته الراهنة .أيضا تكرار الاسم الموصول (الذي) ثلاث مرات في البيتين يدل على هذا الاضطراب ولا يضيف للمعنى شيئا ، لأنه تكلف لا ضرورة له .

- تكرار العبارات

عمد الشعراء في هذه المرحلة إلى تكرار بعض العبارات التي تتناسب مع رؤيتهم للموضوع ،وتأثرهم به ، ومن هؤلاء الغزال في قوله :

اِنظُـرْ إِلَـيَّ إِذا أُدرِجـتُ في كَفَـني   وَاِنظُـرْ إِلَـيَّ إِذا أُدرِجـتُ في اللَحـدِ [٢]

مما لا شك فيه أن الحديث عن الموت يقهر النفوس القاسية المتسلطة ويخضعها ويجعلها أقرب إلى الصدق والواقع ، فكيف عندما يتحدث عنه إنسان طاعن في السن ؟ ! لاشك

أنه يتراءى أمام عينيه حقيقة ويشعر به شعورا صادقا ، وهذا ما ألمسه من تكرار الغزال

١ انظر موسيقى الشعر، الدكتور/ إبراهيم أنيس-ط٥-١٩٨١ - ص٢٧
٢ ديوان الغزال — ص ٦٤

لعبارة (انظر إلى إذا أدرجت) التي يعبر بها عن مدى حسرته وألمه ،وفي الوقت نفسه يؤكد بها على يقينه بوقوع هذه اللحظة ،وبضرورة أخذ العظة والعبرة . ومن العبارات المكررة أيضا ما ورد في قول الغزال:

وَفِي ذاكَ مَــا أَغنــاكَ عَن كُلِّ واعِــظٍ شَفيــقٍ وَمَــا أَغنــاكَ عَن كُلِّ زاجِــرِ[1]

فقد كرر الشاعر عبارة (ما أغناك عن كل) ، والتكرار هنا جاء بغرض التأكيد على أخذ العظة والعبرة من هذا الأمر المتمثل في رؤية الموتى وقبورهم ،لما له من أثر قوي في الاتعاظ به ،و الاكتفاء به عن كل واعظ وزاجر . وفي قول ابن عبد ربه:

يـا مَـنْ تَلَهّـى وشَـيْبُ الـرأسِ يَنْدُبُـهُ مـاذا الّذي بَعْدَ شَيْبِ الرأسِ تَنْتَظِـرُ ؟[2]

تكررت عبارة (شيب الرأس) ، التي توحي بتقدم العمر وقرب الأجل ، وهو المعنى الذي أراده الشاعر ،وأراد بتكراره لفت الانتباه إلى ارتباط الشيب بالرحيل ،لإرادة الوعظ والإرشاد .

هذا بالنسبة إلى أهم السمات التي تميزت بها ألفاظ شعر الزهد ، يضاف إلى ذلك سمة الألفة التي تجعل الشاعر قريبا من العامة ، وكان التكرار من الوسائل التي ساعدت الشعراء على تحقيق هذه الألفة ،هذا بالإضافة إلى أساليب النداء والأمر والنهي والاستفهام ، وسأفصل في هذه الأساليب لاحقا بمشيئة الله .

---

١ ديوان الغزال –ص٨٢

٢ ديوان ابن عبد ربه – ص ٩١

ب- التراكيب

التراكيب : هي اجتماع الألفاظ وتناسقها على نحو معين لإفادة معنى ذهني أو شعوري[1] . وبما أن الألفاظ تمتاز في غالبية الأبيات بالسهولة والسلاسة والوضوح فقد انعكس ذلك على التراكيب التي امتازت في جملتها بالسهولة والوضوح أيضا . وعند دراستي لهذه التراكيب يمكن أن ألحظ ثلاث سمات بارزة تتمثل فيما يلي:

1- سهولة التراكيب

فقد حمل الشاعر في تراكيبه السهلة كثيراً من المعاني القيِّمة التي لا يستطيع اللفظ وحده إيصالها إلى السامع ، بل كان لا بد من تآزر النظم والتركيب مع الألفاظ السهلة الواضحة لتكون أبلغ في الدلالة على المعنى . وهذه السمة بارزة في أغلب تراكيب الشعراء في هذه المرحلة ، من ذلك أبيات للأمير عبد الله تمثل سهولة التراكيب يقول فيها :

أرَى الدُّنيا تَصِيرُ إلى فَنَاء وَمَا فيها لشيء من بَقَاءِ

فبَادِر بالإنابةِ غيرَ وَانٍ | على شَيءٍ يصِيرُ إلى فَنَاءِ
كَأَنَّكَ قد حُمِلتَ على سَرِيرٍ | وغُيبَ حُسنُ وَجهِكَ في الثَّرَاءِ
فَنَافِس في التُّقى واجنح إليه | لَعَلَّكَ تُرضِينْ رَبَّ السَّمَاءِ[2]

---

١ انظر النقد الأدبي الحديث ، د/محمد غنيمي هلال-١٩٧٣م - دار الثقافة -بيروت -لبنان- دار العودة-بيروت-لبنان- ص ٤٣
٢ كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس — ٢/ ١٥٥

يقطع الشاعر بالسامع شوطا كبيرا من حياته وما تخللها من تجارب وخبرات ، ليصل به إلى خلاصة تجاربه المتمثلة في فناء الدنيا بما فيها من أحياء ، ويظهر ذلك في انتقاله من الفعل (أرى) الذي يحمل في طياته رؤيته الحقيقة للدنيا ، إلى الفعل (تصير) الذي يستقر به إلى خلاصة رؤيته ،وثمرة تجاربه وخبراته .

ثم استخدم فاء التعقيب مع فعل الأمر بغرض الدعوة إلى التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ،والمبادرة إليها ، ونكَّر (شيء) بغرض التحقير من أمر هذه الدنيا ، لأنها إلى زوال .

ويُدخل السامع في أعماق الصورة بالخيال ، ليخوض معه التجربة لهذه الحقيقة الغائبة عن أذهان بعض الناس المنصرفين إلى ملذات الدنيا ، حيث استخدم التركيب اللغوي المتمثل في أداة التشبيه (كأن) ،وحرف التحقيق (قد) الذي يحمل في طياته تأكيداً لوقوع هذا الأمر ، والفعل الماضي المبني للمجهول في قوله (حُملت ،وغُيب) ، الذي يدعم هذه الصورة ويؤكدها .

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى لفظة (الثراء) التي خرجت عن معناها الحقيقي، إذ من المتعارف عليه أن المراد بالثراء كثرة المال كما ورد في المعاجم اللغوية[1]، إلا أن الشاعر استعملها هنا بمعنى (الثرى) وهو التراب الندي، وربما يكون السبب في ذلك الالتزام بقافية الهمزة في الأبيات، وهذا ما سأوضحه في دراستي للموسيقى بإذن الله.

---

١ انظر لسان العرب –مادة (ثرا)– وقاموس اللغة (كتاب المصباح المنير)، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي–نوبليس– مادة (ثرو)

ويخلص الأمير عبد الله إلى المغزى من الأبيات في نهايتها، وهو الدعوة إلى المنافسة في التقى، والانصراف إليه طلبا لرضا الله عز وجل. وفي ذلك تأكيد على الرغبة في مرضاة الله عز وجل التي من أجلها يكون التنافس والميل إلى التقى، يدل على ذلك استخدام الترجي في (لعل) الذي يحمل الأمل في بلوغ رضا الله عز وجل، وفي ذكر الخالق سبحانه وتعالى مضافا إلى آية من آيات قدرته وهي السماء.

ومن خلال استعراض ذلك تتجلى سهولة التراكيب وسلاستها، مع جودة الحبك وتآزر البناء. كما لا يخفى ما في الأبيات من ألفة، التي كان سببها المباشر أن الشاعر يعمد إلى التهيئة النفسية في البداية ثم يعقبها مباشرة بالدعوة، باستخدام الخطاب، وأفعال الأمر.

ومن التراكيب السهلة قول الغزال في قصيدة طويلة منها:

ذَكَرَ النّاسُ دارَ نَصرٍ لِزَريا ... بَ وَأَهَلَّ لِنَيْلِها زِرْيابُ

هَكَذا قَدَّرَ الإِلَهُ وَقَد تَجـ ... ـري بِما لا تَظُنُّهُ الأَسبابُ

أَخرَجُوهُ مِنها إِلى مَسكَنٍ لَيـ ـسَ عَلَيهِ إِلّا التُرابَ حِجابُ[1]

جملة التراكيب في هذه الأبيات سهلة وواضحة بعيدة عن الغموض ،وكان لوضوح الألفاظ وسهولتها دور بارز في الدلالة التركيبية الموحية لهذه الأبيات ، هذا بالإضافة إلى أنها تأخذ طابع القصة بما تحمله من أخبار ،وما تنطوي عليه من أحداث .

---

١ ديوان الغزال – ص ٥٢

2- التقديم والتأخير

لا شك أن لكل لغة ترتيباً معيناً ونسقاً محدداً متعارفاً عليه ،تخضع له في ترتيبها للجمل والكلمات وتسير عليه في نظام محدد ، ففي لغتنا العربية جرت العادة بأن يسبق المبتدأ الخبر ، ويسبق الفعل الفاعل . . ونحو ذلك ، ولكن قد يختلف هذا الترتيب ويتقدم أحدهما على الآخر في حالات معينة تخضع لاهتمام المتحدث وما يجول في خاطره ، وهذا ما نجده في بعض أبيات الزهد التي بين أيدينا .من ذلك قول ابن عبد ربه:

فيا مَنْ غَرَّهُ أَمَلٌ طويلٌ بِهِ يُرْدَى إلى أجَلٍ قَصيرِ[1]

حيث قدم الشاعر الجار والمجرور (به) على الفعل (يردي) ،وذلك بغرض لفت الانتباه إلى حقيقة قصر الأجل . ومن التقديم قول الغزال:

هِيَ الزْمَنَ المَوجُود لا شَيءَ غَيْرَه وَمَا مَر وَالآتِي عَدِيْمَانِ يَا دَعْدُ[2]

حيث قدم الشاعر المسند إليه (هي) بغرض تخصيص الدنيا بالزمن الموجود فقط دون غيره من الماضي والمستقبل . ومن تقديم المسند قول غربيب الطليطلي:

لَـــهُ أَجَـــلٌ ولِي أَجَـــلٌ وكُـــلٌّ　　　سَـيَبْلُغ حَيْـثُ يُبَلِّغُـهُ الكِتَـابُ[٣]

اقتضى تقديم المسند –وحقه التأخير– التنبيه على أنه خبر حتى لا يلتبس بالصفة وذلك من أجل بيان عموم وشمول المنية للجميع .

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٩٧

٢ ديوان الغزال – ص ١١٧

٣ المغرب في حلى المغرب – ٢/ ٢٤ ، كما وردت الأبيات في جذوة المقتبس – ص ٣٠٧ ، مع تغيير (وما ندري) .

3– التعريف والتنكير

يتطلب سياق الكلام أحيانا من الشاعر تعريف بعض الكلمات وتنكير أخرى ، وذلك لما يحمله من دلالة على المعنى ،وما يضيفه على الكلام من روعه ،وما يحدثه من أثر واضح في النفس .

أولا : التعريف

لجأ الشعراء إلى التعريف بشتى طرقه وأنواعه في الكثير من الأبيات وذلك حسب ما يتطلبه السياق ،وبحسب ما يقتضيه حال المخاطب ،وما يجول في خاطره ،من ذلك قول محمد بن عبد السلام الخشني:

أَخِـــي إِنْمَـــا الـــدُنيَا مَحَلَّـــةُ فُرْقَـــةٍ　　　وَدَارُ غَـــرُورٍ آذَنَـــتْ بِفِـــرَاقِ[١]

ويتجلى مثل هذا التعريف الذي أفاد المعنى في قوله (دار غرور) وهو وصف للدنيا ،والتعريف بالإضافة هنا إنما جاء به الشاعر لبيان حقيقة هذه الدنيا والتحقير من شأنها . ومن التعريف أيضاً قول ابن عبد ربه:

هِيَ الدَّارُ مَا الآمَالُ إلاَّ فَجَائِعُ عَلَيْهَا وَلا اللَّذَّاتُ إلاَّ مَصَائِبُ[٢]

والتعريف هنا جاء بضمير الغيبة (هي) العائد على الدنيا التي بدأ الشاعر أبياته بالحديث عنها ،ثم عبر عنها بضمير الغيبة للتعريف بحقيقتها وبيان ماهيتها ،والتلميح على عدم

---

١ جذوة المقتبس – ص ٦٤

٢ ديوان ابن عبد ربه – ص ٤٩

حرصه عليها باختيار ضمير الغيبة . ومنه قول ابن عبد ربه أيضاً :

ذَاكَ الْقَضَاءُ الذي لا شَيءَ يَصْرِفُهُ حَتَّى يُفَرِّقَ بينَ الرُّوحِ والجَسَدِ[١]

فالتعريف بالإشارة (ذاك) أتى به الشاعر تنبيها لعظمة هذا القضاء (الموت) الذي سبق وصف الحالة المصاحبة له في الأبيات السابقة لهذا البيت،ويمتاز هذا التعريف بأن له أبلغ الأثر في الدلالة على المعنى الذي أراده الشاعر ،وهو التذكير بحقيقة وقوع الموت بالإنسان

ومن التعريف أيضا قول الغزال:

وَإنَّ الَّذي أَعظَمتِهِ مِن تَغَرُّبي عَلَيَّ وَإن أَعظَمتِ ذاكَ يَسيرُ[٢]

يفيد الاسم الموصول هنا ما لا يفيده شيء آخر ،ذلك لأنه يحمل في أثنائه التفخيم والتعظيم والتهويل لهذا الأمر الذي أعظمه الإنسان من الغربة والسفر والترحال .

وقد جمع الشاعر بين التعريف والتنكير في قوله:

فَرَأَيتُ الرقابَ مِن أَهلِهِ ذَلْـ　　لَت وَعَزَّت مِن آخَرينَ رِقابُ[3]

حيث عرف كلمة (الرقاب) في الشطر الأول من البيت لبيان الشرف والرفعة التي كان عليها أهل نصر الخصي ، ونكرها في الشطر الثاني من البيت للتحقير من أهل زرياب اللذين آل لهم هذا الشرف بعد موت نصر الخصي .

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٧٦

٢ ديوان الغزال – ص ٧٣

٣ نفسه – ص٥٢-٥٣

ثانيا : التنكير

لا يقل التنكير فائدة عن التعريف فقد لجأ إليه الشاعر في مواضع كثيرة من ذلك على سبيل المثال قول الأمير عبد الله :

فبَادِرْ بالإنابَةِ غَيْرَ وَانٍ　　عَلى شَيءٍ يَصِيرُ إلى فَنَاءِ[1]

نكر الشاعر (شيء) للتحقير من أمر هذه الدنيا ،التي تحمل في حقيقتها الفناء والزوال .

ومن التنكير قول الغزال:

وَباللَهِ لَو عُمِّرتُ تِسعينَ حَجَّةً　　إِلى مِثلِها ما اِشتَقتُ فيها إِلى خَمرِ

وَلا طَرِبَت نَفسي إِلى مِزهَرٍ وَلا　　تَحَنَّنَ قَلبي نَحوَ عودٍ وَلا زَمرِ[2]

اتخذ الشاعر من تنكير (خمر ،مزهر ، عود ، زمر) مدخلاً للدلالة على بعده عن هذه المعاصي،والتحقير منها ،ومن مجالسها .كما ورد التنكير عند الغزال أيضا في قوله:

وَكَم ظَاعِنٍ قَد ظَنَّ أَنْ لَيسَ آيِباً   فَآبَ وَأَوْدى حاضِرونَ كَثِيرُ[3]

نكَّر الشاعر (ظاعن) بغرض التكثير من هؤلاء المسافرين الذين مع ما يتعرضون له من مخاطر السفر والترحال إلا أنهم يعودون لأهلهم سالمين في حين يرحل الإنسان الآمن في موطنه المستقر في بلده ،والشاعر بذلك يؤكد على عشوائية الموت .

---

١ كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس – ٢/ ١٥٥

٢ ديوان الغزال – ص ٧٩

٣ نفسه – ص ٧٣

جـ - الأسلوب

الأسلوب :" هو فن من الكلام يكون قصصاً أو حواراً ، تشبيهاً أو مجازاً أو كناية ،تقريراً أو حِكماً وأمثالاً"[1] ،هذا التعريف جمع بين دفتيه جميع ما ينطق به الإنسان من كلام ، وصبغه بصبغة فنية ،ولا يعني ذلك أن الأسلوب زينة زخرفيه للكلام ، بل رؤية تكشف عن عالم المتكلم .

ومن الجدير بالذكر أن الأسلوب يعتمد على المعنى في النفس وترتيبه في العقل قبل اللفظ وتركيبه في جمل ومفردات ، يقول الدكتور أحمد الشايب في دراسته للأسلوب :"أن

الأسلوب معان مرتبة قبل أن يكون ألفاظا منسقة ، وهو يتكون في العقل قبل أن ينطق به اللسان أو يجري به القلم "[٢] .

هذا بالنسبة إلى الأسلوب في الأدب عموما ، أما في الشعر فهو يرتبط ارتباطا وثيقا بالعاطفة التي تعد من أهم الخصائص المميزة للشعر عن غيره ، وشعر الزهد يرتكز على هذه العاطفة القائمة على إثبات حقيقة معينة بما تبثه من معانٍ صادقة وقوية . ومن هذه الأساليب ما يلي :

١ الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ، أحمد الشايب- ط٧ -١٣٩٦هـ/١٩٧٦م -ملتزم الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية -٤١

٢ الأسلوب- ص٤٠

١- أسلوب الأمر :

ويقابلنا هذا الأسلوب في الكثير من أبيات الزهد في هذه المرحلة ، ولكن ليس بصيغته السلطوية ، التي تنبع من نفس صارمة متسلطة ، وإنما الأمر الخفيف "الذي لا تكليف ولا إلزام فيه ،وإنما هو طلب يحمل بين طياته معنى النصيحة والموعظة والإرشاد "[١] ، وهذا ما ألمسه في الكثير من هذه الأبيات التي يخاطب فيها الزهاد الناس مستخدمين هذا الأسلوب، ومن ذلك قول الأمير عبد الله :

فَبَادِرْ بِالإِنَابَةِ غَيْرَ وَانٍ   عَلَى شَيْءٍ يَصِيرُ إِلَى فَنَاءِ[٢]

وقوله في آخر الأبيات نفسها :

فَنَـــافِس في التُّقَـــى وَاجْــنَـحَ إليــهِ ... لَعَلَّــكَ تُرضِـــينْ رَبَّ السَّـــماءِ[3]

فالأمر في قوله (فبادر) خرج إلى الوعظ ، وطلب المبادرة ، والإسراع إلى التوبة دون تواني أو تراجع ،وهذا الأمر ترتب على إدراك حقيقة سابقة وهي فناء الدنيا في البيت السابق ، فأعقبها مباشرة بطلب المبادرة .

كما أن الأمر في قوله (فنافس) يراد به التحفيز والترغيب في هذه المنافسة الشريفة التي تطمح إلى رضا الله عز وجل ،والإسراع في الإقبال عليها دون تراجع .

---

١ علم المعاني ، د/عبد العزيز عتيق — ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م – دار النهضة العربية للطباعة والنشر— ص ٧٨

٢ كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس ٢/ ١٥٥

٣ نفسه

والأسلوب الدعوي يجنح دائما إلى النظر والتأمل ، وقد وظف ابن عبد ربه أسلوب الأمر في ذلك أفضل توظيف حيث يقول:

اِنظُــرْ إِلَــيَّ إِذا أُدرِجـــتُ في كَفَـــني ... وَاِنظُــرْ إِلَــيَّ إِذا أُدرِجــتُ في اللَحــدِ

وَاِقعُــد قَلــيلاً وَعــايِن مَــن يُقــيمُ مَعــي ... مِمَّـــن يُشَـــيِّعُ نَعشـــي مِـــن ذَوي وُدّي[1]

فقد استخدم أفعال الأمر (أنظر ، وأقعد ، وعاين) ، التي تدعو إلى النظر والسكون للتأمل وأخذ العظة والعبرة ، من مصير الإنسان ، ونهايته الحتمية .كما استخدم غربيب الطليطلي أسلوب الأمر في الوعظ في قوله :

قُـــلْ لِمَـــــنْ مثَّـــلَ في أَشْـــعَارِهُ يَـــذْهَبُ المـــرءُ ويَبْقَـــى مَثَلُـــهْ
نَـــافِسِ المُحْســـنَ في إِحْسَـــانَهُ فَسَـــيَكْفِيْكَ مُسِـــيْئاً عَمْلُـــهْ[٢]

فهذه الأوامر التي أطلقها غريب والمتمثلة في (قُلْ ، ونافسْ) ، ظهرت فيها بعض السلطوية ذلك لأنها موجهه للإنسان الذي اغتر بالأمل في هذه الحياة . فالشاعر يريد أن يزجره ويذكره بالموت والفناء ، ويدعوه إلى المنافسة في الإحسان طلبا لرضا الرحمن . كما يأخذنا ابن عبد ربه في الوعظ باستخدام فعل الأمر في منحى آخر وذلك في قوله :

بَـادِرْ إلى التَّوبَـةِ الخَلصـاءِ مُجْتَهِـداً وَالمَـوْتُ وَيْحَـكَ لَمْ يَمْدُدْ إليكَ يَـدا
وَارْقُبْ مِـنَ اللَّهِ وَعْـداً لَيْسَ يُخْـلِفُهُ لا بُـدَّ لِلَّـهِ مِـنْ إِنْجـازِ مـا وَعَـدا[٣]

---

١ ديوان الغزال — ص ٦٤
٢ نفح الطيب — ٤/ ٣٣٢
٣ ديوان ابن عبد ربه — ص٦٨

فقد استخدم الشاعر فعلي الأمر (بادر ، وارقب) وهما يمثلان السبب والنتيجة ، حيث جعل المبادرة والإسراع إلى التوبة قبل الممات ،سببا لإنفاذ الله وعده بقبول التوبة .

٢- أسلوب النهي :

عرّف الدكتور عبد السلام هارون النهي بأنه :"طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء ،وصيغته واحدة ، وهي المضارع المقرون بلا الناهية "[١] .

وهذا الأسلوب استخدمه الشعراء في كثير من الأغراض الشعرية خارجين به عن معناه الحقيقي إلى العديد من المعاني الأخرى ،ومن ضمن هذه الأغراض الزهد الذي

حظي باستخدام هذا الأسلوب التعليمي في طلب الكف عن الكثير من الأمور التي تصب في مجال الدعوة ،حيث يحمل بين ثناياه في أغلب الأبيات معنى من معاني النصح والتوجيه والإرشاد ،من ذلك على سبيل المثال قول ابن عبد ربه في الكف عن الأسف على الماضي :

لا تأسَفِ الدَّهرَ عَلى مَا مَضَى   والقَ الذي ما دونَهُ مِنْ مَحيصْ[٢]

وغرض الشاعر من ذلك تقييد النفس بالإيمان بالقضاء والقدر دون الأسف على الماضي المنصرم ، وما حدث فيه من أحداث ،وقد جمع الشاعر بين النهي والأمر لما ينطوي عليه هذا الأمر من مساهمة في عملية التوجيه التي يريدها الشاعر .

---

١ الأساليب الإنشائية في النحو العربي ، عبد السلام هارون-١٤١٠هـ-١٩٩٠م -دار الجيل- بيروت - ص١٥
٢ ديوان ابن عبد ربه — ص ١٠٥

كذلك يقول عبد الملك بن حبيب :

لا تَنْسَ- لا يُنْسِكَ الرحمنُ- عاشورَاء   واذكُرْهُ لا زلْتَ في الأَحْيَاءِ مَذْكُورا[١]

استخدم الشاعر النهي في موضعين بغرضين مختلفين ، ففي قوله (لا تنسَ) النهي هنا بغرض التذكير بفضل هذا اليوم العظيم ، أما قوله (لا ينسك) فجاء النهي بغرض الدعاء . وفي قول ابن عبد ربه :

لا تَبكِ لَيْلَى ولا مَيّه   ولا تَنْدُبَنْ راكِباً نِيّه[٢]

فقد جاء النهي في كلٍ من الموضعين (لا تبك) ، (ولا تندبن) بغرض التوبيخ ،ذلك لأن هذا الأمر "المنهي عنه لا يشرف الإنسان ولا يليق أن يصدر عنه "[٣] .

ويقف ابن عبد ربه من حياة الترف والبذخ موقفا محايدا يدل على ذلك قوله في قصيدة طويلة تضم بعض النواهي التي وجهها لحاشية الأمير:

تَجَنَّبْ لِبَاسَ الخَزِّ إنْ كُنْتَ عَاقِلاً ... ولا تَخْتَتِمْ يَوْماً بِفَصِّ زَبَرْجَدِ
ولا تَتَطَيَّبْ بِالغَوالِي تَعَطُّراً ... وَتَسْحَبَ أَذْيَالَ المُلاءِ المُعَضَّدِ
ولا تَتَخَيَّرْ صَيِّتَ النَّعْلِ زاهِياً ... ولا تَتَصَدَّرْ في الفِراشِ المُمَهَّدِ
ولا تَطْمَحِ العَيْنانِ مِنكَ إلى امْرِئٍ ... لَهُ سَطَواتٌ بِاللِّسانِ وبِاليَدِ[٤]

١ وردت هذه الأبيات في الإحاطة في أخبار غرناطة –٢/ ٣٧ – والمقتبس من أنباء الأندلس – ص ١٨٤–وجذوة المقتبس –ص٦٤ –كما وردت في نفح الطيب ٦/٢

٢ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٧١

٣ علم المعاني–ص٨٦

٤ ديوان ابن عبد ربه – ص ٧٣

ففي هذه الأبيات نجد عدة نواهٍ تتمثل في قوله (لا تختتم ، ولا تتطيب ، ولا تتخير ، ولا تتصدر ، ولا تطمح) ، وقد أتى بها الشاعر في هذا المقام بغرض التوجيه والإرشاد بضرورة الابتعاد عن هذه الأمور التي يعد التكلف فيها إسرافا لا مبرر له ، ولا فائدة منه ،بل ربما يجر إلى الكبر والغرور ، وهي أمور نهى عنها الدين الإسلامي ونفر منها .

٣– أسلوب الاستفهام :

يعد الاستفهام من الأساليب التي تتعمق في النفس البشرية ،وتبحث في أسرارها ، ذلك لأنه "طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بأداة خاصة "[١]، ومن شأن الاستفهام أنه يجعل الإنسان يبحث عن إجابة ،ويتطلب ذلك النظر والتأمل وإعمال العقل لذا وجد فيه الزهاد خير معين في مهمتهم في إيقاظ الناس من غفلتهم ،وتنبيههم لحقائق غابت عنهم ،وشغلوا عنها بمباهج الحياة الزائلة . يقول الغزال:

فَهَلْ لَكَ فِي الدُّنيا سِوَى السَّاعَةِ التي   تَكُونُ بِهَا السَّرَاءُ أَو حَاضِرِ الضُّرّ[٢]

والاستفهام هنا جاء "للنفي لا لطلب العلم بشيء كان مجهولا"[٣]، فظاهر البيت الاستفهام،وباطنه النفي ، والمعنى (ليس لك في الدنيا) .وفي قول ابن عبد ربه:

أَتَلْهُو بَينَ باطِيةٍ وَزِيرِ   وأنتَ مِنَ الهلاكِ على شَفيرِ ؟[٤]

---

١ علم المعاني –ص٨٨

٢ ديوان الغزال – ص ٨٠

٣ علم المعاني–ص ٩٦

٤ ديوان ابن عبد ربه – ص ٩٧

وقوله:

أَتَفْرَحُ والمَنِيَّةُ كُلَّ يَوْمٍ   تُرِيكَ مَكَانَ قَبرِكَ في القُبورِ ؟[١]

خرج الاستفهام في البيتين إلى الإنكار التوبيخي ،وهو إنكار عن أمر واقع في الحال أو يخشى من وقوعه في المستقبل[٢]، دل على ذلك استخدامه الفعل المضارع مع الاستفهام

في قوله (أتلهو ، وأتفرح) ،فالشاعر ينكر هذا الفعل من إنسان نهايته محتومة ،ومصيره معلوم

ومن الاستفهام أيضا ما ورد في قول الغزال:

وكَيفَ أُبالي وَالزَّمانُ قَد انقَضى   وَعَظمِي مُهيضٌ وَالمَكانُ شَطيرُ ؟[٣]

يحمل هذا الاستفهام دلالة التعجب وعدم مبالاته لما وصل إليه من ضعف وهوان بسبب تقدم عمره . ومن الاستفهام قول ابن عبد ربه أيضا :

أصَمَّمَ في الغوايَةِ أَمْ أَنَابا   وَشَيْبُ الرَّأسِ قَدْ خَلَسَ الشَّبَابَا ؟[٤]

وهنا يطلب بالاستفهام التصور دل على ذلك ذكر المستفهم عنه بعد الهمزة مباشرة (أصمم) ،وذكر (أم) بعدها والمعادل (أنابا) [٥] ، وذلك بغرض الدعوة إلى التوبة والإنابة والاتعاظ بالشيب .

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٩٧

٢ انظر علم المعاني – ص ١٠٢

٣ ديوان الغزال – ص ٧٣

٤ ديوان ابن عبد ربه – ص ٤٥

٥ انظر البلاغة فنونها وأفنانها– علم المعاني، د/فضل حسن عباس –دار الفرقان للنشر والتوزيع– ط٧-١٤٠٧هـ/١٩٨٧م –ص١٨٢

كما يقول الغزال:

إذا أُخبِرتَ عَن رَجُلٍ بَريءٍ   مِنَ الآفاتِ ظاهِرُهُ صَحيحُ

فَسَلْهُم عَنهُ هَلْ هُوَ آدَمِيٌّ ؟   فَإِنْ قالوا نَعَمْ فَالقَولُ رِيْحُ[٢]

الاستفهام هنا أيضا خرج عن معناه الأصلي إلى التهكم والسخرية ، فالشاعر يؤمن بالحقيقة التي تقضي بعدم وجود إنسان خالٍ من الذنوب تماما ،ويسخر ممن يدعي ذلك .

كما ورد الاستفهام لدى الغزال في قوله:

أَلَمّا يُبصِروا ما خَرَّبَتْهُ الدَّهورُ مِنَ المَدائِنِ وَالقُصورِ[3]

يدرك الغزال أن ما خربته الدهور من المدائن والقصور أمر ظاهر للعيان يدركه كل ذي عقل ولكنه أراد بالاستفهام هنا التعجب من حالهم ، ومن فخرهم على الفقراء حتى في القبور ،ويظهر في البيت ضعف التأليف المتمثل في عودة الضمير في (خربته) على متأخر لفظا ورتبه وهو (الدهور) .

ومما ورد من أبيات في الاستفهام أكثر من ذلك بكثير ، وفي ذلك دلالة على أن شعر الزهد وجد متنفساً في الاستفهام ، ووسيلة للدعوة ، وتأكيداً لبعض المعاني الجوهرية .

---

٢ ديوان الغزال – ص٥٩

٣ نفسه – ص ٨٦

٤- أسلوب النداء:

للنداء أهمية بالغة في حياتنا ،حيث لا غنى عنه في حديثنا اليومي ، لذا كان للنداء أسلوب خاص ، ونسق معين يسير عليه ، ومهما اختلف اللغويون في كمال هذا النسق أو نقصانه، تظل جملة النداء تامة مكتملة الأركان ، ووسيلة من وسائل الخطاب .

هذا الأسلوب يمكن أن نعده من الأساليب التي أكثر زهاد هذه المرحلة من استخدامه ، و ذلك لما يولده من الإحساس بالقرب والألفة بين القائل والمستمع ، الأمر الذي جعله أصلح في تقديم الموعظة الحسنة ، ويمكن أن نستعرض بعض الأبيات التي تناولت هذا الأسلوب من ذلك قول الأمير عبد الله:

يـــا مَـــنْ يُراوِغُـــه الأَجَـــلْ   حتَّـــامَ يُلْهِيـــكَ الأَمَـــلْ[1]

فالنداء هنا يُشعر بالحرص على المنادى والخوف عليه ، خاصة وأن هذا النداء أتى بعده حرف الجر (من) الذي يوحي بتوجيه النداء لفئة مخصصة من الناس .

ويقول ابن عبد ربه :

يَـــا وَيلَتَـــا مِـــنْ مَوْقِـــفٍ مَـــا بِـــهِ   أَخْـــوفُ مِـــنْ أَنْ يعـــدِلَ الحـــاكمُ[2]

يظهر في البيت كثافة حسية جعلت الشاعر ينادي على نفسه بالويل والهلاك ، وهذا

---

١ كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب – ٢/ ١٥٥

٢ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٥٠

النداء يحمل في طياته الهيبة والتعظيم لهذا الموقف العظيم . ويلحق بالبيت السابق قول ابن عبد ربه:

يَا ربِّ غُفرانَك عن مُذنبٍ　　　أسرفَ إلا أنَّهُ نادِمُ[1]

يخرج النداء هنا إلى الدعاء واللجوء إلى الله بالتوبة وطلب المغفرة ،وهي نهاية طبيعة لتأجج مشاعر الشاعر واستحضاره موقف الحساب وما يتبعه من جزاء سواء بالثواب أو العقاب .وفي موقف آخر يظهر الشاعر تبرما في قوله :

يَا أيُّهَا الشَّادِي صَهٍ　　　لَيْسَتْ بساعةِ شَدْوِ[2]

فالنداء هنا جاء بغرض إظهار الضجر والغضب مما علا رأسه من الشيب الذي يرى فيه الشاعر نهاية لبهجته وسروره مما جعله يدعو الشادي إلى الصمت .وفي موقف الضجر والتبرم أيضا من الشيب يقول موسى بن محمد بن حدير:

فَيَا شَرَّ ضَيْفٍ حَلَّ بِي، وَحلولُهُ　　　يُخَبِّرني أنْ المَمَاتَ قريبُ[3]

لا يخفى مقصد الشاعر من النداء هنا الذي توجه به للشيب بنفس ساخطة متبرمة من هذا الضيف الثقيل الذي يحمل معه خبر اقتراب الموت ، وهو خبر تنفر منه النفس مع إدراكها بحقيقة وقوعه .

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٥٠

٢ نفسه – ص ١٧٠

٣ الحلة السراء – ٢٣٦/١

كما يقول ابن عبد ربه أيضا :

يَـا غَـافِلاً مَـا يَـرَى إلا مَحَاسِـنَهُ   وَلَـو دَرَى مَـا رَأَى إلا مَسَـاوِيهِ[1]

فالشاعر وجه نداءه إلى نكره غير مقصوده مما يدل على أن الخطاب عام ، الغرض منه التنبيه من هذه الغفلة والدعوة إلى النظر والتأمل .

ويمكن أن أستخلص مما سبق أن رغبة الشاعر في النداء تكمن وراءَها في الغالب رغبه في التنبيه والدعوة ،لذا كان يوجهه في الغالب إلى فئة مخصصة من الناس ، وقد طوع الشاعر أسلوب النداء في هذا المجال واستفاد من الأساليب الأخرى التي تدعم الهدف الذي يصبو إليه حيث مزج في مواضع كثيرة بين أسلوبي النداء ، والاستفهام الذي يبحث في أعماق النفس البشرية ويستطلع خفاياها حتى تزداد رغبة في الإقبال على ما يُقدم من موعظة وتستجيب لها .

ويرى الدكتور سعد شلبي أنه مما يلاحظ على أسلوب النداء الذي سلكه شعراء الزهد ، أنهم أكثروا من استخدام أداة النداء (يا) ،ولعل ذلك من آثار شيوع الغناء ومجالس الاستماع إلى القيان[2] .

---

١ ديوان ابن عبد ربه — ص ١٦٩

٢ انظر الأصول الفنية للشعر الأندلسي –ص٤٣٤

٥- أسلوب التمني

"هو طلب الشيء المحبوب الذي لا يرجى حصوله إما لكونه مستحيلا ،أو لكونه بعيد الحصول "[(١)] ،ومع أن هذا التعريف يبرز الفرق بين التمني والترجي ،وذلك بأن التمني يكون مع أمر لا يتوقع ،ولا يرجى حصوله ،في حين الترجي يكون مع أمر يتوقع ،ويرجى حصوله ، إلا أنه من الخطأ قصر مفهوم التمني على الأمور المستحيلة وغير الممكنة إذ أن التمني يكون مع الممكن وغير الممكن ، وقد استخدم شعراء الزهد هذا الأسلوب في شعرهم من هؤلاء ابن عبد ربه في قوله :

فليـــتَ شِـــعري مَـــا الـــذْي أدْخَلـــــني في شُـــــغُلي[(٢)]

استخدم الشاعر العبارة المشهورة لدى الشعراء (ليت شعري) ،وقد أكثر المشارقة من استخدام هذه العبارة في شعرهم ونثرهم ،وهي تأتي بمعنى " ليتني علمت " [(٣)] ، فالشاعر يؤمن بارتباط الرزق بالقدر ، لذا لا يرى ضرورة لعمله مادام الرزق مقدرًا من الله عز وجل .

هذا بالنسبة إلى التمني باللفظ الدال عليه في الأصل ، وهناك بعض الألفاظ الأخرى التي تدل على التمني منها (لعل، وهل ، ولو ، وعسى) وقد استخدم الشعراء في الزهد (لعل)

---

١ دراسات في علم المعاني، د/عبد الواحد حسن الشيخ-١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م - مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية –مصر –ص٨٦

٢ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٤٣

٣ الصحاح في اللغة – مادة (شعر)

كما ورد عند الأمير عبد الله في قوله :

فَنَافِس في التُّقَى واجنح إليه　　　لَعَلك تُرضِينْ رَبَّ السَّماءِ[١]

فالمنافسة في تقوى الله عز وجل والجنوح إليه طلبا لرضا الله عز وجل من الأمور المحبوبة التي يرجو الشاعر أن يحظى بها الإنسان ويدعوه إليها ،

٦- أسلوب الأسى والتحسر :

ويظهر هذا الأسلوب لدى بعض الشعراء منهم الغزال في قوله عن فساد الدنيا :

لَقَدْ فَسَدَتْ فَما تَلْقَى　　　بِها مَن لَيْسَ ذا شَجَنِ

وَصارَ الحَيُّ مِنّا يَغْـ　　　ـبِطُ المَلفُوفَ في الكَفَنِ[٢]

فالشاعر يتحسر على هذه الحياة التي عم فيها الفساد وانتشر ولم يترك أحدا إلا وقد أصابه بالحزن والأسى ،الذي بلغ بهم إلى غبط الموتى على رحيلهم من هذه الدنيا . كما يظهر هذا الأسلوب في قول ابن عبد ربه:

وَلَّتْ حُمَيَّا الشَّبابِ عَنِّي　　　فَلْهفَ نَفْسي على الشَّبابِ[٣]

فالشاعر يظهر حسرته على شبابه الذي ولى عنه ويظهر ذلك في تلهفه في قوله (فلهف نفسي) ،ذلك لأن عودة الشباب من الأمر المحال .

---

١ كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب – ٢/ ١٥٥

٢ ديوان الغزال – ص ١٠٩

٣ ديوان ابن عبد ربه – ص ٥١

ويظهر موسى بن محمد بن حدير حسرته على ما مضى من شبابه لدرجة البكاء والنحيب في قوله:

وَأَبكِي عَلى مَا قَدْ مَضَى مِنْ شَبِيْبَتِي   بُكَاءَ مُحِبٍّ قَدْ جَفَاهُ حَبِيْبُ[1]

٧- أسلوب الإعجاب بالنفس :

ومما ورد من إعجاب الشاعر بنفسه بسبب بعده عن المعاصي قول الغزال:

لَعَمرِيَ ما مَلَّكْتُ مِقوَدِيَ الصِّبا   فَأَمْطُوَ للذّاتِ في السَّهلِ وَالوَعِرِ

وَلا أَنا مِمَّنْ يُؤثِرُ اللَهوَ قَلبُه   فَأُمسي في سُكرٍ وأَصبِحَ في سُكرِ

وَلا قارِعٌ بابَ اليَهُودِيِّ مَوْهِناً   وَقَد هَجَعَ النُّوامُ مِن شَهوَةِ الخَمْرِ[2]

هذه الأبيات مجرد نموذج من قصيدة طويلة ذكر فيها الغزال منهجه في الحياة ورسم لنفسه طريقا سويا فيها ،ويتجلى فيها مدى إعجاب الشاعر بنفسه وبمنهجه. ومما ورد من إعجاب الشاعر بنفسه بسبب علمه ، قول الفقيه عبد الملك بن حبيب :

لا تَنْظُرَنَّ إلى جِسمي وقِلّتِهِ   وانْظُرْ لصَدري ومَا يحوي مِنْ السننِ

فَرُبَّ ذِي مَنْظَرٍ مِنْ غَيرِ مَعْرِفَةً   ورُبَّ مَنْ تَزدرِيهِ العينُ ذو فِطَنِ

ورُبَّ لؤلؤةٍ فِي عينِ مَزْبَلَةٍ   لم يُلْقَ بَالُ لها إلاّ إلى زمَنِ[3]

---

١ الحلة السراء – ١/٢٣٦

٢ ديوان الغزال – ص٧٨

٣ نفح الطيب – ٢/٨

تدل هذه الأبيات دلالة واضحة على ثقة الشاعر بنفسه وبما يلم به من علوم حتى قيل أنه: "تصرف في فنون العلوم ،وعرف كل معلوم،وسمع بالأندلس وتفقه ، حتى صار أعلم من بها وأفقه "[١] . وإعجاب عبد الملك بنفسه وبعلمه تجاوز ذلك إلى صنعته حيث يقول:

صَلاحُ أَمْرِي وَالذِي أَبْتَغِي سَهْلٌ عَلَى الرَّحمَنِ فِي قُدْرَتِهْ

أَلْفُ مِنْ الحُمْرِ وَأَقِلْلْ بِهَا لِعَالِمٍ أَوفَى عَلَى بُغيَتِهْ

زِريَابُ قَدْ يَأْخُذُهَا دَفعَةً وَصِنْعَتِي أَشْرَفُ مِنْ صَنْعَتِهْ[٢]

لقد استغل الشعراء هذا الأسلوب في مخاطبة عامة الناس ووعظهم وتقديم النصيحة لهم ساعدهم على ذلك ما يتميز به هذا الأسلوب من مخاطبة العقل بالحجج والبراهين والألفاظ القوية ،كما اتخذوا من حديثهم عن النفس وإعجابهم بها وسيلة لإبراز جانب الدين والتقوى فيهم والفخر بذلك .

٨- أسلوب القسم

اقتضت ضرورة التأكيد [٣]إلى لجوء بعض الشعراء إلى هذا الأسلوب ،لما فيه من تأكيد لمعانٍ عميقة قد تفتقر إليها بعض الأنفس، ذلك لأن القسم معناه (الحلف واليمين)

---

١ نفح الطيب-٦/٢

٢ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس – ص ٢٦٥ – وفي نفح الطيب –٧/٢

٣ حيث ينقل هذا الأسلوب "الجملة الخبرية الابتدائية الخالية من التوكيد إلى جملة طلبية إذا شعر المتكلم بأن مخاطبه متردد في الحكم وعدمه ويحتاج إلى لون من التوكيد ليزيل تردده .."أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي- ص٢٢٧

ولا يلجأ الإنسان لذلك إلا رغبة في تأكيد أمر ما أو نفيه ، من ذلك تبرئة الغزال نفسه من حياة اللهو والعبث والمجون حيث يقول :

لَعَمْـري مـا ملّكْـتُ مِقْـوَدَي الصِّـبا فـأَمْطُوَ للـذّات في السَّـهل والـوَعرِ[1]

هذا النوع من القسم يطلق عليه الدكتور عبد السلام هارون (قسم الإخبار) ، ويقصد به التأكيد . لأنه يخبر عن أمر ويؤكده ، وقد أكثر شعراء الزهد من استخدامه . ويكثر الغزال من استخدام هذا الأسلوب حيث يقول في موضع آخر :

أَصبَحتُ وَاللَـهِ مَحسُـوداً عَلـى أَمَـدٍ مِـنَ الحَيـاةِ قَصـيرٍ غَـيرِ مُمتَـدِّ[2]

هذا القسم يحمل بين جوانبه خبرا يريد الغزال التأكيد عليه، وهو كثرة من يحسده على امتداد عمره ،وهو أمد قصير لا بد أن ينتهي ، وهذا القسم حُذف جوابه لأنه جاء معترضا في أثناء الكلام[3] . ومن الشعراء الذين استعملوا هذا الأسلوب غربيب الطليطلي في قوله:

لَعَمْـرُكَ مـا يَـردُّ المَـوْتَ حِصْـنٌ إذا انْتَـابَ المُلُـوكَ ولا حِجَـابُ
لَعَمْـرُكَ إنَّ مَحْيـايَ ومَـوْتي إلى مَلِـكٍ تـذِلُّ لَـهُ الصِّـعَابُ[4]

---

١ ديوان الغزال — ص٧٨
٢ نفسه — ص ٦٤
٣ انظر الأساليب الإنشائية –ص١٧١
٤ المغرب في حلى المغرب — ٢/ ٢٤ ، كما وردت الأبيات في جذوة المقتبس — ص ٣٠٧ ، مع تغيير (وما ندري)

كرر الشاعر القسم في البيتين ،وهو قسم إخبار أريد به إحقاق الحق ،واثبات الخبر ، وذلك بدخوله أولا على جملة منفية لتأكيد هذا النفي الذي يحمل حقيقة وقوع الموت الذي لا يرده شيء ، ثم بدخوله على جملة مثبته ومؤكدة بـ(إنَّ) لتقوية هذا التوكيد الذي يقر فيه الشاعر بمرجعيته لله عز وجل ،وبأن حياته وموته للملك الجبار وذلك يدل على قوة إيمانه واعتقاده بالله عز وجل وقدرته .

٩- أسلوب القصر:

لعب القصر دوراً مهماً في إيصال الرسالة التي عمل الزهاد على إيصالها للناس في مجال الدعوة ،وذلك لأنه يساعد على إثبات أمرٍ ما أو تقريره ،فهو "يعد أحد الأساليب البلاغية التي يقتضيها المقام ويدعو إليها حال المخاطب "[١]، ومن أشهر طرقه أربعة (النفي والاستثناء، تقديم ما حقه التأخير ،إنما ، العطف بلا أو بل أو لكن) ،وقد سلك الزهاد في هذه المرحلة هذا الأسلوب بكافة طرقه إلا أن أكثر طريق اعتمدوا عليه هو النفي والاستثناء الذي يتميز بذائقة خاصة تجعل المتلقي يختار معنى واحد من ضمن العديد من المعاني التي تترامى في ذهنه . ومن أقوال ابن عبد ربه في الدنيا قوله:

هِيَ الدَّارُ مَا الآمَالُ إِلاَّ فَجَائِعُ عَلَيْهَا وَلا اللَّذَّاتُ إِلاَّ مَصَائِبُ[٢]

فقد استخدم الشاعر القصر بالنفي والاستثناء في قوله (ما الآمال إلا فجائع) ،وقوله

---

١ البلاغة فنونها وأفنانها —ص٣٧١

٢ ديوان ابن عبد ربه — ص ٤٩

(ولا اللذات إلا مصائب) ، في بيان ماهية الدنيا وحقيقة آمالها الكاذبة ولذاتها الزائلة .

وفي ذكر الموت يقول ابن عبد ربه :

وَمَـا المَـوتُ إلا شَـاهِدٌ مِثْـلَ غَائِـبٍ وَمَـا النَـاسُ إلا جَاهِـلٌ مِثْـلُ عَـالِمِ[1]

كل شطر من البيت هو عبارة عن قصر بالنفي والاستثناء ،استخدمه الشاعر لبيان خلاصة تجربته ورؤيته للموت الذي يظل حاضراً لا يغيب ،كذلك رؤيته للناس الذين مع علمهم بهذه الحقيقة ، إلا أن تناسيهم لهذه اللحظة تجعلهم كالجاهل بها .

هذا بالنسبة إلى ما ورد من قصر باستخدام النفي والاستثناء ، وهو أكثر الطرق المستخدمه يليها استخدامهم للقصر (بإنما) ،التي أفرد لها الجرجاني فصلاً من كتابه (دلائل الإعجاز) وقال في فائدتها "أنها تفيد في الكلام بعدها إيجاب الفعل لشيء ،ونفيه عن غيره" [2] ، وقد ذكر أحد الباحثين أن القصر (بإنما) "يقوم بتحويل المفهوم السائد إلى مفهوم آخر غير مطروق أو غير متوقع ،وعادة لا يذكر هذا المفهوم السائد إنما يستشف من المقام"[3] ومن ذلك قول محمد بن عبد السلام الخشني:

أَخِـي إِنْمَـا الـدُنيَا مَحَلَّـةُ فُرْقَـةٍ وَدَارُ غُـرُورٍ آذَنَـتْ بِفِـرَاقِ[4]

فقد يكون لدى الناس مفاهيم عدة عن الدنيا ، ورؤى مختلفة إليها إلا أن الشاعر هنا

---

١ ديوان ابن عبد ربه — ص١٥٧

٢ كتاب دلائل الإعجاز،الشيخ عبد القاهر الجرجاني- علق عليه محمود شاكر-ط٣-١٤١٣هـ/١٩٩٢م-مطبعة المدني بالقاهرة –دار المدني بجدة– ص٣٣٥

٣ بديع التراكيب في شعر أبي تمام –٢ الجمل والأسلوب، د.منير سلطان –ط١- الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية -ص٥٠

٤ جذوة المقتبس — ص ٦٤

باستخدام (إنما) صرف الأنظار عن هذه المفاهيم ووجهها إلى الرؤية الحقيقية لهذه الحياة الفانية ،التي يعد الفراق فيها أصدق دليل على إثبات هذه الحقيقة . وباستخدام القصر (بإنما)يقول محمد بن مسرة :

إنَّمَا المَوتُ غَايَةٌ نَحْنُ نَسْعَى   خَبَبَاً نَحْوَهَا عَلَى الأَقْدَامِ
إنَّمَا اللَّيْلُ والنَّهَارُ مَطَايَا   لِبَنِي الأَرضِ نَحْوَ دَارِ حِمَامِ[1]

يدرك الشاعر أن الناس لا يجهلون حقيقة الموت ووقوعه بهم في أي لحظة ، وأنهم في سيرهم في هذه الحياة يتجهون إليه في وقت لا يعلمه إلا الله عز وجل ، ولكن الشاعر أراد بهذا الأسلوب أن يؤكد هذا الأمر ويقرر وقوعه ، ويذكر الناس بهذه النهاية التي يغفلون عنها .وفي الشيب يقول الغزال مخاطبا ملكة المجوس:

لا تُنكري وضَحَ المَشيبِ فإنّما   هو زَهْرَةُ الإفْهَامِ والألْبَابِ[2]

استخدم الشاعر القصر (بإنما) ليقلب ويغير ما تعتقده الملكة في الشيب من أنه دلالة على الكبر والضعف ، إلى كونه دلالة على كمال العقل والحكمة .أما القصر بالعطف بـ(لكن) فقد ورد في موضع واحد فقط عند ابن عبد ربه في قوله:

ومَا الجُودُ مَن يُعطي إذا مَا سَأَلتَهُ   ولكنَّ مَنْ يُعطي بغَيْرِ سُؤالِ[3]

١ كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس- ص ٢٧١
٢ ديوان الغزال – ص ٥٥
٣ ديوان ابن عبد ربه - ص ١٣٩

إن القصر بهذه الطريقة يتطلب أن يكون المقصور عليه ما بعد (لكن) ، لذا هنا خصص صفة الكرم بالشخص الذي يعطي بغير سؤال . كذلك القصر بالعطف بـ(بل) ورد في موضع واحد عند ابن عبد ربه أيضا وذلك في قوله في عيادة المريض:

مَا أَنتَ وَحْدَكَ مَكْسُوّاً شُحُوبَ ضَنَىً   بَلْ كُلُّنا بِكَ مِن مُضْنىً وَمَشْحُوبِ[1]

لم يقصر الشاعر الألم والشحوب على المريض وحده بل شمل به الجميع اللذين علاهم بسبب حزنهم وقلقهم على هذا المريض ما علاه من شحوب وضنى، وفي هذا الأمر دلالة على روح التكاتف والتآزر بين المسلمين الذين يشعر كل منهم بألم الآخر .

ومن هنا يتبين ما تميز به شعر الزهد من سهولة الألفاظ ووضوحها وبُعدها عن الغموض ، يقول الدكتور نافع محمود : "ولا عجب في هذا فهو ذوق العصر وما اقتضاه التطور اللغوي ،وما تطلبته الحياة الرقيقة في الأندلس "[2] ، كما تميز بالميل إلى البساطة والشعبية التي جعلته يقترب من العامة دلنا على ذلك اقتراب بعض الأبيات من الكلام العادي كما ورد لدى عبد الملك بن حبيب .الأمر الذي ولّد نوعًا من الألفة المحببة في كلامهم ساعد عليها استخدامهم لبعض الأدوات مثل (إنما) التي "تجعل من الأمور الغريبة وكأنها مألوفة ، ومن البعيدة وكأنها مسلمات لا تقبل الشك "[3] .

---

١ ديوان ابن عبد ربه — ص ٥٢

٢ اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري —ص٢٢٤

٣ بديع التراكيب في شعر أبي تمام– ص٤٨

هذا بالإضافة إلى استخدامهم التكرار ،وبعض الأساليب كالاستفهام ،والنهي ،كل ذلك كان له دور بارز في خلق مثل هذه الألفة .

ومن الجدير بالذكر أن الأساليب الطلبية كالاستفهام والنداء والأمر والنهي كانت أكثر شيوعاً في شعر الزهد من الجمل الخبرية "لأن معاني الجمل الطلبية لا يحتاج الشاعر فيها إلى الإدلاء بالحجة والبرهان في حين أن الجملة الخبرية تحتاج إلى تصديق أو تكذيب ،وهذا أقرب إلى روح النثر منه إلى الشعر "(١) .

ومع كل ما سبق من مميزات ،وما سبق أن عرفناه عن الأندلسيين وعن مدى حرصهم على اللغة وعلى تعلمها من مصادرها ، إلا أن ذلك لم يمنعهم من الوقوع في بعض التجاوزات اللغوية ، وقد وقفت سابقا على البعض منها كلفظة (الثراء)عند الأمير عبد الله التي خرجت عن معناها ،ولفظة (الخلصاء) عند ابن عبد ربه التي استعملت في غير معناها الأصلي ،ومخالفة القياس وضعف التأليف عند الغزال في عودة الضمير على متأخر لفظا ورتبة ،هذا بالإضافة إلى الاضطراب الذي يحدث في بعض الأبيات نتيجة للتقديم والتأخير وللتكرار الذي يأتي به الشاعر لغير فائدة ،ويصبح تكلفا لا ضرورة له ،إلا أن هذه الأمور في مجملها لا تفقد شعر الزهد بريقه المعتاد ،ودوره الفعال في بلورة الفكرة وإيصالها إلى المتلقي .

---

١ لغة الشعر في القرنين الثاني والثالث الهجريين-ص٣٤

المبحث الثاني

الصورة الفنية

تعد الصورة أفضل أداة تعبيرية ،ذلك لأنها تكشف عن الحالة الشعورية ، والوجدانية ،وتعمل على بلورتها وإخراجها إلى الوجود في أجمل حلة،وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أهمية التصوير في الشعر وقيمته الفنية .

ويرى الدكتور جابر عصفور أن الصورة "طريقة خاصة من طرق التعبير ، أو وجه من أوجه الدلالة ، تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير ،ولكن أيا كانت هذه الخصوصية ، أو ذلك التأثير ، فإن الصورة لن تغير من طبيعة المعنى في ذاته إنها لا تغير إلا في طريقة عرضه وكيفية تقديمه، ولكنها -بذاتها- لا يمكن أن تخلق معنى "(1) .

أي أن الصورة مجرد قالب جميل يقدم فيه الشاعر المعنى الذي يريده ، ويُحدث عن طريقها التصور التخيلي والمتعة الذهنية لدى المتلقي ،دون المساس بجوهر المعنى وقيمته الفنية .

وذهب الدكتور علي الغريب إلى أبعد من ذلك حين جعل الصورة هي الأداة الأساسية التي يمكننا من خلالها التفريق بين عصر وعصر ،وبين شاعر وشاعر حيث يقول :"وتمثل الصورة دورا هاما في بناء الشعر إذ إنها تبقى أداته الأولى والأساسية تفرق عصرا عن عصر وتيارا عن تيار وشاعرا عن شاعر وتظهر أصالة الخالق وتدل على قيمته وترمز إلى

---

١ الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د.جابر عصفور-١٤٠٠هـ-١٩٨٠م -دار المعارف-القاهرة-ص٣٥٨

عبقريته وشخصيته بل تحمل خصوصيته وفرديته لأنها الأداة الوحيدة التي ينقل بها تجربته ولا يمكن أن يستعيرها من سواه "[1] .

فالصورة في كلام العرب ترد "على ظاهرها وعلى معنى حقيقةِ الشيء وهيئته وعلى معنى صِفَتِه" [2] .

لكن في الشعر عندما ترتبط هذه الصورة بمشاعر الشاعر وأحاسيسه ،ويدعمها بقدرته الإبداعية ويترجمها بلغته وألفاظه وتراكيبه فهو يكون بها مشهدًا حسيا متكامل ينبض بالحياة ويتجدد بالحركة ،سواء كان هذا المشهد حقيقة أم خيال .

ولتكتمل روعة الصورة الفنية لا بد من الخيال الذي يلعب دورا مهما في التصوير ،حيث يعد "عنصر هام في الأدب له فاعليته القوية وأثره الرائع وسلطانه الشديد وجاذبيته الملحوظة"[3] . ففي الغالب لابد أن ترتبط الصورة الفنية بالخيال ،حتى أن الدكتور جابر عصفور يعد الصورة "أداة الخيال ووسيلته ومادته الهامة التي يمارس بها ومن خلالها فاعليته ونشاطه "[4] .

فالخيال هو أداة رسم هذه الصور الحية التي ينقل الشاعر عن طريقها المتلقي ليعيش المشهد وكأنه حقيقة ماثلة أمامه ، بما يثيره في خياله من صور ومشاهد خيالية .

---

١ الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي ، د/علي الغريب محمد الشناوي-ط١ -٢٠٠٣م -مكتبة الأدب- القاهرة-ص ٩

٢ انظر لسان العرب – مادة (صور)

٣ في محيط النقد الأدبي ، د.إبراهيم علي أبو الخشب- ١٩٨٥م -الهيئة المصرية العامة- ص١٠٥

٤ الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي -ص١٤

إلا أن الصورة الحقيقة تظل أصعب بكثير من الصورة الخيالية ولا يقدر على صوغها إلا الشاعر القدير . يقول الدكتور محمد غنيمي هلال "أن الصورة لا تلتزم ضرورة أن تكون الألفاظ أو العبارات مجازية ، فقد تكون العبارات حقيقية الاستعمال وتكون مع ذلك دقيقة التصوير ،دالة على خيال خصب"[١] .

ومسألة التصوير مسألة واردة في الشعر عموما سواء المشرقي أو المغربي ، وقد برع فيه كل منهما ، يقول أحد الباحثين في براعة الأندلسيين في التصوير "هذا وقد برع الأندلسيون في التصوير والخيال ، وظهرت براعتهم منذ عصر الإمارة ،وكانت أكثر ظهورا وتلونا عندما انتقل الاتجاه المحدث من الشرق إلى الأندلس ،واستقبله كبار عصر الإمارة ، وصبغوه بصبغتهم فأضافوا إليه ما جعلنا نفتن به حتى ليخيل إلينا أنه أندلسي لا شرقي الأصل والمنشأ "[٢] .

وفي الحقيقة أن الصورة الفنية احتلت مكانة مرموقة في الدراسات الأدبية والنقدية والبلاغية ، وخضعت لاهتمام الباحثين القدماء والمحدثين فأفردوا لها بحوثا مستقلة في كثير من مؤلفاتهم ،ودرسوا الأبيات الشعرية من خلالها .

ولست هنا في مجال الخوض في هذه المسالة على الرغم من أهميتها ،لأن ما يهمني هو شعر الزهد ومدى اعتماد الشعراء على التصوير في إطار هذا الموضوع .

---

١ النقد الأدبي الحديث – ص٤٥٧

٢ الأصول الفنية للشعر الأندلسي –ص٣٠٣

وشعر الزهد في أغلبه مقطوعات قصيرة ينفعل بها الشاعر إزاء موقف معين أو موعظة ما يرمي إلى غرسها في نفوس الناس ،لذا فالشاعر يكون أكثر حرية من الناحية الفنية في مثل هذه المقطوعات التي لا تخضع للقوانين والقواعد التي تخضع لها القصيدة في الغالب .

لقد سبق أن أشرت إلى أن شعر الزهد يعتمد على فكرة معينة يعمل الشاعر على توصيلها إلى الجمهور، و تقريبها من أفهام العامة ، لذا قد يبتعد عن الخيال ويجنح إلى الحقيقة في الغالب .

ومن خلال دراستي للأبيات تبين لي وجود بعض الصور الفنية في شعر شعراء هذه المرحلة ،وإن كانت قليلة إلا أنها جديرة بالاهتمام والدراسة ،وهي صور في أغلبها مستمدة من الواقع ، الذي يرتبط بالأشياء المحسوسة التي يمكن للإنسان إدراكها بوسائل الحس المختلفة ،والشاعر بحكم بيئته التي يعيش فيها يتأثر بهذه المحسوسات التي يترجمها صورا مختلفة في شعره .فالشاعر يدرك الأشياء حوله سواء المحسوسة أو المعقولة ويربط بينها بروابط معينة لا يكون لها وجود في الواقع مكونا صور من خياله ، "وقد تتمازج مواد الصورة المختلفة في هيكلها ، فالصورة الفنية التي تقوم على المتخيلات لا تستغني عن الحس ، لأن الإنسان لا يمكنه أن يتخيل ما لا يحسه ،وكذلك المعقولات فإنها تحتاج إلى المواد المحسوسة ،لتقربها وتبرزها أمام المتلقي "[1] .

١ الصورة الفنية في الشعر العربي ،إبراهيم عبد الرحمن الغنيم-١٤١٦هـ -الشركة العربية للنشر والتوزيع- ص٨٨

وعادة يكون الشعراء المتميزون في التصوير ،هم المتميزين في الوصف حيث تعتمد الصورة على الوصف الدقيق والمعرفة العميقة بتفاصيلها حتى تكون مفهومة لدى المتلقي ، وابن عبد ربه من الشعراء المعروفين بدقة الوصف ، قال عنه أحد الباحثين : " وفي تجاربه ومشاهداته ذخيرة استطاع عن طريقها أن يمد الأدب العربي بصورة فنية من الوصف الدقيق "[١] .

ويبدو أن ذلك جعل صُوره مفهومة يقل فيها الخيال ،وتبعد عن الغرابة والتعقيد ، كما تجنح دائماً إلى البساطة والسهولة بحيث يصل المتلقي إلى إدراكها بالحواس .

ففي بعض أبياته يربط الدنيا بصورة محسوسة تارة وبصورة معقولة تارة أخرى وذلك لوجود رابط بينهما استنتجه من خياله ،ويظهر تصويره للدنيا في صورة محسوسة في قوله:

أَلا إِنَّمـــا الــــدُّنيا نَضَـــارَةُ أَيكـــةٍ إِذا اخْضَـرَّ مِنْهَـا جَانِـبُ جَـفَّ جَانِـبُ[٢]

يظهر في هذه الصورة موازنة الشاعر الدنيا في حقيقتها وغرورها بالشجر المتماثل في أجزائه والمتأرجح بين خضرة وجفاف ، وتعد هذه الموازنة عنصراً أساسياً من عناصر التصوير هنا . فالشجرة الجميلة الوارفة الظلال من الصور المحسوسة التي تدرك بوسائل الحس المختلفة وابن عبد ربه استغل هذه الصورة الحسية ليشبه بها الدنيا وهي من المعقولات التي تدرك بالعقل لا بالحس ، لأن ذلك آكد للمعنى وأبلغ ،يقول إبراهيم

---

١ اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري – ص٨٣

٢ ديوان ابن عبد ربه – ص ٤٩

عبد الرحمن الغنيم:"وأغلب ما تكون المادة العقلية في الصورة الفنية مشبها ،ثم يأتي بعدها المشبه به حسيا ليكون ذلك آكد للمعنى وأبلغ"[1] ،والإنسان لا يرى من الدنيا سوى الوجه المشرق لها وما تحويه من مباهج وملذات ،وهو ما عبر عنه الشاعر بالشجرة ، حيث ربط جمال الشجرة وخضرتها وما يعلوها من ثمار بجمال الدنيا وزينتها ، أما الوجه الحقيقي للدنيا وهو تقلبها وعدم ثباتها وسرعة زوالها –الذي شبهه الشاعر بتقلب الشجرة من خضرة وجمال إلى جفاف وزوال – فقد غفل عنه الإنسان ،واغتر بالجانب المشرق منها ، لذا يريد ابن عبد ربه بهذا التشبيه الحسي أن ينبه الإنسان الغافل لهذا الأمر ، ويعظه بضرورة التزود بالأعمال الصالحة قبل الرحيل .

هذه الصورة هي صورة بسيطة تقوم على مشبه ومشبه به ، دون الدخول في التعدد والتركيب الذي قد يخرج بالصورة غالباً إلى التعقيد والغرابة ،وقد علق الدكتور عمر الدقاق على هذا التشبيه بقوله: "هذا تشبيه مفعم بالحياة على بساطته وقرب مأخذه "[2] ،وعده عنصرًا من عناصر الجمال في البيت .

وفي موضع آخر يشبه ابن عبد ربه الدنيا بالأحلام والجامع بينهما سرعة الزوال في قوله:

أَلا إِنَّمَا الدُّنيا كَأَحْلامِ نَائِمِ ... وَمَا خَيْرُ عَيْشٍ لا يَكُونُ بِدَائِمِ[3]

---

١ الصورة الفنية في الشعر العربي–ص٨٨

٢ ملامح الشعر الأندلسي ، الدكتور عمر الدقاق–دار الشرق العربي –بيروت– ص٧٧

٣ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٥٧

ففي هذه الصورة شبه الشاعر معقولاً وهي الدنيا بمعقول آخر وهي الأحلام ليدرك الإنسان بالعقل سرعة زوال الدنيا وفنائها فلا يغتر بملذاتها الفانية . ويؤكد على ذلك بالشطر الثاني للبيت حيث ينفي الخير عن هذا العيش الذي لا يدوم .

فالشاعر عمد في كل من الصورتين إلى التمثيل ليقرب الصورة إلى الأذهان ، وكل من الصورتين تنبض بالحياة يظهر ذلك في تشبيهه الدنيا بالشجرة التي تتأرجح بين اخضرار أوراقها وجفافها وفي هذه الحركة دليل على الحياة ،كذلك مع ذكر اللون خاصة الأخضر الذي يمثل الطبيعة تزداد الصورة جمالا وإشراقا . وفي البيت الآخر تظهر الحركة في الأحلام التي تكون مضادة لسكون النائم وهدوءه .

وقد عمد الشعراء قديما إلى ذكر الدنيا وتصويرها في صورٍ شتى إلا أن تصويرها في صورة الأيكة – فيما أعلم – مما ابتدعه ابن عبد ربه في زمانه . ومن الاستعارات التي وردت لدى ابن عبد ربه أيضاً قوله:

لا تَبـكِ لَيْلَـى ولا مَيّـه ولا تَنـدُبَنْ راكبـاً نِيّـه

وَبـكِ الصّبا إذ طَـوى ثَوْبَـهُ فـلا أَحـدٌ ناشِـرٌ طيّـه[1]

فقد استغل الشاعر التصوير في توجيه نظر الإنسان إلى القيمة الحقيقية التي تستحق البكاء لفقدها ،والمتمثلة في ذهاب العمر بذهاب شبابه،وعلل بكاءه على الصبا لاستحالة

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٧١

عودته في قوله (فلا أحد ناشر طيه) ، وفي البيت الثاني إشارة إلى الرحيل إذ أن الطي نقيض النشر وهو مرتبط بالرحيل .

وقد اتخذ الشاعر من القديم مدخلا سلسا مستساغا حيث نظر إلى رحيل الصبا من زاوية البكاء على الأطلال ، وبكاء المحبوبة وهو ما أشتهر به الشعراء في القدم ثم بأسلوب رشيق ربط ذلك بالبكاء على الصبا الذي يعد رحيله مؤشرا على اقتراب رحيل الإنسان . كذلك تظهر روعة التصوير عند ابن عبد ربه عند ذكره للشيب وما أحدثه فيه من صور شتى ومن ذلك قوله:

كآبَةُ الذُّلِّ في كتابي   وَنَخْوَةُ الْعِزِّ في جَوابي
قَتَلْتَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ   فَكَيْفَ تَنْجُو مِنَ الْعَذابِ ؟[1]

جعل الشاعر بياض الشعر قاتلاً ،وسواده مقتول في هذه المعركة غير المتكافئة ،والصورة هنا موحية برهبة الشيب ،وقوته وسيطرته على الشعر ،وتمكنه منه .

وقد أسلفت[2] في حديثي عن ابن عبد ربه أنه كان من أكثر الشعراء ذكرا للشيب ،لذا كان من الطبيعي أن يستغل التصوير في إثراء هذا الموضوع ،حيث يقول في موضع آخر يتحدث فيه عن الشيب ويشبهه بالنجوم :

نُجُومٌ في المَفارِقِ مَا تَغُورُ   ولا يَجري بِها فَلَكٌ يَدُورُ

١ ديوان ابن عبد ربه — ص ٥١
٢ انظر ص ١٤٨ من هذه الدراسة

كـــأنَّ سَـــــوادَ لِمَّتـــــهِ ظَـــلامٌ		أغـارَ مِـنَ المَشـيبِ عَلَيْـهِ نُـورُ[1]

استغل الشاعر منظراً طبيعيا يتمثل في بروز النجوم في السماء لدرجة اللمعان ،حيث تكون أكثر بروزا حين تكون السماء شديدة السواد حينها يظهر لمعانها واضحاً ،وقوياً ، وهذه الصورة الطبيعية أسقطها الشاعر على لمعان الشيب في المفارق الذي شبهه بلمعان النجوم في السماء ،وقد جعل الشاعر الصورة ثابتة مجردة من الحركة حين جعل هذه النجوم ثابتة لا تغور ،والفلك كله ساكن من حولها .

وقد استمد الشاعر هنا الضياء للصورة من لمعان النجوم ،وهي صورة خافتة اللمعان ،ولو استمد صورته من ضوء الصباح مثلا ،لكانت الصورة أقوى وأوضح لعموم ضياء الصباح وقوته ،إلا أن ذلك يدل على أن الشاعر قصد إلى ذلك ليدلل على قلة الشيب في شعره التي توحي ببداية المشيب .

وفي البيت الثاني صورة مركبة تتمثل في تشبيه سواد الشعر بالظلام ،والشيب بالنور ،ثم جعل النور جيش غازي يعتدي على الظلام ويغيره . وفي صورة أخرى عن الشيب ، لعب فيها الخيال دورا بارزا يقول ابن عبد ربه:

كـــأنَّ حَمامَـــةً بَيْضَـــاءَ ظَلَّـــتْ		تُقَابِـــلُ فِي مَفَارِقِـــهِ غُرَابـــا[2]

قابل الشاعر في هذه الصورة الفنية بياض الشعر وسواده ، ببياض الحمامة وسواد

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٩٠
٢ نفسه – ص ٤٥

الغراب وهي صورة طريفة يفاجئنا بها الشاعر في معرض حديثه عن الشيب . وهذه المقابلة أو المفارقة التصويرية يعرفها الدكتور علي عشري زايد بأنها : "تكنيك فني يستخدمه الشاعر المعاصر لإبراز التناقض بين طرفين متقابلين بينهما نوع من التناقض "[١].

فقد صور الشاعر الشيب في صورة الحمامة البيضاء ،وسواد الشعر في صورة الغراب ، وهذه الحمامة هي مقابلة للغراب وكأنه بذلك يصور الشيب في مقدمة الرأس ،ويظهر خيال الشاعر في هذه الصورة وإن كان خيال بسيط مفهوم إلا أنه كسا المعنى جمالا وأضفى عليه حيوية وحركة .

وابن عبد ربه كان مستاء كثيرا من جور الحكام في زمانه وظلمهم ،وربط بين ذلك وبين الشيب في هذه الصورة الفنية في قوله:

جارَ المَشيبُ على رأسِي فغَيَّرَهُ　　لمَّا رأى عنْدَنا الحُكَّامَ قَدْ جَارُوا
كَأَنَّما جُنَّ لَيْلٌ في مَفارِقِهِ　　فَاعْتاقَهُ مِنْ بَياضِ الصُّبحِ إِسْفارُ[٢]

فالشيب في نظر الشاعر ظالم لأنه اعتدى على رأسه فغيره ،ولم يجرؤ على ذلك إلا عندما رأى جور الحكام وظلمهم ، هذه الصورة التي شبه فيها الشاعر الشيب بالإنسان الظالم شبهها بصورة أخرى من الواقع تتمثل في ظلم الصباح لليل حيث وقع سواد الليل

١ الصورة الشعرية عند طاهر زمخشري – فاطمة بنت مستور المسعودي-مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي- ١٤٢٤هـ-ص٢٣٠ نقلاً عن الدكتور علي عشري زايد في كتاب بناء القصيدة العربية الحديثة-مكتبة النصر-القاهرة-ط٣ -١٤١٤هـ/١٩٩٣م-ص١٤٧

٢ ديوان ابن عبد ربه – ص ٩٠

الحالك أسيرا في يد الصباح ،وعند إعتاقه يظهر إسفار الصباح وبياضه . وبهذه الصورة يدلل الشاعر على عموم الشيب في رأسه ،وذلك لما تحمله هذه الصورة من قوة ضياء الصباح ،وشموله للكون الفسيح . وتحمل هذه الصورة في طياتها حزن الشاعر الذي يتلاءم مع الليل وجوه خاصة في مثل هذه الصورة التي وقع فيها الليل أسيرا .

وفي إطار التصوير في الشيب نجد أن الغزال يربط بين الشيب والخضاب في صورة جميلة حيث يقول:

مَا الشَّيبُ عِنْدِي والخضِابُ لواصفٍ   إلاّ كَشَمس جُلِّلت بضَبابِ[1]

تكمن روعة هذه الصورة في جمال الشمس المشرقة التي تسطع بضوئها الأبيض الناصع ،وقد علاها الضباب وأطفأ من لهيبها ونصاعة لونها ، وهذه الصورة طبقها الشاعر على مشهد الشيب الذي تغير لونه الأبيض الناصع بما علاه من خضاب ، وهي صورة رائعة لعب فيها الخيال دوره لرسم مثل هذه اللوحة المشرقة .

والشيب عند موسى بن محمد بن حدير ما هو إلا ضيف غير مرغوب فيه ويظهر ذلك في قوله :

سَأَقريك يَا ضيْفَ المشَّيب قِرى القِلَى   فَمَا لك عِنْدِي في سِواه نصيبُ[2]

١ ديوان الغزال – ص ٥٥
٢ الحلة السيراء – ٢٣٦/١

فقد شبه الشاعر الشيب بالإنسان الذي حل ضيفا ، لكنه ضيف ثقيل مما جعل المضيف يسيء ضيافته ،دلالة على بغضه له . ومن الصور التي يظهر فيها أثر الخيال قول الغزال:

ورأيتُ ألْسنةَ الرِّجال أفاعياً   طَوْراً تثُورُ وتارةً تَغْتَالَ[١]

فخيال الشاعر جعله يصور هذه الألسنة التي تكثر المقالة في الناس ،ولا تنشغل بعيوب نفسها عن غيرها في صورة الأفاعي التي إن ثارت تارة فإنها تغتال تارة أخرى . والجامع بينهما إلحاق الضرر بالإنسان في كل منهما ، فهذه الألسنة تضر وتؤلم بما يصدر عنها من قول وتجريح ،و هذه الأفاعي تلحق الضرر بالإنسان بما تبثه فيه من سموم مهلكه .

كذلك هناك صورة يظهر فيها الخيال المبتكر الذي اجتلب الشاعر عناصره من الواقع إلا أن الصورة التي شكلها لا وجود لها في الحقيقة وتتمثل هذه الصورة في قول الغزال:

إنّي حَلَبتُ الدَهرَ أَصنافَ الدِّرَرْ   فَمَرَّةً حُلوُ وأَحياناً مَقِرْ[٢]

فالحلب وهو "استخراج ما في الضرع من اللبن "[٣] حقيقة ، والدهر وهو " الأمد الممدود"[٤] حقيقة أيضا ، كذلك الدرر وأصنافها حقيقة ،والحلاوة والمرارة حقيقة يستشعرها الإنسان أحيانا ، فكل هذه اللبنات في الصورة حقيقة يدركها الإنسان سواء

---

١ ديوان الغزال – ص ٩٣-ص٩٤
٢ نفسه – ص ٦٧
٣ لسان العرب –مادة (حلب)

٤ نفسه – مادة (دهر)

بحسه أو بعقله ولكن الترابط الذي أحدثه الشاعر بين هذه الحقائق هي من خياله ولا وجود له في الواقع فالشاعر يؤكد أنه حلب هذا الدهر واستخرج منه أنواعا مختلفة من الدرر التي بعضها حلو وبعضها مر ، وهذه الصورة غير حقيقية ولا تكون في الواقع لأن الدهر لا يحلب ، ولا يستخرج منه الدرر ، وليس للدرر طعم يميز بحلاوة أو مرارة ، ولكن هذا كله مجاز من وحي خيال الشاعر ، لجأ إليه لبيان تقلب الدهر بين أحزان وأفراح . واستغل الشاعر – في بيان هذه الصورة –حاسة أخرى وهي الذوق ،فالحلاوة والمرارة أمور يدركها الإنسان بالتذوق ولا سبيل إلى التمييز بينهما بغير هذه الحاسة .وفي صورة أخرى يقول ابن عبد ربه:

إِنَّ الحيــــــــــاةَ مَــــــــــزارِعٌ فَــازْرَعْ بِهــا مــا شِــئْتَ تَحْصُــد[١]

هذا مشهد ينبض بالحياة صور فيه الشاعر الحياة في صورة مزارع ، ومما يلفت الانتباه هنا أن الشاعر شبه مفرد بجمع ، وذلك لأن حياة الإنسان واحدة ولكن ما يزرعه فيها كثير ومختلف فقد يزرع الخير وقد يزرع الشر وأيا كان زرعه فهو ما سيجنيه في حصاده .

ولم تختص الصورة الفنية بالصور البصرية فقط بل تجاوزتها إلى السمعية فابن عبد ربه يصور هذا الصوت الصادر عن دعوة تضرع فيها إلى الباري عز وجل ،وذلك في قوله:

يُقَلْقِــلُ مــا بَــيْنَ الضُّــلوعِ نَشــيجُها لهــا شــافِعٌ مِــنْ عَــبرَةٍ وَتَضَــرُّعِ[٢]

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٦٧

٢ نفسه – ص١١٥

فقد استعان الشاعر بحاسة السمع في تصوير ذلك الشعور وهيجان المشاعر الذي انتابه في أثناء الدعاء وما يصاحب ذلك من صوتٍ للنشيج والبكاء الذي اعتراه لشدة خشوعه وتضرعه لله عز وجل .

وقد وفق الشاعر في هذه الصورة حيث كان استخدامه للفعل (يقلقل) والتردد الحاصل فيه بين حرفي القاف واللام دالاً على تردد البكاء في الصدر الذي يصدر عنه صوت النشيج بعد ذلك .

وبجانب هذه الصور صورة أخرى أبدع فيها ابن مسرة عندما شبه الليل والنهار بالمطايا في قوله :

إنَّمـــا اللَّيــــلُ والنَّهـــارُ مطايـــا　　　لِـــبني الأَرضِ نحـــوَ دارِ حِمـــام[1]

فالليل والنهار مع أنهما وسيلة لمعرفة الوقت في هذه الدنيا إلا أن ابن مسره يرى أنهما مجرد مطايا تصل بالإنسان لدار القرار ، وذكر الشاعر مطايا دون غيرها لأن المطية الدواب التي تمطو في سيرها [2]بمعنى تمد فيه ، وقد وفق الشاعر في هذا التصوير لأن الليل والنهار مستمران ما استمرت الحياة على وجه الأرض فهما يمدان مدا بالإنسان حتى يصل إلى آخرته .

١ كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس– ص ٢٧١

٢ انظر لسان العرب –مادة (مطا)

كما عبر الشعراء عن الموت في صور مباشرة لا تعتمد على التشبيه أو الاستعارة ،وإنما تستند على المشهد الحقيقي ،من ذلك قول ابن عبد ربه:

مَـنْ لي إِذا جُـدْتُ بَـينَ الأَهْـلِ والوَلَـدِ		وكَـانَ مِنّـي نَحْـوَ المـوْتِ قِيـدَ يَـدِ
وَالـدَّمْعُ يَهْمُـلُ وَالأَنْفـاسُ صَـاعِدَةٌ		فَالـدَّمْعُ في صَبَبٍ والنَّفْسُ في صُعُـدِ[1]

فالشاعر يصور لحظات الاحتضار ومفارقة الروح الجسد ، والحالة التي يكون عليها الإنسان حال احتضاره ، وأهله حوله وقريبين منه ،لكنهم عاجزون عن فعل شيء له ولشدة سكرات الموت تهمل الدموع وتتصاعد الأنفاس ولا ينتهي ذلك إلا بمفارقة الروح الجسد ،وقد وفق الشاعر في تصوير هذا المشهد وذلك حين جعل للإنسان أنفاساً كثيرة تتصاعد حين الموت وهو يصور بذلك سكرات الموت ،وهي حالة تنتاب الإنسان حين وفاته. كذلك يصور الغزال ما يحدث بعد مفارقة الروح الجسد في قوله:

اِنظُـرْ إِلَـيَّ إِذا أُدرِجـتُ في كَفَـني		وَانظُـرْ إِلَـيَّ إِذا أُدرِجـتُ في اللَحـدِ
وَاقعُـدْ قَلـيلاً وَعـايِن مَـن يُقـيمُ مَعـي		مِمَّـن يُشَـيِّعُ نَعشـي مِـن ذَوي وُدّي
هَيهـاتَ كُلُّهُـمُ في شَـأنِهِ لَعِـبٌ		يَرمـي التُرابَ وَيَحثـوهُ عَلـى خَـدّي[2]

فهي صورة استلهمها الشاعر من واقع الحياة أيضاً حيث يكفن المسلم بعد موته ويدفن في قبره وهذا مشهد طبيعي يتكرر باستمرار مع موت كل إنسان ، إلا أن الشاعر يريد أن

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٧٦

٢ ديوان الغزال – ص ٦٤

يذكر بهذه اللحظات التي يرحل فيها الإنسان عن الدنيا ، وينفض الناس من حوله حال إنزاله في مسكنه الأخير ، لذا استخدم فعل الأمر (انظر) وكرره لضرورة أخذ العظة والعبرة ، ويظهر في البيت مدى تحسر الشاعر على نفسه وذلك حين جعل هذا النظر موجها إليه في قوله (انظر إلى) حيث كان يستشعر هذه الصورة التي كانت تتراءى له في أواخر عمره .

وقد رسم الشاعر صورة واضحة للإنسان عندما يهرم ويدب الضعف في جسمه ،وذلك ببيان حالته التي آل إليها عند تقدم عمره ، ويظهر ذلك في قول الغزال مخاطبا زوجته أم عمر:

تَسألُني عَن حالَتي أُمُّ عُمَرْ ... وَهيَ تَرى ما حَلَّ بي مِنَ الغِيَرْ
وَما الَّذي تَسأَلُ عَنهُ مِن خَبَرْ ... وَقَد كَفاها الكَشفُ عَن ذاكَ النَظَرْ
وَما تَكونُ حالَتي مَعَ الكِبَرْ ... اِربَدَّ مِنّي الوَجهُ وَابيَضَّ الشَّعَرْ
وَصارَ رَأسي شُهرَةً مِنَ الشُّهَرْ ... وَيَبِسَت نَضرَةُ وَجهي وَاقشَعَرْ
وَنَقَصَ السَمعُ بِنُقصانِ البَصَرْ ... وَصِرتُ لا أَنهَضُ إِلّا بَعدَ شَرْ
لَو ضامَني مَنْ ضامَني لَم أَنتَصِرْ ... فَانظُر إِلَيَّ وَاعتَبِرْ ثُمَّ اعتَبِرْ
فَإِنَّ لِلحَليمِ فِيَّ مُعتَبَرْ[(١)]

فالشاعر رسم صوره دقيقه لنفسه يصور بها التغيير الذي حدث له في أماكن متفرقة من

١ ديوان الغزال – ص ٦٥

جسده ، وذلك في حسن وجهه ونضرته ورونق الشباب فيه ،الذي تبدل وتغير يدل على ذلك قوله (اربد) حيث أن تربّد الوجه يدل على تسود مواضع منه [١] ، وقوله(يبست نضرة وجهي) حيث أن " اليبس نقيض الرطوبة واللين"[٢] ،ومن تغيير الوجه ولونه ومنظره إلى الشعر وسواده وفي شمول الشيب له إلى درجة البياض التام حتى صار رأسه شهرة من الشهر ، والشُّهْرَة كما ذكر ابن سيده هي " ظهور الشيء في شنعة"[٣] ،ومن ذلك إلى نقصان السمع والبصر ،ثم إلى حركته التي دب فيها الضعف إلى درجة لا يستطيع معها النهوض إلا بعد مشقة وعناء ،ويبدو في هذا التصوير تأثر الشاعر الشديد بهذا التغيير خاصة وجهه الذي بدأ به ، ذلك لأن الغزال اشتهر بالجمال في شبابه مما جعلهم يطلقون عليه لقب الغزال . والغزال الذي يبدو تأثره بالقبر واضحاً ،حيث يكثر من ذكره في أبياته يصوره بصورة المسكن في قوله في خبر موت نصر الخصي:

أَخرَجــوهُ مِنــها إِلى مَســكَنٍ لَيـــ ... ـسَ عَلَيــهِ إِلّــا التُــرابَ حِجــابُ

لا يُجيــبُ الداعيــهِ فيــهِ وَلا يَــر ... جِــعُ مِــن عِنــدِهِ إِلَيــهِ جَــوابُ

وَتَغانَــت تلــكَ المَراكِــبُ عنــهُ ... وَأُميلَـــت إِلى سَـــواهُ الرِكـــابُ

---

١ انظر كتاب العين-لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ،تحقيق الدكتور /مهدي المخزومي-الدكتور /إبراهيم السامرائي-ط١-١٤٠٨هـ/١٩٨٨م-منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات –بيروت – باب الدال والراء والفاء معهما– ٨/ ٣٠

٢ نفسه – باب السين والفاء- ٣١٤/٧

٣ المحكم والمحيط الأعظم في اللغة –علي بن إسماعيل بن سيدة – تحقيق عبد الستار أحمد فراج-نشرته شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولادة بمصر -ط١-١٣٨٨هـ/١٩٦٨م-باب الهاء-فصل الهاء والشين والراء (مقلوبه)- ١٣٢/٤

لَيسَ مَعَهُ مَن كل ما كانَ قَد جَمّـ ... عَ إِلّا ثَلاثَةُ أَثوابُ

وَتَلاشى جَميعُ ذاكَ فَلَمّا ... يَبقَ إِلّا ثَوابُهُ أَو عِقابُ[1]

هذا المسكن له صفات خاصة فهو من تراب ولا يحجبه إلا التراب ، كما أنه مسكن موحش لا يجيب ساكنه أحد ولا يرجع منه جواب ، ولا يلبس إلا ثلاثة أثواب ، ومن كل ما جمع في حياته لا يبق معه إلا الثواب أو العقاب ،هذه الصورة المحزنة التي تقشعر منها الأبدان تمثل الواقع والحقيقة التي يغفل عنها كثير من الناس . ومن الكنايات التي وردت في شعر الزهاد قول ابن عبد ربه :

قَدْ كادَ أَنْ يُعْشِبَ مِنْ دَمْعِهِمْ ... ما قابَلَتْ أَعْيُنُهُمْ في السُّجُودِ[2]

جعل ابن عبد ربه دموع الزهاد تروي الأرض حتى تعشوشب كناية عن كثرة دموعهم خوفاً وخشية من الله عز وجل .

لاشك أن موضوع الزهد يعد من الموضوعات الجادة التي لا تحتاج لفن التصوير ،والصورة فيه مألوفة عند الناس ،وما ورد في بعض الأبيات من تصوير يحاكي فيه الشاعر الواقع ،ولا يخرج عنه إلا في بعض اللمحات البسيطة التي يتجلى فيها الخيال بصورة واضحة ومفهومة ومما جعلها واقعية أنها تعتمد على الحس فكل ما يدركه الإنسان بحسه يعد واقعيا وحقيقة مثبته لا يمكن تجاهلها . كما ارتبط التصوير بملكة الشاعر وموهبته التي تتجلى أكثر

---

١ ديوان الغزال – ص٥٢-٥٣

٢ ديوان ابن عبد ربه – ص٧٧

عند كبار الشعراء حينئذ وهم ابن عبد ربه والغزال ، اللذين خاضا في شتى مجالات الشعر وفنونه وبرعوا فيها ، وقد تأثر هؤلاء الشعراء في تصويرهم بالطبيعة التي تتمثل في الشجرة والنجوم والشمس ، وما فيها من حيوانات كالحمام والغراب والأفعى . .

أما الزهاد من الفقهاء وغيرهم فخلا شعرهم أو –يكاد يخلو– من الصورة الفنية ، ذلك لأن التصوير بحاجة إلى ملكة خاصة لا تتواجد إلا لدى الشاعر الخبير . من ذلك على سبيل المثال قول الفقيه عبد الملك يُذَكِّر الأمير عبد الرحمن بفضل يوم عاشوراء :

لا تَنْسَ – لا يُنْسِكَ الرحمنُ – عاشوراء واذكُرْهُ لا زلتَ في الأَحْيَاءِ مَذْكُورَا
قالَ الرسولُ –صَلاَةُ اللهِ تَشْمَلُهُ– قولاً وَجَدْنَا عَليه الحَقَّ والنُّورَا
مَنْ بَاتَ في لَيْلِ عَاشورَاءِ ذَا سَعَةٍ يَكُنْ بِعيْشَتِهِ فِي الحَوْلِ مَحْبُورَا
فَارْغَبَ فَدَيْتُكَ فِيمَا فِيهِ رَغْبَتَنا خَيْرُ الورى كلّهم حَيّاً ومقبُوراَ[1]

وقد علق الدكتور سعد شلبي على هذه الأبيات بقوله : "شعر خلا –أو يكاد يخلو– من الصورة الفنية ، ويسرد الحقيقة عارية إلا من الدليل المستمد من علم أبي مروان وتخصصه في السنة الشريفة من أحاديث الرسول عليه السلام فيلجأ إلى رواية الأثر ونظمه "[2] .

---

١ وردت هذه الأبيات في الإحاطة في أخبار غرناطة –٣/ ٥٥٢ مع تغيير كّلم إلى كلهم– والمقتبس من أنباء الأندلس – ص ١٨٤– –كما وردت في نفح الطيب ٦/٢. إلا أن البيت الثالث عند المقري يختلف عن ما ورد في المصادر الأخرى حيث يقول:

فيمن يوسع في انفاق موسمه أن لا يزال بذلك العام ميسورا

والأرجح ما ورد في رواية الأبيات في المصادر الأخرى ،ويؤكد ذلك المقري نفسه الذي علق على هذا البيت بأنه نسي لفظه فكتبه بالمعنى والوزن لطول العهد به . انظر نفح الطيب –٦/٢

٢ الأصول الفنية للشعر الأندلسي – ص١٢٠

المبحث الثالث

الموسيقـــــى

في دراستي هذه التي تتناول جانباً من الشكل يتمثل في الموسيقي ودورها في تغلغل الرسالة الوعظية في النفوس ، ومداعبة المشاعر والعواطف .عمدتُ إلى تقسيم الأبيات من حيث موسيقاها إلى قسمين رئيسين بناء على النغم المنتظم ،وجرس الألفاظ وهما :

-الموسيقى الخارجية :

عُرف الشعر عموما بأنه الكلام الموزون المقفى [1] ، لذا يعد الوزن والقافية من أهم مقومات الشعر ، إذ بدونهما يصبح الكلام أقرب إلى النثر منه إلى الشعر ،ولكن اعتماد الشعر على الوزن والقافية وحدهما يخرج به إلى النظم ، الذي لا يحمل ما يحمله الشعر من رسالة، ومعنى ، وفكرة ، ذلك لأن الفرق بين النظم والشعر يكمن في العاطفة التي تعد روح الشعر وقوامه الأول ،وشعر الزهد من الأغراض التي تتأجج فيه العاطفة بشكل واضح ،ويحمل رسالة وعظية للناس ، لذا كان لا بد من تآزر كل من الشكل والمضمون في تكوينه .

وقد لعبت هذه الموسيقى دوراً مهما في إحداث الموازنة بين الشكل والمضمون ،فكما كان لها دور بارز في رنين الأبيات وإيقاعاتها الموسيقية المختلفة ،كان لها كذلك دور مهم في جلاء المعنى وتوضيحه ، وجلاء الفكرة التي يرغب الشاعر في إيصالها إلى المتلقي ،ومن هنا ومن هذه الأهمية تم تقسيم هذا الجانب إلى ثلاث زوايا رئيسية ،كان لتآزرها الدور الرائد في إحداث هذه الموسيقى .

١انظر نقد الشعر – لأبي الفرج قدامة بن جعفر ، تحقيق كمال مصطفى–ط٣ – مكتبة الخانجي بالقاهرة–ص ١٧

١- البحور الشعرية :

تعد البحور الشعرية من أهم الدعائم الرئيسية التي يرتكز عليها الشعر العربي ،وهي جمع بحر ،"والبحر عند العروضيين تكرار الجزء بوجه شعري ،أو تكرار التفاعل بوجه شعري ،وسمي البحر بحراً ، لأنه يوزن به ما لا يتناهى من الشعر ،فأشبه البحر الذي لا يتناهى بما يغترف منه "[1] .

ولإحداث النغم الموسيقي ينبغي للشاعر أن يصب شعره وفقا لقوالب هذه البحور وأوزانها التي اخترعها الخليل بن أحمد في القرن الثاني الهجري .

"والنهج الذي انتهجه الخليل في وضع بحوره ، ينطلق من كون الكلمات في العربية مؤلفة من متحركات فساكنات ، وهذه تحسب وفق النطق بها ،لا حسب كتابتها ،فكل ما لا ينطق به يسقط في الوزن ،ولو كان مكتوباً ،والعكس بالعكس "[2] .

وشعراء الأندلس مثلهم مثل المشارقة نظموا قصائدهم ومقطوعاتهم وفقا لهذه القوالب، وتقيدوا بما يصاحبها من قواعد ، فنظموا في أغلب البحور والأوزان خاصة الطويلة منها فنظموا في بحر الوافر ،وبحر الطويل ،وبحر البسيط ،وبحر الكامل ،وبحر الخفيف ،وبحر الرجز ،وكذلك بحر السريع وبحر المتقارب ،وبحر الرمل .

---

١ الطريق المعبد إلى علمي الخليل بن أحمد (العروض والقافية) ، د.عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد -١٤٠٦هـ/١٩٨٦م -مكتبة الكليات الأزهرية الأزهر-القاهرة-ص٩٩

٢ المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر ، إعداد الدكتور إميل بديع يعقوب-ط١ -١٤١١هـ/١٩٩١م - دار الكتب العلمية -بيروت -ص١٦٤-ص١٦٥

إلا أن أكثر الأوزان شيوعاً لديهم هو(بحر البسيط)فقد نظموا فيه أكثر قصائدهم ومقطوعاتهم ،ومن الشعراء المكثرين في هذا البحر ابن عبد ربه الذي أدار أغلب مقطوعاته على الموت ، والتوبة ،من ذلك قوله في إحدى مقطوعاته في الموت:

مَنْ لي إذا جُدْتُ بَينَ الأَهْلِ والوَلَدِ وَكانَ مِنّي نَحْوَ الموْتِ قِيدَ يَدِ

وَالدَّمْعُ يَهْمُلُ وَالأَنْفاسُ صَاعِدَةٌ فَالدَّمْعُ في صَبَبٍ والنَّفْسُ في صُعُدِ

ذَاكَ القَضَاءُ الذي لا شَيءَ يَصْرِفُهُ حَتّى يُفَرِّقَ بينَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ[1]

يصف الشاعر موقف الاحتضار ،والحالة المصاحبة له ،وذلك لإرادة الوعظ، "والوصف . . لا يلائم البسيط إلا إذا صحبه روح قوي من حنين أو ألم أو عاطفة ظاهرة جلية "[2] ، ولا يخفى هنا مدى قوة العاطفة المصاحبة للأبيات ، التي خلقت هذا التلاؤم والانسجام يبن الأبيات ،والبحر الذي يغلفها . كما يقول في مطلع قصيدته في التوبة :

يا قادراً ليس يَعْفُو حِينَ يَقْتَدِرُ ولا يُقضَّى له مِن عَيشِهِ وَطَرُ[3]

وفي هذه الأبيات ألمس بعض الحدة والعنف ،حيث تحول الشاعر هنا إلى زاجر أكثر من كونه واعظًا ،وهذا العنف يتلاءم معه بحر البسيط الذي يعد "بحر النقيضين ،إما الشدة وإما الرقة ،ولا توسط في ذلك "[4] .

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٧٦

٢ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د.عبد الله الطيب- دار الآثار الإسلامية-الكويت-ط٣- ١٩٨٩م-١/ ٥١٥

٣ ديوان ابن عبد ربه – ص ٩١

٤ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها –١/٥٢٥

وفي إحدى مقطوعاته في الشيب يقول ابن عبد ربه:

جـارَ المَشـيبُ علـى رأسِـي فغيَّـرَهُ ... لَمَّـا رأى عنْدَنَـا الحُكَّـامَ قَدْ جَـارُوا

كَأَنَّمـا جُــنَّ لَيْــلٌ في مَفارِقِــهِ ... فَاعْتَاقَــهُ مِــنْ بَيَــاضِ الصُّــبحِ إسْفَــارُ[1]

يشتكي الشاعر من جور الشيب ،وجور الحكام ،ومثل هذا الأسلوب يتوافق مع البحر البسيط ، الذي يحمل رنة قوية وعنيفة .

وممن تناول بحر البسيط من الشعراء الغزال ، إلا أنه لم يكثر فيه كابن عبد ربه،ومن أقواله في ذلك مقطوعته التي ذكر فيها الموت:

أَصـبَحتُ وَاللَـهِ مَحسُـوداً عَلـى أَمَـدٍ ... مِـنَ الحَيـاةِ قَصـيرٍ غَـيرِ مُمتَـدِّ[2]

يغلب على الأبيات طابع الشكوى ،ويظهر بين طياتها مدى الحسرة والألم التي تعتصر نفس الشاعر بسبب الوحدة ،وحدته في حياته ،ووحدته بعد مماته ،وهذا الأمر أكسب كلامه قوة في الأسلوب ، جمع إلى جواره صدق العاطفة .

يقول الدكتور إميل بديع يعقوب في البحر البسيط ومميزاته:"هذا البحر من البحور الطويلة التي يعمد إليها الشعراء في الموضوعات الجدية ، ويمتاز بجزالة موسيقاه ،ودقة إيقاعه ،وهو يقترب من الطويل في الشيوع والكثرة ، أو بعده بقليل ،ولكنه لا يتسع مثله لاستيعاب المعاني

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٩٠

٢ ديوان الغزال – ص ٦٤

ولا يلين لينه للتصرف بالتراكيب والألفاظ ،وهو من وجه آخر يفوقه رقة ،ولذلك نجده أكثر توافرا في شعر المولدين منه في شعر الجاهليين "[1] .

ولاشك أن موضوع الزهد من المواضيع الجدية التي تتطلب مثل هذه الجزالة الموسيقية ،والدقة الإيقاعية ، وقد اهتدى إليه شعراء الزهد في هذه المرحلة ووجدوا فيه من الانبساط ما يلائم ما جادت به قرائحهم من قصائد ومقطوعات سواء في المواضع التي تتطلب الشدة والقوة ،أو في المواضع التي تتطلب الرقة والسلاسة .

والبحر البسيط يستعمل تاما كما مر بنا ، ويستعمل مجزوءاً ،ولم يستعمله بهذه الصورة إلا ابن عبد ربه في قوله:

مـــا أطيَـــبَ العـــيشَ لـــولا أَنَّـــهُ   عَـــنْ عَاجِـــلٍ كُلُّـــه مـــتروكُ[2]

ومجزوء البسيط قليل الاستعمال في الشعر العربي وذلك "لما فيه من إيقاع ثقيل مضطرب"[3] ،لذا لم يجد إقبالا واستحسانا من شعراء الزهد ،ويعد نادراً بالنسبة إليهم .

يلي البحر البسيط في الأهمية البحر الطويل وهو قريب من البسيط كما ذكر الدكتور إميل .وقد نظم الشعراء فيه العديد من أبياتهم ،وتفوق ابن عبد ربه كعادته في النظم في هذا البحر أيضاً ، حيث نوّع في مواضيعه على هذا الوزن فمن ذم الدنيا إلى ذكر الموت

---

١ المعجم المفصل– ص ٧٤

٢ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٢٩

٣ المعجم المفصل – ص٧٤

إلى النصح والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، إلى رثاء نفسه في أواخر عمره . ومن أمثلة ما ورد لدى ابن عبد ربه على هذا الوزن كثير منها مقطوعته في ذم الدنيا التي يقول في مطلعها :

أَلا إِنَّمـــا الـــدُّنيا نَضَـــارَةُ أَيْكـــةٍ إِذا اخْضَرَّ مِنْهَا جَـــانِبُ جَفَّ جَـــانِبُ[1]

وقوله في ذم الدنيا وذكر الموت :

ألا إِنِّمَـــا الـــدُّنيا كَـــأَحْلامِ نَـــائِمٍ وَمَـــا خَيْـــرُ عَـــيْشٍ لاَ يَكُـــونُ بِـــدَائِمِ[2]

وأول ما نلاحظه على هذه الأبيات هو كثرة المدات ،وحروف اللين ،وفي المد استرخاء ومطاولة زادها إمعاناً في التباطي هنا تشديد الحروف ،مما يجعل النفس يمتد معها أكثر حتى ينقطع عند الحرف الذي يليه[3] ،وهذا الامتداد في النفس والتطاول يتناسب مع مواقف الحزن والألم ،التي لا تخلو منها أبيات الزهد ،لذا يعد البحر الطويل بسعته ورحابته ،وبرنته الموسيقية المنزوية خلف المعاني أقدر على إبراز معاني الزهد . وفي قول ابن عبد ربه يرثي نفسه:

كِلانـــي لِمـــا بـــي عـــاذِلِيّ كَفَـــاني طَويـــتُ زمـــاني برهـــةً وطـــواني[4]

ألاحظ سيطرة المدات واللين على هذه الأبيات حتى لا تكاد تخلو منها كلمة، وذلك لأنها تنبع من سيطرة الحزن على الشاعر لما أصابه من تدهور وانحطاط في قوته ،ولهذا

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٤٩

٢ نفسه – ص ١٥٧

٣ انظر البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر، دكتور علي علي صبح – الناشر المكتبة الأزهرية للتراث-١٤١٦هـ/١٩٩٦م-ص٢٤٥

٤ ديوان ابن عبد ربه – ص١٦٣-١٦٤

فالأبيات تحمل رنة موسيقية قوية ،إلا أنها "مع قوتها كالمنزوية وراء كلام الشاعر ومعاني ألفاظه لا تزاحمها بالجلبة والطنة إلى سمعك كما تفعل رنة الكامل ،ورنة الوافر"[١] .

ولابن عبد ربه الكثير من المقطوعات والقصائد على هذا الوزن ،وهي في مجملها تتناسب معنى وفكرة ومضموناً مع هذا الإطار الذي وفق الشاعر في اختياره .أما الغزال فقد رسم في إطار هذا الوزن منهجه في الحياة وذلك في قصيدته الطويلة التي مطلعها :

لَعَمْري ما ملّكْتُ مِقْوَدَي الصِّبا   فأُطْوَللذّات في السَّهل والوَعرِ[٢]

ولا أكاد أشعر مع طول هذه القصيدة برنينها الموسيقي الذي انطوى تماما خلف ما يريده الشاعر من معانٍ عميقة يفسر بها نهجه الذي انتهجه في حياته . وساعد على ذلك التناوب بين المد واللين تناوب متوازٍ ،مع كثرة الشدات التي تقوي المعنى ،ويؤكد بها الشاعر على طريقته في الحياة التي تنطوي على بُعده عن المعاصي والذنوب .

كما طوع الغزال البحر الطويل في قصيدته التي يتحدث فيها عن عشوائية اختيار الموت للناس و مطلعها :

وَكَمْ ظاعِنٍ قَد ظَنَّ أَنْ ليس آيِباً   فَآبَ وَأَوْدى حاضِرونَ كَثيرُ[٣]

وفي رثاء نفسه يقول على هذا الوزن :

ألستَ تَرى أنّ الزَّمانَ طَواني   وبَدّلَ خَلقي كُلَّه وبَراني[٤]

---

١ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها –١/ ٤٤٥

٣ ديوان الغزال – ص ٧٣

٢ ديوان الغزال – ص٧٨-ص٧٩ ٤ نفسه – ص ١١٢

والرثاء مصاحب للحزن بلا شك ،وفي هذا الأمر ما يخلق نوعاً من الملاءَمة بين الأبيات وبحر الطويل الذي يحمل القدرة على استيعاب معاني الحزن والألم .

ومن الجدير بالذكر أن هذه القصيدة تقترب من أبيات ابن عبد ربه في رثاء نفسه [١] ، التي نظمها على نفس الوزن والقافية ،إلا أن حروف المد واللين في مقطوعة الغزال أقل مما ورد في مقطوعة ابن عبد ربه ، وقد يرجع ذلك إلى اختلاف حدة مشاعر الحزن عند كلا منهما .

أما موسى بن محمد بن حدير فأبياته الوحيدة التي قالها في الشيب جاءت على هذا الوزن حيث يقول في مطلع مقطوعته :

فَيَا شَرَّ ضَيْفٍ حَلَّ بِي، وَحلولُهُ يُخَبِّرُني أَنْ المَمَاتَ قريبُ [٢]

لقد أسعف البحر الطويل شعراء الزهد بسعته ورحابته واتساعه للكثير من المعاني التي استوعبتها رسائلهم الوعظية في كثير من الموضوعات التي يغلفها الزهد .

وعلى هذا البحر يعلق الدكتور إميل يعقوب بقوله :"يمتاز هذا البحر بالرصانة والجلال في إيقاعه الموسيقي "[٣] .كما تحدث عنه الدكتور إبراهيم أنيس بقوله :"ليس بين بحور الشعر ما يضارع البحر الطويل في نسبة شيوعه ،فقد جاء ما يقرب من ثلث الشعر العربي القديم من هذا الوزن "[٤]، وإكثار الزهاد من أبياتهم على هذا الوزن إن دل على شي فإنما يدل

---

١ انظر الأبيات في ديوان ابن عبد ربه – ص١٦٣-ص١٦٤

٢ الحلة السيراء – ١/٢٣٦

٣ المعجم المفصل –ص ١٠٣

٤ موسيقى الشعر–ص٥٩

على اهتمامهم بالشكل والمضمون ، فبحر الطويل يجمع إلى رنته الموسيقية القوية ، مقدرة فائقة على إبراز المعنى ، فهو أقدر البحور على إبراز معاني الزهد التي ذهب إليها الشعراء . كما يدل على تمكنهم وبراعتهم وإلمامهم الواسع بعلم العروض وقواعده .

وقد علق الدكتور عبد الله الطيب على هذين البحرين بكلمة عامة قال فيها :"الطويل والبسيط أطولا بحور الشعر العربي ، وأعظمها أبهة وجلالة ،وإليهما يعمد أصحاب الرصانة . وفيهما يفتضح أهل الركاكة والهجنة . وهما في الأوزان العربية بمنزلة السداسي عند الإغريق ،والمرسل التام عند الانجليز . والطويل أفضلهما وأجلهما وهو أرحب صدراً من البسيط ،وأطلق عناناً ،وألطف نغماً . ذلك بأن أصله متقاربي ،وأصل البسيط رجزي ،ولا يكاد وزن رجزي يخلو من الجلبة مهما صفا "[1] .

ومن البحور والأوزان التي وجدت استحسانا وإقبالا من شعراء الزهد البحر الكامل "وهو أكثر بحور الشعر جلجلة وحركات . وفيه لون خاص من الموسيقا يجعله –إن أريد به الجد – فخماً جليلاً مع عنصر ترنمي ظاهر ،ويجعله إن أريد به إلى الغزل وما بمجراه من أبواب اللين والرقة ،حلواً مع صلصلة كصلصلة الأجراس ،ونوع من الأبهة يمنعه أن يكون نزقاً أو خفيفاً شهوانياً"[2] ،وهذا البحر متميز عن غيره من البحور بما له من أضرب كثيرة ،ومن

١ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها– ١/ ٤٤٣
٢ نفسه – ١/ ٣٠٢

ذلك استمد تسميته بهذا الاسم فقد قيل في سبب التسمية : "لأن أضربه أكثر من أضرب سائر البحور ، فليس بين البحور بحر له تسعة أضرب كالكامل "[1] .

وقد نظم في هذا البحر كل من ابن عبد ربه والغزال والأمير عبد الله،وتفوق الغزال على ابن عبد ربه والأمير عبد الله في كثرة ما نظم على هذا الوزن ،ومن ذلك على سبيل المثال قوله في الناس واختلافهم في الأعمال :

النَّــاس خَلـــقٌ واحـــدٌ مُتشـــابه لكنَّمـــا تَتخـــالف الأعمـــالُ[2]

والمتأمل في هذه الأبيات يجد الدندنة والجلجلة التي تنشأ عن تفعيلات الكامل ،مع ما في الأبيات من معنى شريف يرتبط بجدية الموضوع الذي يتكلم عنه الشاعر .وعلى هذا الوزن يقول ابن عبد ربه في الشيب والتحسر على الشباب :

ولَّــى الشَّــبابُ وكنــتَ تَســكنُ ظِلَّــهُ فــانظرْ لنفسِــكَ أيَّ ظِــلٍّ تســكُنُ
وأنْــهَ المَشــيبُ عــن الصِّــبا لــو أنَّــهُ يُــدْلي بحُجَّتــهِ إلى مَــن يَلْقَــنُ[3]

وفي البيتين تظهر مدى الحسرة التي انتابت الشاعر ،وقد أكسبت تفعيلات الكامل البيتين قوة في الموسيقى معبرة عنها .

---

١ المعجم المفصل –ص١٠٦
٢ ديوان الغزال – ص ٩٣–ص٩٤
٣ ديوان ابن عبد ربه –ص١٦٠

ومن أقواله في الشيب على هذا الوزن قصيدة طويلة مطلعها :

بَكَــرتْ علــيَّ عَــواذلي تَلْحيْــنَني وعَلـى الـذي لم يَعْـدُ بـي أَعْـدُيْنَني [1]

ويشكل الشيب هاجس الرحيل عند ابن عبد ربه ،لذا أكثر من الصراخ في وجهه ،والحسرة والألم عند ذكره ،ويبدو أن الشاعر وجد في بحر الكامل متنفسا لحسرته وألمه فأكثر في أبيات الشيب على هذا الوزن .

كما أكثر ابن عبد ربه من مجزوء الكامل الذي يطلق عليه الدكتور عبد الله الطيب (الكامل القصير) ويرى أنه أخ للرجز القصير [2] ،فيقول ابن عبد ربه في مطلع قصيدته التي أطلقها في الدعوة إلى مكارم الأخلاق :

يــا مَــنْ تَجلَّــدَ للزَّمــا نِ أمــا زمانُــكَ مِنْــكَ أَجْلَــدْ ؟[3]

وألاحظ التناسب بين الأبيات و مجزوء الكامل خاصة مع صيغ الخطاب اللطيفة التي استعملها الشاعر في الأبيات .

ومن أقواله على مجزوء الكامل في الدهر:

يَــا دهْــرُ مــا لِــيَ أُصَــفي وأَنــتَ غَــيرُ مُــواتِ؟

جَــرَّعْتَني غُصَصــاً بِهَــا كــدَّرْتَ صَــفْوَ حَيــاتي

---

١ ديوان ابن عبد ربه — ص ١٦١

٢ انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها- ١٢٥/١

٣ ديوان ابن عبد ربه — ص٦٧

أَيـــنَ الَّـــذين تَسَـــابَقُوا في المَجـــدِ للغايَـــاتِ ؟

قـــومٌ بهـــمْ رُوحُ الحَيـــا ةُ تُـــرَدُّ في الأَمْـــوَاتِ

وإذا همُـــو ذَكـــرُوا الإسَـــا ءَةَ أَكْثَـــرُوا الحَسَـــناتِ[1]

ومن الجدير بالذكر أن أشير إلى أن الضرب هنا مقطوع ،وهذا الوزن ليس من الأوزان التي طرقها الشعراء ،ويعد هذا الشاهد الوحيد على هذا الوزن[2] .أما الأمير عبد الله فيقول في الموعظة من الكامل :

يـــا مَـــنْ يُراوِغُـــهُ الأجَـــلْ حَتَّـــامَ يلـــهيكَ الأمَـــلْ[3]

وفي الأبيات شدة ما كان ليلائمها بحر غير الكامل ، وتنبع هذه الشدة من كون الأبيات زاجره أكثر من كونها واعظة .

هذا وقد حظي بحر الكامل بالمرتبة الثانية في نسبة الشيوع في الأشعار العربية[4] ، ويعد هذا البحر صالحًا لكل أنواع الشعر ،ومن مميزاته أيضاً الشدة التي تبعد به عن الرقة في أغلب الأحيان ،فكان من أصلح البحور لتنبيه الغافلين وزجرهم كما مر بنا من أبيات الأمير عبد الله ،والغزال ،كما يمتاز بجرس واضح استمده من كثرة حركاته المتلاحقة التي لولا ما يدخلها من إضمار لخرجت به إلى الرتابة والملل[5] .

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٥٥ –والبيت الأخير مضمن وهو من شواهد العروض ولا يعرف قائله –انظر موسيقى الشعر–ص١٠٩

٢ انظر أوزان الشعر (دراسة في العروض والقافية) ، للدكتور / السيد محمد ديب – دار الكتب –١٤١٥هـ/١٩٩٤م– ص٥٣

٣ كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب–٢/١٥٥

٤ انظر موسيقى الشعر–ص٦٣

٥ انظر المعجم المفصل –ص١١٤

يلي البحر الكامل أهمية لدى شعراء الزهد (بحر الوافر) الذي لديه من المرونة ما يُمكن الشاعر من تشكيله على حسب المعاني التي يريدها ،وقد قيل في سبب تسميته "سمي بحر الوافر بهذا الاسم لوفور أوتاد تفعيلاته ،وقيل لوفور حركاته ،لأنه ليس في تفعيلات البحور المختلفة حركات أكثر مما في تفعيلاته المبينة في الدائرة "[1] . وإن كان الكامل قد تميز في أضربه ،فقد تميز الوافر في حركاته . وقد نظم الشعراء في هذا البحر تاما ومجزوء ،ومن أمثلة ما ورد لدى الشعراء على هذا الوزن تاما قول الأمير عبد الله :

أرَى الدُّنيا تَصِيرُ إلى فَنَاء ... وَمَا فيها لشيء من بَقَاء[2]

ويتضح مناسبة هذا البحر لهذه الأبيات التي استمد الشاعر من وفرة حركاته الإيقاع السريع الذي يناسب سرعة انقضاء الزمان وفناء الدنيا وما فيها . ومما ورد من الوافر قول ابن عبد ربه في أبيات الموعظة التي مطلعها :

أتَلْهو بَينَ باطِيةٍ وَزيرِ ... وأنتَ مِنَ الهلاكِ على شفيرِ ؟[3]

وفي هذه الأبيات أيضا يتضح الأسلوب الخطابي ،وما يصاحبه من نغمة موسيقية متذبذبة وسريعة ورنانة ،تتلاءم مع الوافر . ومن مجزوء الوافر قول الغزال :

لَقَدْ فَسَدَتْ فَمَا تَلْقَى ... بِهَا مَنْ لَيْسَ ذا شَجَنِ
وَصَارَ الحَيُّ مِنّا يَغْـ ... ـبِطُ المَلْفُوفَ في الكَفَنِ[4]

---

١ المعجم المفصل –ص١٥٧

٢ كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس – ٢/ ١٥٥

٣ ديوان ابن عبد ربه – ص ٩٧

٤ ديوان الغزال – ص ١٠٩

فقد طوع الشاعر هذا البحر بحركاته المتلاحقة في تصوير سرعة فساد الحياة ،وعموم الحزن فيها ،وبين جنباتها ،وهي نظرة مبالغ فيها من الشاعر إلا أنها تنم عن إحساسه بالتشاؤم إزاء الحياة التي يعيشها .

والزهد كما سبق أن عرفنا عبارة عن مقطوعات قصيرة في أغلبه ، لذا يجدر بي الإشارة هنا إلى علاقة القطع ببحر الوافر كما ذكرها الدكتور عبد الله الطيب حين قال :"والوافر لخفته وسرعته وقوته من أصلح بحور الشعر العربي للقطع "[١] .

هذا بالنسبة لأكثر البحور شيوعا واستخداما في شعر الزهد ، أما بقية البحور فقد نظم فيها الشعراء بعض الأبيات والمقطوعات القصيرة ولكنها قليلة ،من هذه البحور بحر الرجز الذي استعمله الشعراء تاما ومجزوء في أكثر من موضع ،من ذلك قول ابن عبد ربه :

يَا أَيُّهَا المَشْغُوفُ بِالحُبِّ التَّعِبْ كَمْ أَنتَ فِي تَقْرِيبِ مَا لا يَقْتَرِبْ[٢]

وأول ما يلاحظ على هذه الأبيات التزام الشاعر بالقافية في كل شطر من أشطر البيت ،وهذا ما يطلق عليه علماء العروض المشطور[٣] ،لذا يغلب على الأبيات السهولة والعذوبة . ومثلها أبيات الغزال في ذم الدهر التي مطلعها :

إِنِّي حَلَبْتُ الدَّهرَ أَصنافَ الدِّرَرْ[٤]

وتتميز هذه الأبيات بأنها حلوة النغم ، ذات جرس موسيقي رشيق .

١ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها – ١/ ٤٢٥
٢ ديوان ابن عبد ربه – ص٤٤
٣ انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها – ١/ ٢٨٣
٤ ديوان الغزال – ص ٦٧

وبحر الرجز لكثرة ما يعتريه من تغييرات هو أنسب البحور للارتجال والقول على البديهة وما ورد لدى شعراء الزهد على هذا البحر هو أقرب للارتجال ،وكثرة التغييرات المألوفة في أجزائه ،وتنوع ضروبه وأعاريضه جعله من أسهل البحور الشعرية ،لذا أُطلق عليه (مطية الشعراء)أو (حمار الشعراء) ،وبعض العروضيين يجعلونه سجعا لا شعرا ،ومنزلته متدنية عند النقاد [١] ،لذا لم يحظَ باهتمام واسع من شعراء الزهد .

ومن الأوزان التي استعملها شعراء الزهد أيضًا بحر السريع .ولسرعة هذا البحر سبب يتضح فيما قيل في سبب تسميته التي قيل فيها :"سمي السريع بهذا الاسم لسرعة النطق به ،وهذه السرعة متأتية من كثرة الأسباب الخفيفة فيه ،والأسباب أسرع من الأوتاد في النطق بها"[٢] .وقد انفرد ابن عبد ربه بهذا البحر في ثلاثة مواضع وذلك في قوله في تذكر موقف الحشر :

يا وَيلتا مِنْ مَوْقفٍ ما بهِ   أَخْوفُ مِنْ أَنْ يعدِلَ الحاكمُ
أبارزُ اللّهَ بِعصيانِهِ   وليسَ لي من دُونِهِ راحِمُ
يا ربّ غُفرانَك عن مُذنبٍ   أسرفَ إلا أَنَّهُ نادِمُ[٣]

وسرعة البحر تتلاءم مع سرعة الأحداث التي ذكرها الشاعر ،وهي تذكر موقف الحساب ، ثم الاعتراف بالذنوب والمعاصي ، يليها التوبة وطلب المغفرة من الله عز وجل .

١ انظر المعجم المفصل — ص٨٧ ٣ ديوان ابن عبد ربه — ص ١٥٠
٢ المعجم المفصل —ص٩٣-ص٩٤

وفي موضع آخر يقول ابن عبد ربه في خشية الله :

مَـدامِعٌ قَـدْ خَـدَّدَتْ في الخُـدود وأَعْـيُنٌ مَكْحُولَـةٌ بـالهُجودِ[1]

ولا يخفى التلاؤم الذي أحدثه الشاعر بين المعنى والقالب الذي صب معناه فيه ، ذلك لأن المعنى الذي أراده الشاعر هو بيان سرعة استجابة هؤلاء المعتكفين لوعيد الله عز وجل ،وسرعة مبادرتهم إلى محاريبهم للصلاة والعبادة والدعاء خوفاً وخشيةً من هذا الوعيد . وفي الموعظة يقول ابن عبد ربه على هذا الوزن أيضا :

بَكيـتُ حَتَّـى لم أَدَعْ عَـبرةً إِذْ حَملوا الهودَجَ فَوقَ القَلوصْ[2]

وابن عبد ربه أكثر في أبياته السابقة من الوصف ،وتصوير العواطف والمشاعر والانفعالات التي تصاحب الخوف والخشية والبكاء ،وكان خير ما يمثل ذلك كله البحر السريع الذي قيل عنه :"بحر السريع سلس عذب ،يحسن فيه الوصف وتمثيل العواطف والانفعالات "[3] . كما استعمل الشعراء بحر الخفيف الذي سمي بهذا الاسم لخفته المتأتية من كثرة أسبابه الخفيفة[4] ،ومن أمثلة ذلك قول الغزال :

أَنـا شَـيخٌ وَقُلتُ في الشَّيخِ ما يَعـ ـلَمُهُ كُلُّ أَبلَهٍ وَذَهـينِ
كُـلُّ شَـيخٍ تَـراهُ يُكثِرُ مِن كَسـ ـبِ الجِواري فَخُذهُ لي بِالقُرونِ[5]

---

١ ديوان ابن عبد ربه — ص٧٧
٢ نفسه — ص ١٠٥

٣ المعجم المفصل –ص٩٧
٤ نفسه – ص٩٤
٥ ديوان الغزال – ص ١١٤

لقد عُرف الغزال بميله إلى الدعابة والهزل ،مما جعله يجد في هذا البحر من الاعتدال ما يجمع به بين مواضيعه الجادة والهزلية التي جمع بينها في هذين البيتين ،فالبحر الخفيف ذو طابع واحد لا يتغير من وضوح النغم واعتداله ،بحيث لا يبلغ حد اللين ولا حد العنف ولكن يأخذ من كل منهما بنصيب(١) .

وقد قيل في بحر الخفيف : " هذا البحر أخف البحور على الطبع ، وأطلاها على السمع ،يشبه البحر الوافر في اللين والسهولة ،حتى إن النظم فيه يقرب من النثر . وهو يصلح لموضوعات الجد كالحماسة والفخر ولموضوعات الرقة واللين كالرثاء ،والغزل والوجدانيات ،وهو إن لم يكن كالبحر الطويل في الفخامة والجلال ،ولا كالبحر المنسرح في اللين والتكسر ،فإنه آخذ من كل منهما بنصيب "(٢) . ومن البحور التي استخدمها شعراء الزهد بقلة (بحر المتقارب) ،وقد ورد هذا البحر لدى كل من الغزال في قوله في الحكمة :

إذا كُنْتَ ذا ثَروَةٍ مِن غِنىً   فَأَنتَ المُسَوَّدُ في العالَمِ
وَحَسبُكَ مِن نَسَبٍ صورَةٌ   تُخَبِّرُ أَنَّكَ مِن آدَمِ(٣)

وفي قول ابن عبد ربه في الوعظ :

لا تَبكِ لَيْلَى ولا مَيّه   ولا تَندُبَنْ راكباً نِيّه
وَبكِ الصّبا إذ طَوى ثَوبَهُ   فلا أحدٌ ناشِرٌ طيّه(٤)

١ انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها –١/٢٤٢
٢ المعجم المفصل–ص٨١
٣ ديوان الغزال – ص ١٠٨
٤ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٧١

ولا يخفى ما في هذه الأبيات وما سبقها من التدفق والسرعة نظراً إلى قصر تفعيلات هذا البحر ،كما أن كونه مبنيا على تفعيلة واحدة مكررة جعله رتيب الإيقاع[١] .كما استعمل الغزال مجزوء الرمل في قوله :

وَمُـــــراءٍ أَخَـــــذَ النّـــــا ... سَ بِسَـــــمْتٍ وَقُطـــــوبِ
وَخُشـــوعٍ يُشـــبِهُ السُّقْـــ ... مَ وَضَـــعفٍ في الـــدَّبيبِ[٢]

وجد الشاعر في هذا البحر ما يتلاءم مع الإيقاع السريع لهذه الأبيات ، لما فيه من خفة وسرعة في النطق .

هذا وقد اتضح من خلال أبيات الشعراء في الزهد مدى اعتمادهم على البحور والأوزان التي كان لها الدور البارز في موسيقى الأبيات ،وما بينها من تناغم ،وما يعلوها من إيقاع ترنيمي تشرئب لسماعه الآذان ،وتطرب له الأنفس ،وفي الوقت نفسه لعبت هذه الأوزان دورا في جلاء المعنى الذي أراده الشاعر ،فقد" ربط بعض الباحثين بين موضوع القصيدة والبحر الذي كانت تنظم فيه في الشعر العربي ،أي بين موقف الشاعر في معانيه وعاطفته وبين الإيقاع والوزن الذين اختارهما للتعبير عن موقفه "[٣] .لذا نرى مدى أهمية البحور الطويلة كبحر البسيط والطويل والوافر والكامل التي أكثر الشعراء من استخدامها

،خاصة في المواضيع الجادة كالحديث عن الموت والدنيا وزوالها ،والآخرة ، إلى غير ذلك

---

١ انظر المعجم المفصل–ص١٢٤

٢ ديوان الغزال — ص ٥١

٣ النقد الأدبي الحديث — ص ٤٦٧

وما أحدثته هذه البحور في الأبيات من جلال وفخامة جمعت بين شرف اللفظ والمعنى .

كما لم تخلُ أبياتهم من البحور القصيرة كالخفيف والرجز والمتقارب التي أقلَّ الشعراء في استخدامها .وقد علق الدكتور عبد الله الطيب على البحور القصار بأنها "لا يصلح فيها النظم إلا لمجرد الدندنة والترويح عن النفس بجرس الألفاظ ، وفيها جميعاً رتابة تشينها ،وبحران منها فقط لها نغم حلو يتقبله السمع ويرتاح إليه ،إن وفق الشاعر في ذلك إلى السلاسة وتجويد اللفظ ،وهما الخفيف . . والرجز ،والرجز أقواهما "[1] .

وهذا ما يؤكد أيضا أن شعراء الزهد سلكوا في أبيات الزهد طريق الجودة والإحكام ، وأحسنوا الاختيار لما يلائم أبياتهم في سكناتها وحركاتها من بحور وأوزان .

٢ـ القافيـــــة :

"القافية قيمة موسيقية في مقطع البيت ،وتكرارها يزيد في وحدة النغم "[2]، وقد عرفها العرب منذ القدم في ما يعرف بالأرجاز وسجع الكهان ،وتنبهوا إلى ما تحدثه هذه القوافي في القصائد من موسيقى تدل على براعتهم في النظم ، حيث تجعل السامع ينتظر بشغف ما يلي الأبيات بنفس النغم حتى نهاية القصيدة ، لذا اعتنى الشعراء بقوافيهم وبالغوا في هذه

العناية لدرجة أن الشاعر المقدم عندهم هو من يحسن الإتيان بها ،وما ذلك إلا لمشقة الحصول عليها [٣] .

١ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها –١/١٠٨

٢ النقد الأدبي الحديث – ص ٤٦٩

٣ انظر القافية والأصوات اللغوية ، د.محمد عوني عبد الرءوف –الناشر مكتبة الخانجي- مصر–ص٨١–ص٨٨

كما اعتنى علماء اللغة بدراستها منذ زمن الخليل بن أحمد الفراهيدي واضعين لها العديد من التعريفات التي يرى بعض الباحثين أن أرجحها تعريف الخليل الذي يقول فيه:"إنها من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه مع ما قبله "[١] .

وآخر حرف في البيت قد يكون حرف الوصل المتولد عن إشباع حركة الروي ثم يدخل في القافية ما يسبق هذا الحرف من حروف متحركة إلى أن تتوقف عند أول ساكن يليها مع الحرف الذي يسبقه .

وحين نتتبع هذه الدراسات [٢]نجدها تُجمع على حروف معينة ذات مسميات خاصة تكُّون في مجملها قافية الأبيات ويلجأ الشاعر إلى بعضها دون بعض بحسب النغم الذي يريد أن يحدثه ،والموضوع الذي يطرقه في قصيدته ،كما تجمع الدراسات السابقة على أهمية البيت الأول في القصيدة الذي أطلق الباحثين عليه (الملتزم) لالتزام الشاعر به من حيث الوزن العروضي ،ونوع القافية في بقية أبيات القصيدة .

وتعد القافية مكملة للوزن في إحداث النغم الشعري "فبالوزن والقافية تتم وحدة النغم وتحدث الهزة الشعرية المرادة من الشاعر ، لنقل تجربته إلى القارئ ،والسامع "[3] .وقد قسمت القافية تبعاً لحركة الروي إلى قسمين وهما :

١ المعجم المفصل–ص٣٤٧–وورد أيضا في – علم العروض والقافية، إعداد راجي الأسمر– دار الجيل –بيروت –ط١–١٤٢٠هـ/١٩٩٩م – ص١٤٢

٢ انظر دراسات في العروض والقافية ، د/عبد الله درويش–مكتبة الطالب الجامعي–مكة المكرمة –ط٣–١٤٠٧هـ/١٩٨٧م–ص٤٩وما بعدها –وانظر أيضا علم العروض والقافية–ص١٤٣ وما بعدها

٣ الطريق المعبد إلى علمي الخليل بن أحمد العروض والقافية –ص٢٧٦

–مقيدة :ويكون الروي فيها ساكناً ،وهذا النوع قليل جدا في الشعر العربي بحيث لا يتجاوز ١٠% .

– مطلقة:ويكون الروي فيها متحركا ، وهو الكثير الشائع في الشعر العربي ،ويلتزم الشعراء بحركاتها التزاماً تاماً ، والشاعر الذي لا يلتزم بهذا الحرف وحركته يقع في عيوب القافية وهي كثيرة ذكرها علماء العروض في كتبهم ولا مجال لذكرها هنا [1].

وبالنسبة لأبيات الزهد التي بين أيدينا فقد أطلق شعراء الزهد في هذه المرحلة لقوافيهم العنان ، فجاءت أغلب القوافي مطلقة غير مقيدة بقيود الحروف الساكنة إلا في القليل منها .

كما عند الأمير عبد الله في لاميته التي يقول فيها :

يَا مَنْ يُراوِغُهُ الأَجَلْ   حَتَّامَ يلهيكَ الأَمَلْ

حتَّامَ لا تَخْشَى الرَّدَى   وكَأَنَّه بِكَ قَدْ نَزَلْ

أغفَلْــتَ عَـــن طَلَــبِ النَّجــاةِ   وَلا نَجَـــــاةَ لِمَــــــن غَفَــــلْ

هَيْهَـــــاتَ يَشْـــغلك المُنَـــى   وَلَمَـــا يــــدومُ لَـــكَ الشّـــغَلْ

فكـــــأنَّ يومَـــــك لم يَكُـــــنْ   وكـــأنَّ نَعْيَـــكَ قَـــد نَـــزَلْ[2]

فانتهاء الأمل ، وانتهاء الأجل ، وعدم نجاة من غفل ، أمور ألزمت الشاعر بتقييد هذه القافية . وقافية اللام من أحلى القوافي لسهولة مخرجها ،ولأن "صوت هذا الحرف يوحي

١ انظر موسيقى الشعر –ص٢٦٠   ٢ كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب-٢/١٥٥

بمزيج من الليونة ،والمرونة والتماسك والالتصاق "[1] .

ومما يلاحظ على الأبيات سلامتها من عيوب الحركات ،ووقوعها في (الإيطاء) وهو عيب من عيوب القافية ،تتكرر فيه قافية واحدة بلفظها ومعناها من غير فاصل أقله سبعة أبيات[2]، والشاعر هنا كرر عبارة (قد نزل) بلفظها ومعناها بعد بيتين فقط ،وهذا الأمر "هو الشائع في الإيطاء بين العروضيين أما الذي رأى أن القصيدة ما احتوت على ثلاثة أبيات فصاعداً ،كالأخفش ،فقد أباح تكرير الكلمة دون عيب على أن يفصل بين الكلمتين المكررتين هذا العدد من الأبيات "[3] . ومع ذلك يظل عيب الإيطاء ملازماً للأبيات لأن الفاصل هنا بيتان فقط . "فالإيطاء لا شك محمول على العيّ وقلة المادة اللغوية التي هي ضرورية للشاعر فلا ينبغي أن يدل الشاعر على قلة بضاعته بتكرار لفظ واحد

بمعنى واحد في غير فاصل بينهما بسبعة أبيات على الأقل "[٤] . كذلك تظهر القافية المقيدة في قول ابن عبد ربه :

بَكيتُ حَتَّى لم أَدَعْ عَبرَةً   إِذْ حَملوا الهودَجَ فَوقَ القَلوصْ[٥]

أتى الشاعر بقافيته مقيدة لأن الأمور التي ذكرها في أبياته تشكل النهاية بالنسبة له ، فحمل الهودج فوق القلوص يشكل الرحيل ، والإتيان بالقميص ليعقوب يشكل النهاية

---

١ خصائص الحروف العربية ومعانيها – ص ٧٩

٢ انظر علم العروض والقافية – ص ١٦٥

٣ المعجم المفصل – ص ٣٦٩

٤ شرح كتاب أهدى سبيل إلى علمي الخليل العروض والقافية –الأستاذ محمود مصطفى- دار الكتب العلمية-لبنان-ص١٩٥

٥ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٠٥

لمعاناته ، والإيمان بالقدر يشكل النهاية للأسف والحزن على الماضي ،وعند الخير وسرعته يتوقف جهد الحريص . وقافية الصاد من القوافي النفر كما صنفها الدكتور عبد الله الطيب ،وأطلق عليها (قتب أشرس) ،لمشقة الإتيان بها [١] . والقافية هنا مع تقييدها فهي مردفة بالواو والياء ،والدكتور إبراهيم أنيس يعجب من وجود هذا الأمر بقوله :"أما جواز وقوع التناوب بين واو المد وياء المد في القافية المقيدة فأمر عجيب حقا ،ولا ندري كيف سمح به الشعر العربي ؟" [٢] . وفي موضع آخر يقول :"ولا شك أن تناوب واو المد وياء المد في القافية المقيدة ظاهرة قبيحة من حيث الموسيقى الشعرية،ولذلك يأباها الشعر الإنجليزي كل الإباء "[٣] . فوجود الردف المتناوب بين الواو والياء مع القافية المقيدة أمر لم يستحسنه الدكتور إبراهيم أنيس ،ولا ضير في ذلك ،إلا أنه غالى في الأمر حين جعل

التزام واو المد أو ياء المد أحسن من التناوب بينهما حتى مع القافية المطلقة ،بناء على ما ذكره الصبان في ذلك (٤) . كذلك تظهر القافية المقيدة في قول ابن عبد ربه في النصح :

يَـا أَيُّهـا المَشْـغُوفُ بِالحُـبِّ التَّعِـبْ   كـمْ أَنتَ في تَقْـرِيبِ مَـا لا يَقْترِبْ

دَعْ وُدَّ مْـنْ لا يَـــرْعَوي إذا غضِبْ   وَمَـــنْ إِذَا عَاتَبْتَـــهُ يَوْمـــاً عَتَـــبْ

إِنَّـــكَ لا تَجـــني مِـــنَ الشَّـــوكِ العِنَـــبْ (٥)

١ انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها –١/ ٧٥- ٧٦

٢ موسيقى الشعر–ص٢٩٤

٣ نفسه –ص٢٩٦

٤ انظر موسيقى الشعر –ص٢٩٤

٥ ديوان ابن عبد ربه – ص٤٤

تتمثل القافية في كلمة (يقترب) برويها الباء الساكنة ،وحركة التوجيه وهي كسرة الراء ، وقافية الباء من القوافي الذلل التي أكثر شعراء الزهد في الإتيان بها لسهولتها . وتقييد القافية هنا ينبع من غرض الشاعر من نصيحته وهو طلب التوقف عن هذا الأمر الذي يرى فيه الشاعر التعب والمشقة والنهاية التعيسة . وفي الأبيات عيب من عيوب القافية يتمثل في سناد التوجيه الذي تختلف فيه حركة التوجيه قبل الساكن ، وقد اختلفت حركة التوجيه في قافية الأبيات من الكسرة في (التعِب ،لا يقتِرب ،غضِب) إلى الفتحة في (عتَب ،العنَب) . ويقول السكاكي في عيب التوجيه : " وفي الأصحاب من لا يعده عيباً لكثرة وروده في الشعر ، والأقرب عده عيباً "(١) . ومن القوافي المقيدة قول ابن عبد ربه في الأخلاق الكريمة :

يـــــا مَــــــنْ تَجلَّـــــدَ للزَّمـــــا   نِ أمـــا زمانُـــكَ مِنْـــكَ أَجْلَـــدْ ؟

سَـــــلِّطْ نُهْـــــاكَ عَلَـــــى هَـــــوَا   كَ وَعُـــدَّ يَوْمَـــكَ لَـــيْسَ مِـــنْ غَـــدْ

إِنَّ الحيـــــــــاةَ مَــــــــــزارِعٌ   فَـــازْرَعْ بِهـــا مـــا شِـــئْتَ تَحْصُـــدْ

(٢)

فقافية البيت كلمة (أَجْلَدْ) وحركة التوجيه هي فتحة اللام، وفي تقييد القافية دلالة على التأكيد على هذه الأخلاق الكريمة التي يدعو الشاعر إلى ضرورة التقيد بها ،ويؤكد على ضرورة التقيد بهذه الأخلاق الكريمة باختيار حرف الدال كقافية للأبيات لما يحمله

---

١ كتاب مفتاح العلوم ، لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي–ط١– المطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم –مصر– ص٣٠٢

٢ ديوان ابن عبد ربه – ص٦٧

من قوة وشدة . وهذه الأبيات لم تسلم من عيب سناد التوجيه أيضاً الذي يظهر في اختلاف حركة التوجيه ما بين فتح وضم . ومن القوافي المقيدة قول الغزال في الدهر :

إِنِّـــي حَلَبْـــتُ الـــدَّهرَ أَصـــنافَ الـــدِّرَرْ

فَمَـــــرَّةً حُلْـــــواً وأَحيانـــــاً مَقِـــــرْ

وَعَلقَمـــــاً حينـــــاً وَأَحيانـــــاً صَـــــبِرْ

وَجُـــلُّ مـــا يَســـقيكَهُ الـــدَهرُ كَـــدِرْ

فَلَـــم أَجِـــدْ شَـــيئاً مِـــنَ الفَقـــرِ أَمَـــرْ

أَلَا تَـــرى أَكْثَـــرْ مَـــن فيهـــا يَفِـــرْ

مَخافَـــةِ الفَقـــرِ إلى نـــارِ سَـــقَرْ[1]

قافية الأبيات من القوافي المقيدة المجردة من الردف و التأسيس ،وكأن الشاعر بتقييدها وتجريدها يقيد الدهر بالحزن والمرارة ويجرده من الأفراح والمسرات . وهذه الأبيات أيضا لم تسلم من عيب سناد التوجيه حيث اختلفت فيها حركة التوجيه ما بين الفتح والكسر . ومثل هذه المقطوعة يطلق عليها الدكتور سعد شلبي مسمى (مسبعات)[2] .

---

١ ديوان الغزال – ص ٦٧

٢ انظر الأصول الفنية للشعر الأندلسي–ص ٣١٨

ومن الجدير بالذكر أن قافية الراء من القوافي التي أكثر شعراء الزهد الإتيان بها لسهولة مخرجها ،ولكون الراء الصوت التكراري الوحيد في العربية[1] ،وهذا ما يضفي على القوافي طابع القوة والتأكيد .

وأشير هنا إلى أن جميع ما ورد من عيب سناد التوجيه لدى الشعراء هو ما عابه الخليل ،الذي لم يجز من حالات سناد التوجيه إلا الضمة مع الكسره ،وذلك لما بين الضمة والكسرة من وجوه شبه كما يرى ذلك الدكتور إبراهيم أنيس[2] ،وهذا ما لا نجده هنا . ومن القوافي المقيدة أيضا ما ورد في قول عبد الملك بن حبيب في أبياته التي مطلعها :

كيـفَ يُطيـقُ الشِّعْـرَ مَـنْ أَصْبَحَتْ　　　حَالَتُـــهُ اليـــومَ كحـــالِ الغَـــرِقْ[3]

فالقافية مقيدة ومجردة من الردف والتأسيس ، وقد قيدها الشاعر كما قيد القدرة على الشعر بفراغ القلب واتساع الخلق ،والتقييد هنا نابع من نفسية الشاعر المقيدة بالحزن والهم يدل على ذلك اختياره حرف القاف وهو "كما نعرف حرف مجهور شديد ، لأنه يحجز الهواء خلفه ،حتى ينقطع نفس الشاعر من شدة الحزن، وهو حرف مستعل لأن اللسان يرتفع به إلى أعلى الحنك وهذا يؤكد أن الحزن فوق طاقته البشرية التي ضعفت

---

١ انظر علم الأصوات ، د/محمد أحمد محمود -دار اشبيليا للنشر والتوزيع-ط١- ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م- ص١٢٣

٢ انظر موسيقى الشعر — ص٢٦٧

٣ مطمح الأنفس - ص٢٣٦ - ووردت في نفح الطيب- ٧/٢

أمامه ،وحرف منفتح ،لأن الحسرة تجعل الإنسان مسترخياً فاغرا فاه ،وحرف مقلقل . . . "[١] .

والدكتور عبد الله الطيب يقول عن هذا الحرف :"والقاف حرف متحامى عنه ،وجياده ليست كثيرة" [٢] . ومما يلاحظ على هذه الأبيات سلامتها من عيوب القافية .

يقول الدكتور عبد الله الطيب بشأن القافية المقيدة :"واستعمال القافية المقيدة بعد المد كثير جدا نحو (غادرْ)و(ناصحْ) و(عليمْ)و(مغربانْ) .ولكن استعمالها من غير أن يسبقها مد غير كثير ،وفيه عسر شديد في البحور الطوال ،إلا بحري الرمل والمتقارب لخفتهما "[٣] .

وفي الأبيات التي أدرسها أجد أغلب القوافي المقيدة لم تسبق بمد ،ما عدا قافية الصاد في أبيات ابن عبد ربه في الموعظة جاءت مردفة بالواو والياء ، ومع ذلك فلا ألمس في هذه الأبيات العسر والثقل ، ومرجع ذلك إلى أن أغلبها من بحري الرجز والكامل ،و"الكامل والرجز يقبلان التقييد "[٤] .

هذا بالنسبة للقوافي المقيدة التي جاءت بناء على ما يختلج في نفس الشاعر من مشاعر مندفعة ،متدفقة ، فقيد تدفقها بتقييد القوافي .

---

١ البناء الفني –ص٢٥٦

٢ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها – ١/ ٦١

٣ نفسه –١/ ٥٤

٤ نفسه – ١/٥٥

وهي تشكل بالنسبة للقوافي المطلقة النزر اليسير ، فقد أكثر الشعراء من إطلاق القوافي خاصة في الموعظة وما يتعلق بالموت وزوال الدنيا ، من ذلك أبيات للغزال :

أَيــا لاهِيــاً في القَصْـرِ قُـرْبَ المَقَــابرِ   يــرى كُــلَّ يَــومٍ وارِداً غَــيرَ صــادِرِ

كَــأَنَّكَ قَــد أَيقَنْتَ أَنْ لَــسْتَ صــائِرا   غَــداً بينَهُــمْ في بَعضِ تلكَ الحَفــائِرِ

تَــراهُمْ فَتَلْــهُو بالشَــرَّابِ وبَعْــضِ مــا   تَلَــذُّ بــهِ مِــن نَقْــرِ تلــكَ المَزاهِــرِ

وَمــا أَنتَ بالمَغْبــونِ عَقــلاً ولا حِجىً   ولا بِقَليــلِ العِلْــمِ عِنــدَ التَخــابُرِ

وَفي ذاكَ مــا أَغنــاكَ عَن كُلِّ واعِــظٍ   شَفيــقٍ وَمــا أَغنــاكَ عَن كُلِّ زاجِــرِ

وَكَــمْ نِعمَــةٍ يَعصــي بِهــا العَبــدُ رَبَّــهُ   وَيَلْــوى عَــدَّتَهُ عَن رُكوبِ الكَبــائِرِ

سَـــتَرحَلُ عَـــن هَـــذا وَإِنَّــكَ قَــادِمٌ   وَمَــا أَنتَ في شَــــكٍّ عَلى غَيـرِ عاذِرِ[1]

فقافية هذه الأبيات مطلقة مؤسسة موصولة باللين ، وفي إطلاقها دلالة على إطلاق هذا العبد العاصي في معاصيه ،على كثرة ما يرى في هذه المقابر من أحوال تغنيه عن كل زاجر ويظهر في الأبيات عيب وهو سناد الإشباع حيث اختلفت حركة الحرف الفاصل بين الروي والتأسيس ما بين الكسر والضم .

---

١ ديوان الغزال – ص ٨١-ص٨٢

ومثل هذه القافية يطلق عليها علماء العروض (المتدارك) وهي التي يقع متحركان متتاليان بين ساكنيها[1] ، وهما هنا الألف الساكنة والياء الناتجة عن إشباع حركة الكسرة .

ومن الجدير بالذكر أن هذه القافية المتمثلة في (الراء) –وهي من القوافي التي أكثر منها الشعراء– تتميز بجرس موسيقي رنان ،أسهم في إحداثه ذبذبات هذا الحرف التي تحدث رنينا خاص حلو الإيقاع حتى أن أحد الباحثين ذكر "من غرائب حرف الراء أن العربي قد أدخله في معظم الألفاظ التي تدل معانيها على أهم مصادر الحلاوة التي تذوقها في صحرائه"[2] .

ومن القوافي المطلقة أيضا ما ورد في قول ابن عبد ربه :

بَــادِرْ إِلى التَّوبَــةِ الخَلصَــاءِ مُجْتَهِــداً   وَالمَـوْتُ وَيْحَــكَ لَمْ يَمْدُدْ إِليكَ يَــدا

وَارْقُبْ مِـنَ اللَّهِ وَعْـداً لَيْس يُخْـلِفُهُ   لا بُـدَّ لِلَّـهِ مِـنْ إنْجـازِ مـا وَعَـدا[3]

القافية هي كلمة (يدا) أو حرف الدال المتبوع بألف الإطلاق ،وفي اجتماع إطلاق الروي بألف الإطلاق دلالة على حرص الشاعر على سرعة الانطلاق للتوبة والإنابة إلى الله عز وجل وفي ذلك تأكيد لدعوته بالمبادرة إليها في أول الأبيات ،ذلك لأن المبادرة في

---

١ انظر علم العروض والقافية – ص ١٧١ – وأنظر أيضاً أوزان الشعر-ص ١١٩

٢ خصائص الحروف العربية ومعانيها – ص ٩٠

٣ ديوان ابن عبد ربه – ص٦٨

الأصل هي الإسراع في الأمر[1] ،وقافية الدال من القوافي الذلل كما صنفها الدكتور عبد الله الطيب في كتابه ،وهي تلي الميم واللام في حلاوتها وسهولة مخرجها[2] . ومن القوافي المطلقة قول الأمير عبد الله :

أرَى الدُّنيا تَصِيرُ إلى فَنَاء   وَمَا فيها لشيء من بَقَاءِ

فبَادِر بالإنابة غير وَانٍ   على شَيءٍ يصِير إلى فَنَاءِ

كَأَنَّكَ قَد حُمِلتَ على سَرِيرٍ   وغُيبَ حُسنُ وَجهك في الثَّرَاءِ

فَنَافِس في التُّقى واجنح إليه   لَعَلكَ تُرضِينْ رَبَّ السَّماءِ[3]

فقد أطلق الشاعر قافيته بحركة الكسر على الروي ، التي يتولد عن إشباعها الياء ، وزاد من هذا الإطلاق كون الردف ألفا ،ذلك لتناسب الألف مع الانطلاق أكثر من الحروف الأخرى ،وفي إطلاق القافية رغبة جامحة من الشاعر في الانطلاق لله عز وجل والتقرب إليه

بالإنابة والأعمال الصالحة ، وتحريك الروي بالكسر يوحي بانكسار الشاعر وحزنه على حقيقة هذه الدنيا التي تتضمن فراق الأهل والأحباب ،وصيرورة الدنيا وما فيها إلى فناء .

والهمزة حرف هجين إلا أن ذكرها بعد ألف ممدودة جعلها سهلة لينه [٤] .

---

١ "بدرت إلى الشئ ..أسرعت" لسان العرب – مادة (بدر)

٢ انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها –١/ ٦٠

٣ كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس – ٢/ ١٥٥

٤ انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها –١/٨١

وقد تصرف الشاعر في قافية البيت الثالث وهي كلمة (الثراء) وذلك بمد المقصور فهو يريد (الثرى) وهو التراب الندي ،إلا أنه مد المقصور ليلاءم بذلك قافية الأبيات ،وهذا جائز في الشعر لأنه من الضرورات الشعرية [١] ، و"هي رُخص أعطيت للشعراء دون الناثرين في مخالفة أصول وقواعد اللغة ،وذلك بهدف إقامة الوزن وجمال الصورة الشعرية"[٢] .

ومن القوافي المطلقة قول ابن عبد ربه في الموت :

مَـنْ لي إذا جُـدْتُ بَـينَ الأَهْـلِ والوَلَـدِ   وكَـانَ مِنّـي نَحْـوَ المـوْتِ قِيـدَ يَـدِ
وَالـدَّمْعُ يَهْمُـلُ وَالأَنفـاسُ صَـاعِدَةٌ   فَالـدَّمْعُ في صَبَبٍ والنَّفْسُ في صُعُـدِ
ذَاكَ القَضَـاءُ الذي لا شَـيءَ يَصْـرِفُهُ   حَتّـى يُفَـرّقَ بـينَ الـرُّوحِ وَالجَسَـدِ[٣]

لحظات الاحتضار ومفارقة الروح الجسد لحظات ثقيلة على النفس يصاحبها الحزن والانكسار ،وهو ما عبرت عنه هذه القافية المنكسرة ،خاصة في البيت الثاني حيث اضطر الشاعر إلى تحريك العين بالضم اتباعاً لحركة الصاد وذلك للضرورة الشعرية ،وجمع بين الضم والكسر لتصوير هذه المشقة ،هذا بالإضافة إلى ما في كلمة الصعود من تصوير للمشقة والعناء [٤] .

---

١ انظر علم العروض والقافية – ص ١٧٦

٢ نفسه – ص ١٧٣

٣ ديوان ابن عبد ربه – ص ٧٦

٤ انظر لسان العرب – مادة (صعد)

ومن القوافي المطلقة أيضاً قول الغزال :

وَإِن مَقامي شَطرَ يَومٍ بِمَنزِلٍ　　أَخافُ عَلى نَفْسي بِهِ لِكَثيرُ

وَقَد يَهرُبُ الإِنسانُ مِن خِيفَةِ الرَدى　　فَيُدرِكُهُ ما خافَ حَيثُ يَسيرُ [١]

يظهر في إطلاق القافية هنا شدة مشاعر الخوف التي تنتاب الشاعر في وحدته ،والمصاحبة له في مسيره ، فهي مشاعر قوية يدل على ثقلها أيضاً حركة الضم التي على الروي ،وتكرار هذه الحركة في البيتين . ومما ورد من القوافي المطلقة للغزال أيضاً قوله :

أَغْنى أَبا الفَتْحِ ما قَد كانَ يَأمَلُهُ　　مِنَ التَّصانُعِ وَالتَّشريفِ لِلدُّورِ

وَكُلُّ عَرْضٍ وَقَرضٍ كانَ يَجمَعُهُ　　حفيرَةٌ حُفِرَت بَينَ المَقابِرِ

لَـمْ يَأْلُهـا القَـومُ تَضْـيِيقاً وَلا وَقَعَـتْ   فيهـا الكَـرازِيْنُ إلّـا بِعـدَ تَقْـديرِ[2]

إطلاق الغزال لقوافي هذه القصيدة مع إردافها بحرفي اللين (الواو والياء) يحمل عدة دلالات منها الوفرة ،والغلبة ، والتمكين ، وغيرها ،فوفرة الدور التي كان يمتلكها نصر الخصي ،لم تمنعه من غلبة القدر عليه وتمكن الموت منه بتدبير ، وتقدير من الله عز وجل ،ولم يكن الروي الساكن ليؤدي ما أداه الروي المتحرك في مثل هذه الأبيات . واهتمام الشاعر بالالتزام بمثل هذه القافية جعله يلجأ للرخص الشعرية في البيت الثاني في قوله (المقاير) التي يريد بها (المقابر) فأشبع كسرة الباء حتى تولد عنها حرف من جنسها .

---

١ ديوان الغزال – ص٧٤

٢ نفسه – ص ٨٣- ص٨٤

ومن القوافي المطلقة ما ورد في قول ابن عبد ربه الذي يتحسر فيه على طيب العيش :

مـــا أطيَـــبَ العَـــيشَ لَـــولا أَنَّـــهُ   عَـــنْ عَاجِـــلٍ كُلُّـــه مــــتروكُ[1]

تبدو قافية الكاف المضمومة من أعسر القوافي خاصة إذا كانت الكاف أصلية كما في هذا البيت ،ويظهر الشاعر براعته في كافيته إذا لم يستعن فيها بالضمائر[2] . وفي قصيدة ابن عبد ربه الطويلة في الشيب التي مطلعها :

بَكَــرتْ علــيَّ عَــواذلي تَلْحيْـــنَني   وعَلــى الــذي لمْ يَعْــدُ بــي أَعْــدِيْنَني[3]

ختمت هذه القافية بالضمير (ني) "والغالب على نقاد الشعر أن يعيبوا تكرار الضمير المتصل في قوافي الشعر ،وأن يشموا في تكراره نوعاً من الإيطاء "[4]،ومثل هذا الإيطاء قد لا

يكون مكروهاً في السمع ،إلا أن ما يعيبه هنا –في رأيي – هو كون القافية نونية مما أدى إلى تكرار حرف النون في القافية والضمير مما يثقل على السمع ،ويقلل من موسيقية الأبيات . ومن القوافي المطلقة عند ابن عبد ربه قوله في ذم الدنيا وذكر الموت :

ألا إنَّما الدنيا كأحلامِ نائمِ ... وما خيرُ عيشٍ لا يكون بدائمِ
تأمَّلْ إذا ما نلتَ بالأمسِ لذَّةً ... فأَفنَيتَها هل أنتَ إلا كحالمِ
وما الموتُ إلا شاهدٌ مثلُ غائبٍ ... وما الناسُ إلا جاهلٌ مثلُ عالمِ[٥]

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٢٩
٢ انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها– ٦١/١
٣ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٦١
٤ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها– ٤٦/١
٥ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٥٧

فالميمية هنا مطلقة مؤسسة ، ويدعم التأسيس هنا حقيقة عدم الدوام لهذه الدنيا التي جُبلت على الفناء ، وقافية الميم من القوافي الذلل التي بلغت من اليسر والسهولة ما جعلها ذليلة في يد الشاعر يطوعها كيف شاء ،وتمتاز هذه القافية بحلاوتها لسهولة مخرجها [١] ،كما تمتاز بموسيقية ترنيمية هادئة الإيقاع . ويقول عباس بن ناصح في كيفية نجاة الإنسان في هذه الحياة :

مَا خَيْرُ مُدَّةِ عَيْشِ المَرءِ لو جُعْلتْ ... كَمُدةِ الدَهْرِ وَالأَيامُ تُفْنِيْهَا
فَارْغب بِنْفسِكَ أَنْ تَرضَى بِغيْرِ رِضَى ... وَابْتَعْ نَجَاتِكَ بالدُّنيا وَمَا فِيْهَا[٢]

فقافية الهاء المتبوعة بألف الإطلاق من القوافي السهلة اللينة التي يسهل تطويعها ،وتحمل

رحابة واتساعاً في الدلالة على المعنى . "وقل من الشعراء من يجعل الهاء هي حرف الروي "[٣] ،إلا أنها جاءت روياً هنا بناء على تسكين ما قبلها[٤] . ومن القوافي المطلقة مقطوعة الغزال التي يقول في مطلعها :

إِذا أُخبِــرتَ عَــن رَجُــلٍ بَــريءٍ   مِــنَ الآفــاتِ ظــاهِرُهُ صَــحيحُ[٥]

تعد الحاء من الأصوات الحلقية في اللغة العربية ،ولا يخفى ما فيها من العسر والمشقة ،خاصة إذا اقترنت بالضم كما في هذه القافية . وكون القافية هنا مطلقة ومردفة بالياء

١ انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها– ٦٠/١
٢ بغية الملتمس – ص ٢٧٦
٣ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها– ٨٢/١
٤ انظر علم العروض والقافية –ص١٥٩
٥ ديوان الغزال – ص٥٩

والواو أدى ذلك إلى ارتفاعها موسيقياً تبعاً لسلم القوافي . هذا مع التزام الشاعر بالياء في أغلب الأبيات ماعدا بيت واحد أردفه بالواو . يقول الدكتور عبد الله الطيب في الحاء:"ومقطوعات الحاء أحسن من مطولاتها ،على وجه الإجمال وأجود وأحق بالاختيار "[١] ،ومن هذا المنطلق تكتسب هذه المقطوعة بعض الحسن والجمال .

ومن هنا فما ورد بشأن القوافي المطلقة أكثر من ذلك بكثير والشواهد عليها من الكثرة بحيث يصعب حصرها هنا ، إلا أننا تركنا من القوافي ما تكرر تفادياً للتكرير والإعادة ،إلا ما كان هناك ضرورة لتكراره .

لقد أشرت سابقا إلى أن الزهد في غالبيته مقطوعات قصيرة ينفعل بها الشاعر إزاء موقف معين أو حادثة ما ، لذا لا تعد القافية مجهدة للشاعر ،ولا تلزمه بأن يضحي ببعض المعاني من أجلها .فجاءت القوافي استجابة لما يريده الشاعر من معانٍ ،وملازمة لها .

وقوافي الشعراء في هذه المرحلة شملت أغلب الحروف الهجائية من الهمزة إلى الياء وهي ما أطلق عليها الدكتور عبد الله الطيب بالقوافي الذلل [2] (كالباء ،والتاء ،والراء ،والعين،والميم ،والياء ،والنون ،والدال) ،إضافة إلى الصاد ،والهاء ،والواو من القوافي النفر [3] ،وهذه من القلة بحيث لا يعتد بأثرها في القوافي ،لأن التي تصدرت قائمة

1 المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها– 1/69

2 نفسه– 1/ 58

3 نفسه — 1/ 75

قوافي الزهد هما الرائية والبائية ،يليها النون والميم والدال واللام . وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على اهتمام الشعراء بالقوافي السهلة اللينة التي يسهل تطويعها .

هذا مع عنايتهم بألف المد فاختاروها ردفاً في بعض الأبيات ،وتأسيسا في البعض الآخر ووصلا في مواضع ، وإطلاقا في مواضع أخرى ، وما ذلك إلا لكون الألف "أوضح في السمع من حروف المد الأخرى "[1] ، والتزامهم بألف المد في الكثير من الأبيات لا شك أنه مما يكسب القافية نغماً لطيفاً وموسيقى ممتعة .

وكما مر لم تسلم القوافي من العيوب إلا أنها عيوب تتعلق أكثر بالحركات لا بالحروف ذلك

لأن اهتمام الشعراء بوحدة القافية منعهم من الوقوع في عيوب الحروف كالإكفاء ،والإجازة وغيرها . هذا وقد لجأ الشعراء إلى الرخص والضرورات الشعرية للمحافظة على الوزن والنغم الموسيقي .

وبناء على السلم الموسيقي لجمال القافية [٢] الذي رتبه بعضهم تصاعدياً تبعاً لتقييد القوافي وإطلاقها يمكن تقسيم موسيقى القوافي في أبيات الزهد كالتالي:

-القافية المقيدة التي اختلفت فيها حركة التوجيه ،وهذه أقل القوافي موسيقية ذلك لاعتمادها على موسيقى الروي وحده .

-يليها القافية المقيدة التي خلت من عيب سناد التوجيه

---

١ موسيقى الشعر – ص ٢٧٣
٢ أنظر المعجم المفصل – ص ٣٧٢-٣٧٣

-يليها القافية المقيدة المردفة بالواو أو الياء أو كليهما ،أو المؤسسة

-يليها القافية المطلقة غير المردفة

-يليها القافية المطلقة المردفة بالواو أو الياء أو كليهما

-يليها القافية المطلقة المردفة بالألف

-يليها القافية المطلقة المردفة أو المؤسسة والموصولة بهاء أو كاف أو مد .

علماً بأن هذا السلم أغفل القافية المقيدة والمجردة من الردف والتأسيس لأسباب نجهلها ،مع وجود مثل هذه القافية في أبيات الدراسة .

ومما له علاقة وثيقة بالقافية – التصريع :

وهو نوع من أنواع السجع خاص بالشعر دون النثر ، عرفه ابن رشيق بقوله : " فأما التصريع فهو ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه، تنقص بنقصه، وتزيد بزيادته "[1]، وذكر سبب ذلك بقوله : "وسبب التصريع مبادرة الشاعر القافية، ليعلم في أول وهلة أنه أخذ في كلام موزون غير منثور ، ولذلك وقع في أول الشعر " [2]،ولا يحسن هذا النوع إلا في أول أبيات القصيدة ،أو عند الانتقال من غرض لآخر[3] . وابن قدامة صنفه ضمن نعوت القوافي ،وعرفه بقوله : " تصيير مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها "[4] .

---

١ العمدة – ٢٧٧/١

٢ نفسه –٢٧٨/١

٣ انظر علم البديع –د/بسيوني فيود–ص٢٥٤

٤ نقد الشعر – ص٥١

وشعراء الزهد أدركوا أهمية مفاتيح الأبيات ومطالعها فأكثروا من هذا المحسن البديعي الذي أرى منه قول الأمير عبد الله :

أرَى الدُّنيا تَصِيرُ إلى فَنَاء　　　وَمَا فيها لشيء من بَقَاء[1]

فقد جمع الشاعر في هذا البيت إلى جانب الطباق والجناس توافق الضرب والعروض ،مما جعل الصوت في كلمة (فناء) يستدعي الكلمة المضادة (بقاء) . ومن ذلك أيضاً قول الأمير عبد الله في موضع آخر :

يا مَنْ يُراوِغُهُ الأجَلْ　　　حَتَّامَ يلهِيكَ الأمَلْ[2]

وهذا البيت أيضا جمع بين التصريع والجناس ، هذا إلى جانب ما فيه من اعتدال في المقاطع . ومن ذلك أيضا قول ابن عبد ربه :

أَلا إِنَّمَا الدُّنيا كَأَحْلامِ نَائِمٍ وَمَا خَيْرُ عَيْشٍ لا يَكُونُ بِدَائِمِ[3]

إلى جانب التصريع فالكلمتان متماثلتان في الوزن الصرفي والعروضي هذا بالإضافة إلى أن كُلاًّ من الحرفين المختلفين وهما النون والدال يشتركان في كونهما من الأصوات المجهورة .

ومن التصريع قول ابن عبد ربه أيضا :

لَسْتُ بِقَاضٍ أَمَلِي وَلا بِعَادٍ أَجَلِي[4]

---

١ كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب – ٢/ ١٥٥

٢ نفسه

٣ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٥٧

٤ نفسه – ص ١٤٣

أدى هذا السجع إلى إحداث رنين موسيقي خفيف في البيت ،ساعد على ذلك تكرار حرف الباء ،وياء المتكلم في شطري البيت . ومن التصريع أيضا قول ابن عبد ربه في الدهر:

رَجَاءٌ دُونَ أَقْرَبِهِ السَّحَابُ وَوَعْدٌ مِثْلُ مَا لَمَعَ السَّرَابُ[1]

ومع ما في هذا البيت من الجناس اللاحق ، جمع الشاعر إلى ذلك التصريع الذي أفاد الشكل والمضمون ،وذلك بما أضفاه على المعنى من طابع التصوير ،وبما أضفاه على

الشكل من زينة شكلية وسمعية زادها نغمة ورنيناً حرف السين مع تشديد هذا الحرف وتكراره . ومن ذلك أيضا قول الغزال :

ألســـتَ تَـــرى أنَّ الزَّمـــانَ طَـــواني   وبَـــدَّلَ خَلقـــي كُلَّـــه وبَرَانِـــي[٢]

فقد اتفقت الضرب والعروض وزناً ورويا ً، وتماثلت الكلمتان في أغلب الحروف ،مما أدى إلى جمال صوتهما ،الذي ازداد جمالا بتكرار الياء في الأبيات التي أحدثت انسجام وتراسل صوتي بين شطري البيت .

وأشير هنا إلى أن جميع ما ورد من تصريع في أبيات الزهد كان في مستهل القصائد والمقطوعات ،وهذا ما زاد من حسنه وجماله ،مما يجعل السامع يستجيب إلى ما يتبعها من أبيات ،ويهفو إليها في شوق .

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٤٩   ٢ ديوان الغزال – ص ١١٢

٣- الفاصلة القرآنية وأثرها في شعر الزهد

لقد حظيت الفاصلة القرآنية باهتمام الكثير من الباحثين والدارسين ، وأفردت لها الكثير من الدراسات والبحوث منذ مطلع القرن الثاني الهجري إلى وقتنا الحاضر ،و ذلك لأهميتها في فهم كتاب الله عز وجل ،حيث تعد مكملة للمعنى في سياق الآية القرآنية ،ويزداد بها المعنى إشراقا ووضوحا وفهما .

ولقد اطلع محمد الحسناوي على الكثير من هذه الدراسات ،وجمع الكثير من التعريفات للقدماء والمحدثين ،ثم حاول التوفيق بينها فخرج بما أطلق عليه التعريف الجامع المانع حيث يقول : "الفاصلة كلمة آخر الآية كقافية الشعر وسجعة النثر ،والتفصيل توافق أواخر الآي في حروف الروي أو في الوزن مما يقتضيه المعنى وتستريح إليه النفوس "(١) .

وإن شبهت الفاصلة بالقافية والقرينة إلا أن انفصال تعريفها عنهما يدل على الاختلاف بينهما ، كذلك مجرد تشبيهها بهما يثبت هذا الاختلاف ،وهو أمر واضح لا ريب فيه ، فقد ميز الله عز وجل القرآن الكريم عن أقوال البشر من شعر وغيره بكثير من المميزات التي لا يمكن تجاهلها ولا مجال لذكرها هنا(٢) .

فالفاصلة تقابل القافية في الشعر والسجع في النثر ،والفرق " يظهر في ما يذكر من عيوب القافية من اختلاف الحركة والإشباع والتوجيه ،وليس ذلك بعيب في الفاصلة ،وجاز

١ الفاصلة القرآنية –محمد الحسناوي-دار الأصيل –ص٢٦

٢ انظر ما كتبه محمد الحسناوي في نفي الشعر في القرآن –الفاصلة في القرآن –ص١٤٩ –وما كتبه إبراهيم أنيس عن النسيج القرآني وأوزان الشعر –موسيقى الشعر –ص٣٢٢

الانتقال في الفاصلة والقرينة وقافية الأرجوزة من نوع إلى آخر بخلاف قافية القصيدة " (١) .

"فليس يعيب القرآن أن نحكم على أن في ألفاظه موسيقى كموسيقى الشعر ،وقوافي كقوافي الشعر أو السجع بل تلك ناحية من نواحي الجمال فيه "(٢) .

وللفاصلة القرآنية أثر واضح فيما أطلق عليه الباحثون الإيقاع الصوتي أو الموسيقى في القرآن ، ويعزي الدكتور سيد قطب الموسيقى القرآنية لعدة عوامل ذكر منها قصر الفواصل وطولها ، وانسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة[٣] .

فالفاصلة تشكل المحك الرئيسي لإحداث مثل هذا الرنين الموسيقي الخاص الذي يترنم به قارئ القرآن الكريم ،وذلك لما لها من "أثر في نسق الكلام ،واعتدال المقاطع . . . . وتناسب الأطراف ، وتماثل الحروف ،مما يريح السامع، ويجذب انتباهه "[٤] .

وما أريد الوصول إليه هنا هو مدى تأثر شعراء الزهد في هذه المرحلة بالفاصلة القرآنية في قوافيهم ،الأمر الذي نلمسه من أول وهلة ننظر فيها إلى أبياتهم الشعرية ،ولا عجب في ذلك فقد سبق أن ثبت مدى تأثرهم بالقرآن الكريم في ألفاظه ، ومعانيه ،وقصصه،ومن الطبيعي أن يمتد هذا التأثير إلى الفاصلة القرآنية ،التي أرى منها ما ورد في قول محمد بن عبد السلام الخشني :

---

١ أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي –ص٧٣

٢ موسيقى الشعر–ص ٣٢٨

٣ انظر التصوير الفني في القرآن –ص١٠٢

٤ الفاصلة القرآنية، د.عبد الفتاح لاشين – دار المريخ – الرياض –ص٢٢

بَلَـى وكَأَنَّ المَـوتَ قَد زَارَ مَضْجِعِي ... فَحَـوَّلَ مِنّـي الـنَّفْس بـينَ تَـرَاقِ

أَخِـي إِنَّمَـا الـدُّنيا مَحَلَّـةُ فُرْقَـةٍ ... وَدَارُ غُـرُورٍ آذَنَـتْ بِفِـرَاقِ

تَزَوَّدَ أَخِي مِنْ قَبْـلِ أَنْ تَسكُنَ الثَّـرَى ... وَيَلتَـفَّ سَـاقٌ لِلنَّشُـورِ بِسَـاقِ[١]

فقوافي الأبيات استمدها الشاعر من الفواصل القرآنية في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ۝ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۝ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۝ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۝ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾[2]، وقد خلقت هذه الفواصل نوعا من الانسجام بين القافية والمعنى الذي أراده الشاعر ،ويكمن هذا المعنى في مناسبة الأبيات التي قالها الشاعر بعد عودته من المشرق ،وتأثره بالغربة والفراق .ومن الأبيات التي تأثرت بالفاصلة القرآنية أبيات ابن عبد ربه التي مطلعها :

أَتَلْهُو بَيْنَ باطِيَةٍ وَزِيرِ　　　وأنتَ مِنَ الهلاكِ على شَفِيرِ؟[3]

وكذلك قول الغزال :

وَكَمْ ظاعِنٍ قد ظَنَّ أَنْ لَيسَ آيِباً　　　فَآبَ وَأَوْدى حاضِرونَ كَثيرُ[4]

فقد استخدم الشاعران في الأبيات السابقة حرف الراء المسبوق بحرف لين كقافية للأبيات وهم في ذلك متأثرون بالفاصلة القرآنية التي وردت في العديد من الآيات القرآنية

---

١ جذوة المقتبس – ص ٦٤

٢ القيامة : ٣٠

٣ ديوان ابن عبد ربه – ص ٩٧

٤ ديوان الغزال –ص٧٣

مثل قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ

الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [1] .

ومثلما أردفت فواصل الروي بالواو والياء في الآية القرآنية كذلك الأبيات الشعرية نوّع الشاعر في الردف بين الواو والياء . فالأبيات الشعرية في قوافيها أفادت إلى حد كبير من الفواصل القرآنية . أما قافية الراء التي وردت في ممحصة ابن عبد ربه التي مطلعها :

يا قادراً ليس يَعْفُو حين يَقْتَدِرُ ولا يُقضَّى له من عَيشِهِ وَطَرُ [2]

فقد تأثر فيها الشاعر بالفاصلة القرآنية التي وردت في قوله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴾ [3] .

وكذلك الفاصلة القرآنية التي وردت في قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ۝ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ [4] .

---

١ الملك : ١-٥

٢ ديوان ابن عبد ربه — ص ٩١

٣ المدثر : ٢٦ — ٢٩

٤ القمر : ١- ٤

ومن الجدير بالذكر أن حرف الراء الذي أكثر شعراء الزهد في استخدامه كقافية لأبياتهم ،هو من الحروف التي جاءت فواصل سور بأكملها عليه مثل سورة القمر ، والقدر ،والكوثر [1] . وممن تأثر بالفاصلة القرآنية عباس بن ناصح في قوله :

لعَمْـرُكَ مَـا البَلـوَى بعـارٍ ولا العَـدَمْ إذا الـمَرْءُ لمْ يَعْـدمْ تقَـى الله والكَـرَمْ

تجـافَ عَـنْ الـدُنيا فمـا لمعجّـزٍ ولا عَـاجزٍ إلا الـذي خُـطَّ بـالقلمْ[2]

يظهر تأثر الشاعر بالفاصلة القرآنية التي وردت في قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[3] . وحرف الميم من الحروف الموسيقية ذات الأصوات الرنانة التي تحمل لحناً وإيقاعاً مميزاً . وفي أبيات عبد الملك بن حبيب :

لا تَنْسَ - لا يُنْسِكَ الرحمنُ - عـاشورَاء واذكـرْهُ لا زلْتَ في الأَحْيَـاءِ مَـذْكُورا[4]

تأثر الشاعر بالفاصلة القرآنية التي وردت في عدد من الآيات منها قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[5] . ونلاحظ مدى التطابق حتى في الكلمة المستخدمة في الفاصلة .

---

١ انظر الفاصلة القرآنية –د.عبد الفتاح لاشين –ص٥

٢ نفح الطيب – ٢/ ٢٦١ –كما وردت في المغرب في حلى المغرب –١/ ٣٢٤

٣ العلق : ٣- ٥

٤ وردت هذه الأبيات في الإحاطة في أخبار غرناطة –٢/ ٣٧ – والمقتبس من أنباء الأندلس – ص ١٨٤- ونفح الطيب ٦/٢ مع بعض التغيير .

٥ الإنسان : ١- ٣

وفي قوله تعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ

كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۞ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[1] . كما يظهر هذا التأثر في قول غربيب الطليطلي :

يُهَــــدّدَني بمخلـــــوقٍ ضَـــــعِيفٍ   يهـــابُ مِـــنَ المنيَّـــةِ مَـــا أَهَـــابُ[2]

ومثل هذه القافية كثير في شعر الزهد ،وتأثرها بالفاصلة القرآنية أمر واضح ،حيث نجد في كتاب الله مثل ذلك كثير منها قوله تعالى : ﴿ أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ۞ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۞ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ۞ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾[3] .وفي أبيات ابن عبد ربه:

أَلا إنمـــا الـــدُّنيا نَضَـــارَةُ أَيكَـــةٍ   إذا اخْضَـرَّ مِنْهَـا جَانِـبٌ جَـفَّ جَانِـبُ

هِـيَ الـدَّارُ مَـا الآمَـالُ إلاَّ فجـائِعُ   عَليْهـــا ولا اللَّـــذَّاتُ إلاَّ مَصَـــائِبُ

فَكَـمْ سَـخِنَتْ بِـالأَمْسِ عَـيْنُ قَرِيـرَةُ   وَقَـرَّتْ عُيُونـاً دَمعُهَـا الْيـوْمِ سَـاكِبُ

فَـلا تَكْتَحِـلْ عَيْنَـاكَ فِيهَـا بِعَبَـرةٍ   عَلـى ذَاهِـبٍ مِنْهَـا فَإِنَّـكَ ذَاهِـبُ[4]

---

١ الإسراء – ١٨–٢٠

٢ المغرب في حلى المغرب – ٢/ ٢٤ ، كما وردت في جذوة المقتبس – ص ٣٠٧

٣ سورة ص : ٨– ١١

٤ ديوان ابن عبد ربه – ص ٤٩

ألمس تأثر الشاعر بالفاصلة القرآنية التي وردت في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۝ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾[١] .

هذا غيض من فيض فأغلب قصائد الزهد إن لم تكن كلها تأثرت بالفاصلة القرآنية في أكثر من موضع ،وهذا أمر طبيعي لشعراء أثر القرآن الكريم في شعرهم وترك بصمة واضحة في نتاجهم الشعري ، وقد أفاد هذا التأثير الأبيات بما أحدثه في قوافيها من اعتدال وتناسب وتماثل وانسجام موسيقي ،وبما علاها من حسن وبهاء وفخامة .

كما بلغ من اهتمام الشعراء بالفاصلة القرآنية أن أختاروها بلفظها قافية لأبياتهم كما ورد في القوافي التالية (مذكورا ،بالقلم ،جانب ،سقر ،بساق . .وغيرها) .

ولا شك أن القارئ يشعر من أول وهلة بتأثر الأبيات بالفاصلة القرآنية التي أعانت الشعراء على النغمة الموسيقية والإيقاع الجميل .

وقد علق مصطفى صادق الرافعي على هذه الفواصل وعلاقتها بالموسيقى بقوله:"وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صورة تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى ،وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب "[٢] .

---

١ الصافات : ٦- ١١

٢ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية –ص٢٤٦

-الموسيقى الداخلية :

وهي ما أطلق عليها الدكتور إبراهيم أنيس (جرس الألفاظ في البديع) [1] ،وقد لعبت هذه الموسيقى الدور البارز في جلاء المعنى وإيضاحه ،وذلك باشتراكها مع الموسيقى الخارجية في تكثيف النغم الموسيقي في الأبيات ،وكان منبعها في شعر الزهاد من عدة روافد هامة تتمثل فيما يلي :

١- الجناس

الجناس "لون من التنميق الصوتي ذي الطبيعة التكرارية ذات التأثير الإيقاعي الممتع "[2] ،وهو ما عرفه البلاغيون بأنه "تشابه اللفظين في النطق واختلافهما في المعنى "[3] ،"وللجناس ما للتكرار من تأكيد النغم ورنته، ويزيد عليه بأنه يوجد نوعاً من الانسجام بين المعاني العامة ،ورنة الألفاظ العامة "[4] .

وقد أحدث الشعراء براعة في استخدام الجناس ، وذلك باستخدام عدد من أنواع الجناس غير التام ، منها الجناس اللاحق الذي أكثر الشعراء من استخدامه وذلك في مثل قول الأمير عبد الله :

يــا مَـــنْ يُراوِغُـــهُ الأَجَـــلْ حَتَّـــامَ يلــــهِيكَ الأَمَـــلْ [5]

---

١ انظر موسيقى الشعر – ص ٤٤

٢ موسيقى الشعر ، د/محمود عسران- مكتبة بستان المعرفة –الإسكندرية – ٢٠٠٧م - ٢٣٣

٣ علم البديع – د.عبد العزيز عتيق- دار الآفاق العربية – ص١٥٢

٤ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها –ص٢٦١

٥ كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب-١٥٥/٢

فقد جانس الشاعر بين (الأجل والأمل) متخذا من تباعد المخارج بين الحرفين المختلفين وسيلة للجمع بين المتضادات وهي طول الأمل وقصر الأجل ، فمهما طال الأمل فالأجل قريب يبعد بالإنسان عن الكثير من آماله وأحلامه ، ومع تباعد المخارج في الجيم والميم إلا أن اتفاق الحروف في باقي الكلمتين ،واتفاقهما في الوزن كان له دور بارز في إحداث رنين موسيقي متوازي في الكلمتين . ويثبت ابن عبد ربه قضية طول الأمل وقصر الأجل السابقة في قوله :

لَسْــــتُ بِقَــــاضٍ أَمَلِــــي ولا بعَـــــادٍ أَجَلِــــــي[1]

ومع وجود جناس مماثل للجناس السابق هنا ، إلا أن ابن عبد ربه بإطلاق قافيته وإلحاق ياء المتكلم بالكلمتين أدى إلى ما يشبه إنكسار الصوت ، وسبب ذلك أن الياء بطبيعته صوت انزلاقي[2] . وقد تكرر الجناس اللاحق في بيت واحد لابن عبد ربه يقول فيه :

يَسْـعى بِـهِ أَمَـلٌ مِـنْ دُونـهُ أَجَـلٌ إِنْ كفَّـهُ رَهَـبٌ يَسْـتَدْعِهِ رَغَـبُ[3]

فقد جانس الشاعر بين (أمل وأجل) ، و (رهب و رغب) ،وحلاوة الجناس هنا تنبع من كون المعنى يستدعي هذا الجناس استدعاءً ،زد على ذلك التوافق بين صوت الراء وصوت اللام في المخرج الذي كان له دور بارز في إحداث انسجام موسيقي في البيت .

١ ديوان ابن عبد ربه — ص ١٤٣

٢ انظر علم الأصوات —ص١٣٣

٣ ديوان ابن عبد ربه— ص ٤٦

ومن الجناس أيضا قول الغزال :

وَكُلُّ عـرضٍ وَقَـرضٍ كـانَ يَجمَعُـهُ   حفـيرَةٌ حُفِـرَت بَـينَ المَقَـابِرِ[1]

فقد جانس الشاعر بين (عرض وقرض) ،وبين (حفيرة وحفرت) ، ومثل هذا النوع من الجناس الذي تتوالى فيه الكلمتان المتجانستان يسمى الجناس المزدوج أو المكرر أو المردود[2] . وأشير هنا إلى أن اشتراك هذه الألفاظ في الأوزان والأصوات وترديدها أسباب أدت إلى توليد الرنين الموسيقي الذي تشنف له الآذان ،خاصة مع وجود الأصوات المفخمة المتمثلة في القاف والضاد . ومن هذا الجناس أيضا قول ابن عبد ربه :

ألا إنَّما الدنيا كأحلامِ نائمٍ   وما خيرُ عيشٍ لا يكون بدائمِ

تأمَّلْ إذا ما نلتَ بالأمسِ لذَّةً   فأَفنَيْتَها هل أنتَ إلا كحالِمِ ؟

وما الموتُ إلا شاهدٌ مثلُ غائبٍ   وما الناسُ إلا جاهلٌ مثلُ عالِمِ[3]

فالشاعر هنا جانس بين كلمتي (نائم ودائم) جناس لاحق ،وكذلك جانس بين القوافي في (دائم وحالم وعالم) ، ولأن الحرفين المختلفين متقاربان في المخارج سمي هذا الجناس مضارع[4] ، ولا يخفى ما يحدثه هذا الجناس من وقع خفيف على أذن السامع ساعد على ذلك تقارب المخارج بين حرفي الحاء والعين وهما من الأصوات الحلقية في العربية ،وتكرار

---

١ ديوان الغزال – ص ٨٣– ص٨٤

٢ انظر علم البديع–د/عبد العزيز عتيق –ص١٦٧

٣ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٥٧
٤ انظر علم البديع–د/عبد العزيز عتيق –ص١٥٩

صوت مهموس كالهمزة ،وصوت مجهور كالميم الذي تكرر في حشو الأبيات ،وفي القافية أيضاً ،"وذلك لأن الأصوات التي تتكرر في حشو البيت مضافة إلى ما يتكرر في القافية ،تجعل البيت أشبه بفاصلة موسيقية متعددة النغم مختلفة الألوان يستمتع بها من له دراية بهذا الفن ويرى فيها المهارة والمقدرة الفنية "[١] . ومن الجناس اللاحق في القوافي قول الغزال أيضا :

وَاقعُد قَليلاً وَعاينِ مَن يُقيمُ مَعي ... مِمَّن يُشَيِّعُ نَعشي مِن ذَوي وُدّي
هَيهاتَ كُلُّهُمُ في شَأنِهِ لَعِبٌ ... يَرمي التُرابَ وَيَحثوهُ عَلى خَدّي[٢]

وقع الجناس بين كلمتي (ودي و خدي) ويظهر في تشديد الدال في القافية مدى الحسرة والألم التي تعتصر نفس الشاعر لما سيئول إليه حاله عند موته من وحدة و فراق للأهل والأحباب ، هذا وقد أسهم في إبراز نغمة الأسى والحسرة في الأبيات تكرار صوت القاف الذي يتميز بفخامته،ومناسبته لجو الحزن المطبق على الشاعر،وصوت العين الذي اتفق مع هذه الشدة والألم المنزوي في نفس الشاعر، وكلها أمور أسهمت في موسيقية الأبيات .

ومن الجناس قول ابن عبد ربه :

لا تَبكِ لَيْلى ولا مَيّه ... ولا تَندُبَنْ راكباً نِيّه[٣]

---

١ موسيقى الشعر –ص٤٥
٢ ديوان الغزال – ص ٦٤

٣ ديوان ابن عبد ربه – ص ١٧١

الميم والنون حرفان متباعدان في المخرج لذا الجناس هنا جناس لاحق ،وقد أحدث هذا التجانس ، مع تشديد الياء في كل كلمة رنين موسيقي خاص أعطى الألفاظ قوة تقارب قوة ألفاظ الشعر القديم .

وننتقل من الجناس اللاحق إلى الجناس الناقص وهو أيضا نوع من أنواع الجناس غير التام تختلف فيه الكلمتان في عدد الحروف ولا يكون النقصان بأكثر من حرف أو حرفين في إحدى اللفظتين [١] ،ونشير هنا إلى أن مثل هذا الجناس هو ما أطلق عليه الدكتور عبد الله الطيب (الجناس السجعي المتشابه) [٢] . ومن هذا الجناس قول ابن عبد ربه :

مَــنْ لي إذا جُــدْتُ بَــينَ الأَهْــلِ والوَلَــدِ وكَـانَ مِنّــي نَحْــوَ المـوْتِ قِيــدَ يَــدِ [٣]

ورد الجناس الناقص في قوله (قيد يد)حيث نقصت الثانية عن الأولى بحرف واحد فقط ،ولتتابع الكلمتين المتجانستين سمي الجناس مزدوجاً ،وفي ترادف الكلمتين المتجانستين ، مع ما في الأبيات من جناس سجعي يتمثل في تكرار حرف الدال إيقاع موسيقي متزن وذو طابع خاص . كما ورد الجناس الناقص في قول الغزال :

فَسَــلهُم عَنــهُ هَــل هَــوَ آدَمِــيٌّ فَــإِن قــالوا نَعَــم فَــالقَولُ ريــحُ

وَلَكِــن بَعضُــنا أَهــلُ اِســتِتارٍ وَعِنــدَ اللَــهِ أَجمَعُنــا جَــريحُ [٤]

---

١ علم البديع ، د.بسيوني عبد الفتاح فيود – مؤسسة المختار للنشر والتوزيع-ط٣ -١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م-ص٢٤٠

٢ انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها –٢/١٦٩

٣ ديوان ابن عبد ربه – ص ٧٦

٤ ديوان الغزال – ص٥٩

فالجناس بين (ريح و جريح) حيث نقصت الكلمة الأولى عن الثانية بحرف واحد فقط وفي نقصانها دلالة على انتقاص الشاعر لمثل هؤلاء الناس المرائين في العبادة ، والمدعين سلامتهم من الذنوب . ومثله أيضاً قول ابن عبد ربه :

رِزْقٌ من الله أرضاهم وأسخطَني والله للأنْوك المَعْتوه رَزَّاقُ

يا قابضَ الكف لا زالت مُقبَّضة فما أناملُها للناس أرزاقُ[1]

ومع الجناس الناقص في القافية ،ألمح في تكرار القاف في البيتين وهو صوت مفخم – ليس له نظير مرقق [2] – نبرة موسيقية قوية .

والجناس الناقص بما أحدثه في الأبيات من موسيقية ، أشبه بآلة موسيقية تنطلق منها الأصوات الترنيمية بالضرب على بعض أجزائها دون بعض . ذلك لأن نقصان بعض الحروف في بعض الكلمات يبرز الحروف التي ذكرت ويعززها ويقويها .

ومما ألحقه البلاغيون بالجناس ما يسمى بجناس الاشتقاق ،وهو ما أطلق عليه الرماني (تجانس المناسبة) ويدور حول المعاني ذات الأصل الواحد[3] .

ومما ورد من هذا الجناس قول غربيب الطليطلي :

لَهُ أَجَلٌ ولي أَجَلٌ وكلٌّ سَيَبْلغُ حَيْثُ يُبْلِغُهُ الكِتَابُ[4]

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص١٢٠

٢ انظر علم الأصوات – ص١٢١

٣ انظر علم البديع–د/بسيوني فيود – ص٢٤٤

٤ المغرب في حلى المغرب – ٢/ ٢٤ ، كما وردت في جذوة المقتبس – ص ٣٠٧

فكل من كلمتي (سيبلغ) و (يبلغ) مشتقتان من أصل واحد ،وفي اشتقاقهما دلالة على مساواة الشاعر نفسه بخصمه في وقوع الموت بكلٍ منهما ،وهذا ما يوحي به أيضا تكرار الضمير في (له ولي) . ومنه أيضا قول الغزال :

وَتَغانَت تلك المَراكِبُ عنهُ وأُميلَت إلى سَواهُ الرِكابُ[1]

حيث يرجع كل من (المراكب) ،و(الركاب) إلى أصل اشتقاقي واحد ،وقد عرفت المراكب بأنها جمع مركب وهي الدابة ، والرِّكابُ الإبل[2] ، وبهذا الاشتقاق لفت الشاعر الانتباه إلى حال هذا الإنسان قبل موته وما كان يرفل فيه من ثروة ونعيم .

ومن المعروف أن الألفاظ المشتقة تحمل دلالات ومعاني متقاربة ،ذلك لأن الأصل واحد لذا فإن "التجانس الصوتي في جرس هذه الألفاظ قد هيأ لاستعمالها في معان متقاربة ،أي أن الدلالة الصوتية فيها هي التي أوحت بمعانيها"[3] .

ومن هنا فقد أكثر الشعراء من استخدام الجناس حتى لا تكاد تخلو منه مقطوعة من مقطوعاتهم ذلك لأن الجناس بما يحدثه من تلاؤم صوتي ،ورنين موسيقي ونغمي مميز ،وبما يبثه من دلالات إيحائية يعد حسنا ويفيد المعنى خاصة إذا استدعاه المعنى ولم يأتِ به الشاعر عبثاً .لذا كان له دور مميز في جذب السامعين وهز النفوس ،خاصة في مثل هذا

---

١ ديوان الغزال – ص ٥٢–ص٥٣

٢ انظر لسان العرب – مادة (ركب)

٣ جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، د.ماهر مهدي هلال–دار الرشيد للنشر– ص٢٩٧

الموضوع الذي يخاطب المشاعر والقلوب قبل العقول ، وعبد القاهر الجرجاني يرى أن الجناس المقبول والحسن هو الذي يطلبه المعنى ويستدعيه حيث يقول في ذلك : " وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً ، ولا سَجَعاً حَسَنَاً ، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه ،وساق نحوه "[(١)] ، فاستخدام الجناس الذي يستدعيه المعنى مما يدل على براعة الشاعر ومهارته ،وفي ذلك يقول الدكتور إبراهيم أنيس:"ولا شك أن مثل هذا الأسلوب في نظم الكلام يتطلب المهارة والبراعة ،وقد لا يقدر عليه إلا الأديب الذي وهب حاسة مرهفة في تذوق الموسيقى اللفظية . "[(٢)] .

٢ـ الطباق

يعد الطباق من المحسنات البديعية التي تعتمد على الجمع بين الشيء وضده ، وقد اعتمد الشعراء على التضاد في الكثير من الأبيات ،وما من شك أن الجمع بين المتضادات له إيقاع خاص يكسو الكلام جمالا ورونقا ،"ولكن وظيفة الطباق لا تقف عند هذا الزخرف وتلك الزينة الشكلية ، بل تتعداها إلى غايات أسمى ،فلا بد أن يكون هناك معنى لطيف ومغزى دقيق وراء جمع الضدين في إطار واحد ،وإلا كان هذا الجمع عبثا وضربا من الهذيان"[(٣)] .

---

١ كتاب أسرار البلاغة- الشيخ عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر-الناشر دار المدني بجدة-ط١ -ص١١

٢ موسيقى الشعر -د/إبراهيم أنيس - ص٤٥

٣ علم البديع -د/بسيوني فيود-ص١١٣

والطباق في شعر الزهد لم يأتِ به الشعراء عبثا بل كان مما يفيد المعنى ويقويه ذلك لأن الشاعر استطاع التوفيق بين الشيء وضده وجعل بينهما مناسبة بحيث يستدعي كل منهما الآخر ،ومما ورد لدى شعراء الزهد من هذا القبيل كثير. من أمثلة ذلك قول الأمير عبد الله :

أَرَى الـــدُّنيا تَصِـــيرُ إلى فَنَـــاء وَمَـــا فيهـــا لشـــيء مـــن بَقَـــاءِ[1]

حيث طابق الشاعر بين الفناء والبقاء وذلك لما تمثله هذه الثنائية المتضادة من بيان حقيقة الدنيا وسرعة زوالها ،وقد أحدث هذا الطباق مع الجناس أيضا ،ومع الهمزة المكسورة رنيناً موسيقياً خاصاً . ويقول الغزال :

النَّـــاس خَلـــقٌ واحـــدٌ مُتشـــابهُ لكنَّمـــا تَتخـــالَفُ الأعمـــالُ
ويُقـــالُ حـــقٌّ في الرِّجـــالِ وباطـــلٌ أيُّ امـــرئٍ إلاّ وفيـــهِ مَقَـــالُ[2]

يظهر الطباق واضحا بين كل من (متشابه وتتخالف) وبين (حق وباطل) ،ويحمل هذا الطباق معنى فريداً ذلك لأن الأبيات مبنية أساساً على التمييز بين الناس وبيان الفرق بينهم الذي يراه الشاعر في اختلاف أعمالهم .فهناك جامع خفي بين اللفظتين ولكن في معنيين مختلفين ،وهذا عينه حال الناس الذين يشتركون في أصل الخلقة ، الأمر الذي حسمه

---

١ كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس — ٢/ ١٥٥

٢ ديوان الغزال — ص ٩٣-ص٩٤

الشاعر بقوله متشابه ، إلا أنهم يختلفون في الأعمال ،وهم مستمرون في هذا الاختلاف الذي عبر الشاعر عنه بالفعل المضارع (تتخالف) . ويقول محمد بن مسرة :

إنَّما اللَّيلُ والنَّهارُ مطايا ... لبني الأرضِ نحوَ دارِ حِمامِ[1]

طابق الشاعر بين (الليل والنهار) وهما نعمتان من نعم الله عز وجل ، وبهما يعرف الوقت والزمان في هذه الحياة ولهذه العلة أتى بهما الشاعر لبيان نهاية تعاقبهما وهو بلوغ دار البقاء والخلود . ويقول ابن عبد ربه :

كَأَنَّما جُنَّ لَيْلٌ في مَفارِقِهِ ... فَاعْتاقَهُ مِنْ بَياضِ الصُّبحِ إِسْفارُ[2]

طابق الشاعر بين الليل وسواده والصبح وبياضه لما تمده به هذه المتضادات من إضاءة للتغيير الذي علا مفارقه . وتعد مطابقة الليل بالنهار عند محمد بن مسرة أكثر وضوحا ودلالة مما ورد عند ابن عبد ربه لأن" ضد الليل المحض هو النهار لا الصبح"[3] . ومما ورد في الطباق قول الغزال :

لَعَمْري ما ملّكْتُ مِقْوَدَي الصِّبا ... فأَمْطُوَ للذّاتِ في السَّهلِ والوَعْرِ
ولا أنا ممّنْ يُؤثِرُ اللهوَ قلبُهُ ... فأُمسَي في سُكرٍ وأصبحَ في سكرِ[4]

١ كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس- ص ٢٧١

٢ ديوان ابن عبد ربه – ص٩٠

٣ علم البديع – د.بسيوني فيود –ص١٢٨

٤ ديوان الغزال – ص٧٨-ص٧٩

تتضمن الأبيات طباقاً بين (السهل والوعر) وبين (أمسي وأصبح) ،وقد خلق الشاعر بهذا التضاد الجو الذي يكون فيه الإنسان على المعاصي مكاناً وزماناً . وفي أبيات أخرى يستخدم الغزال المتضادات كوسيلة لخلق نوعاً من المساواة بين الناس وذلك في قوله :

لَعَمـــرُ أَبـــيهِم لَـــو أَبصَـــروهُمْ   لَمــا عُــرِفَ الغَنِــيُّ مِــنَ الفَقــيرِ

وَلا عَرَفُــوا العَبيــدَ مِــنَ المَــوالي   وَلا عَرَفُــوا الإِنــاثَ مِــنَ الــذُكورِ

وَلا مَــن كــانَ يَلــبِسُ ثَــوبَ صــوفٍ   مِــنَ البَــدَنِ المُباشِــرِ للحَريــرِ

إِذا أَكَــلَ الثَــرى هَــذا وَهَــذا   فَمــا فَضــلُ الكَــبيرِ عَلــى الحَقــيرِ[1]

فقد اشتملت الأبيات على العديد من المتضادات التي تشكل جميع الثنائيات المتضادة في الحياة فالناس إما أغنياء أو فقراء ،عبيد أو موالٍ ، ذكور أو إناث . . ولا سبيل لوجود غير هذه الأصناف ،فالشاعر بنظرته الشمولية للحياة استطاع أن يجمع جميع هذه المتضادات في ربقة ، ويوفق بينها تحت حكم واحد وهو المساواة والتأكيد عليها ،يقول الدكتور عبد الله الطيب في ذلك :"وهذا النوع من الطباق ،يلجأ إليه شعراء لدفع الشك والتأكيد المطلق "[2] .

ومن الجدير بالذكر أن البيت الأخير تقل فيه جودة الطباق لأن المضاد المحض للكبير هو

---

١ ديوان الغزال – ص٨٦

٢ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها – ٢/٢٧٧

الصغير ،إلا أن تآزر الجناس مع الطباق في الكلمتين أدى إلى تقوية المعنى وأوجد انسجام أكثر بينهما . كما يظهر الطباق في قول الغزال أيضا :

أَخِـي عُدَّ مَـا قَـاسَيْتَهُ وَتَقَـلَبَتْ عَلَيْـكَ بِـهِ الـدُّنْيَا مِـنْ الخَيْـرِ والشَّـرِ

فَهَـلْ لَكَ فِي الدُّنيا سِوَى السَّـاعَةِ التي تَكُونُ بِهَـا السَّـرَاءُ أَو حَاضِـرِ الضُّـرِّ[1]

فقد طابق الشاعر بين (الخير والشر) وهما من النوازع التي تنتزع الإنسان في حياته ،فليست الحياة خيرًا محضاً ولا شرًا محضاً ، بل يتقلب على الإنسان كليهما . كذلك يظهر التطابق بين (السراء والضر) ،وهما نتيجة طبيعية لما يتقلب على الإنسان من خير وشر ، وهاتان الكلمتان مع تضادهما في المعنى إلا أن توازنهما من حيث العروض غير تام لمكان الألف والهمزة في السراء وانعدامهما في الضر . وقد لعب هذا الطباق دوراً مهماً في تأكيد المعنى ،وتقوية الجرس الموسيقي ، هذا وفي تكرار حرف السين ــ وهو من الحروف التي تتميز بنغم موسيقي خاص– دور في إحداث التناغم الموسيقي في الأبيات .

وفي قول ابن عبد ربه أيضاً :

كَـأَنَّ سَـوادَ لِمَّتِـهِ ظَـلامٌ أَغَـارَ مِـنَ المَشِـيبِ عَلَيْـهِ نُـورُ[2]

استعمل الشاعر الطباق هنا بألفاظ حقيقية في معانٍ مجازية ، فالمعنيان الحقيقيان هما سواد الشعر وبياضه ،وهما متضادان ،وإن كان التضاد خفياً لأن الذي يضاد السواد هو

١ ديوان الغزال – ص٧٩-٨٠

٢ ديوان ابن عبد ربه – ص ٩٠

البياض لا الشيب ،ولكن لاتحادهما في اللون جرى مثل هذا الجمع بين المعنى وما يتعلق بما يقابله،والمعنيان المجازيان هما الظلام والنور وهما متضادان أيضا ،ولكن تضاد ظاهر ،فجاء التضاد هنا متحققاً بين المعاني الحقيقية والمعاني المجازية ، لذا كان أكثر قوة ووضوح ودلالة على هذه الصورة التي يصور بها الشاعر اختلاط البياض بالسواد كاختلاط النور بالظلام . والجمع بين عدة أضداد يطلق عليه علماء البديع مقابلة[1] .

ومن ذلك أيضاً قول ابن عبد ربه :

فَكَمْ سَخِنَتْ بِالأَمْسِ عَيْنُ قَرِيرَةُ وَقَرَّتْ عُيُوناً دَمْعُهَا الْيَوْمِ سَاكِبُ[2]

فالتضاد هنا بين (سخنت وقرت) ،وبين (الأمس واليوم) ،ومن المعروف أن ضد السخونة البرودة ،ولكن عندما كان في القرار معنى الهدوء ،والراحة والسكون كان ذلك ملائمًا للتضاد مع سخنت ،فالتضاد هنا خفي ،وقد قابل الشاعر بين هذا التضاد الخفي وبين التضاد الظاهر في الأمس واليوم لما في ذلك من وضوح وجلاء للمعنى .

ومن الطباق ما يسمى بطباق السلب: وهو ما كان أحد طرفي الطباق مثبتا والآخر منفيا والمعنى واحد في كل من اللفظين[3] . ومن طباق السلب قول الأمير عبد الله :

أغفَلْتَ عَنْ طَلَبِ النَّجَاةِ وَلاَ نَجَاةَ لِمَنْ غَفَلْ[4]

---

١ انظر علم البديع –د.بسيوني فيود – ص ١٢٨

٢ ديوان ابن عبد ربه – ص ٤٩

٣ انظر علم البديع –د.بسيوني فيود – ص ١١٩
٤ كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب-٢/١٥٥

فقد طابق الشاعر بين (النجاة ،ولا نجاة) ، والشاعر بهذا الترديد ،والتكرار يعطي الكلام لوناً من الإيقاع الموسيقي أقرب للغناء ،هذا مع ما أضفاه على المعنى من قوة .

وهكذا فقد عمل الطباق وما رافقه من مقابلة على إحداث التناغم الموسيقي في الأبيات ،هذا بالإضافة إلى ما قدمه من تقوية للمعنى الذي يريد الشاعر تثبيته في الأذهان ، خاصة ما كان منه في مجال الدعوة والموعظة . ويذكر الدكتور عبد الله الطيب الفرق بين كل من الطباق والجناس من حيث جوهرهما في الصناعة الشعرية والجرس الموسيقي بأن "الجناس عامل يظهر أثره في وحدة الجرس ،والطباق عامل يظهر أثره في تنويع هذه الوحدة "[١] .

٣- السجع

للسجع دور مهم في إحداث الرنين الموسيقي الجذاب ، خاصة إذا أجاد الشاعر في الإتيان به وفقاً للشروط التي وضعها علماء البديع [٢] ،"كما أن لطبيعته التكرارية تأثيرا على النفس جميلا عن طريق الإيقاع الصوتي المتحقق بين الحرفين المتقافيين أو البنيتين المتوازيتين بما ينشأ من جرس متوازن "[٣] .

وقد عرَّفه الكثير من العلماء بكثير من التعريفات منها تعريف الخطيب القزويني الذي جمع بين تعريفه وتعريف السكاكي بقوله:"هو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد

١ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها – ٣٠١/٢

٢ انظر الشروط في علم البديع –د/بسيوني فيود–ص٢٥١ –وأنظرها أيضا في علم البديع–د/عبد العزيز عتيق–ص١٦٨
٣ موسيقى الشعر –د/محمود عسران–ص٢٢٣

وهذا معنى قول السكاكي الأسجاع من النثر كالقوافي في الشعر "[1] .

وظاهر التعريف اختصاص السجع بالنثر ، إلا أن ما نشاهده في دواوين الشعراء التي تكتظ بأنواعه المختلفة يدل على خلاف ذلك . وفي ذلك دلالة على عموم السجع في الشعر والنثر .

وشعراء الزهد مثل غيرهم من الشعراء اهتموا بالجانب الموسيقي ،وبكل ما يثري هذا الجانب ،فأكثروا من توافق الحروف في أبياتهم من هؤلاء موسى بن أصبغ المرادي في قوله :

مَتى يَعْتلي عَـزْمي ويَـذْكي سَنَـا لُبِّي   وَأسقِـي بِكَأْسِ الصِّـدقِ مِنْ مَائِه العْذبِ[2]

مثل هذا السجع يطلق عليه علماء البلاغة (المطرف) ، "وهو ما اختلف فيه الفاصلتان أو الفواصل وزناً واتفقت روياً "[3] ،وهذا ما يظهر في الشطر الأول من البيت ،ومثل هذا السجع يضفي على البيت نوع من التراسل الصوتي الذي ينتهي بالشاعر إلى المعنى الذي أراده . ومن أمثلة ذلك أيضاً قول الغزال :

أَيـا لاهِيـاً في القَصْـرِ قُـرْبَ المَقَـابرِ   يـرى كُـلَّ يَـومٍ وارِداً غَـيرَ صـادِرِ[4]

يظهر اتفاق الفاصلتين في الروي فقط ،ومع ذلك أفاد هذا الاتفاق في إحداث النغم الموسيقي وذلك لأن حرف الروي هو الراء ،والراء حرف تكراري بطبعه ويحدث عن تكراره فخامة وقوة في النغم .

---

١ الإيضاح في علوم البلاغة – ص ٤٠٢
٢ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس – ص١٣٢
٣ علم البديع-د/عبد العزيز عتيق-ص١٦٩
٤ ديوان الغزال – ص ٨١-ص٨٢

وجاء من المطرف قول ابن عبد ربه :

بادِرْ إلى التَّوبَةِ الخَلصاءِ مُجْتَهِداً وَالمَوْتُ وَيْحَكَ لَمْ يَمْدُدْ إليكَ يَدا[1]

من الواضح اختلاف الكلمتين في الوزن ،واتفاقهما في الروي ،وقد لا يكون هذا السجع حسنا وذلك للفرق في الطول بين الكلمتين فالأولى أطول بكثير من الثانية ،إلا أنه أسهل تناولاً .

ومن أنواع السجع أيضاً (المتوازي) وهو ما اتفقت فيه الفاصلتان وزنا ورويا[2] ،وقد استعمله شعراء الزهد في الكثير من الأبيات من ذلك قول ابن عبد ربه :

أَطلالُ لَهْوِكَ قد أَقْوتْ مَغانِيها لم يَبقَ من عهدِها إلا أثافيها[3]

يظهر السجع في الكلمتين (مغاني و أثافي) ،مع ما اتصل بهما من هاء الوصل وألف الإطلاق وكلا الكلمتين متفقتان في الوزن والروي ،مما أعطى المعنى بعدا وطلاقة . ومن السجع المتوازي قول ابن عبد ربه :

كآبَةُ الذُّلِّ في كتابي وَنَخْوَةُ العِزِّ في جَوابي[4]

وقد أدى تساوي الفقرتين وتوازنهما مع ما في البيت من طباق بين (الذل ،والعز) ، إلى التوافق الصوتي الذي أدى بالتالي إلى جمال الموسيقى في البيت . ويعد "أحسن السجع

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص٦٨
٢ انظر علم البديع-د.بسيوني فيود – ص٢٥٣

٣ ديوان ابن عبد ربه – ص١٦٧
٤ نفسه – ص ٥١

وأشرفه منزلة للاعتدال الذي فيه هو ما تساوت فقراته في عدد الكلمات"[١] كما في هذا البيت . هذا وأشير هنا إلى أن السجع عموماً لا يعد زينة شكلية فحسب بل إن دوره في تثبيت المعاني بما يحدثه في الأبيات من تناغم وتماثل وتناسب أمر لا يمكن تجاهله ،ولو كان السجع قبيحا لما ورد في كتاب الله عز وجل بكثرة . لذا يعد السجع بليغا ومحببا إذا استدعاه المعنى ،وقد سبق أن أشرت إلى رأي الجرجاني الذي يؤكد هذا الأمر .

"وترجع بلاغة السجع إلى أنه يؤثر في النفوس تأثير السحر ،ويلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم ،لما يحدثه من النغمة المؤثرة والموسيقى القوية التي تطرب لها الأذن وتهش لها النفس "[٢] .

٤- التقطيع الصوتي[٣]

وهو ما أطلق عليه الدكتور عبد الله الطيب مسمى (التقسيم) ،وعرفه بأنه :"تجزئة الوزن إلى مواقف ،أو مواضع ، يسكت فيها اللسان أو يستريح في أثناء الأداء الإلقائي "[٤] ،وهناك خلط واضح عند القدماء فيما ندرسه من تقطيعات صوتية وبين ما أطلق عليه علماء البديع التقسيم الذي عرفه ابن رشيق بقوله :" استقصاء الشاعر جميع أقسام ما ابتدأ به"[٥] ،وقد فسر الدكتور عبد الله الطيب هذا الخلط بقوله :"والغالب على

---

١ علم البديع-د/عبد العزيز عتيق-ص١٧١
٢ علم البديع –د/بسيوني فيود – ص٢٦٠
٣ اقتباس من الدكتور علي نجيب عطوي في كتابه الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة –ص٣٣٨

٤ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها – ٣٠٣/٢
٥ العمدة – ٥٩٤/١

مذهب القدماء ،أنهم لم ينظروا إلى التقسيم من حيث كونه أمراً جرسياً ،ولكن من حيث كونه أمراً يتعلق بالمعنى"[١] .ولقد لجأ شعراء الزهد إلى التقطيع الصوتي بكثرة في أبياتهم ، بحيث أصبح كل شطر من البيت وكأنه عبارة عن عبارات متوازنة ومتفقة تسير على نظام خاص ،الأمر الذي أكسب الأبيات جمالاً موسيقيا أخاذاً فأصبحت أشبه بأمواج البحر ،تعلو حينا وتهبط حين ،ومن أمثلة ذلك أبيات الأمير عبد الله التي يقول في مطلعها :

يـــا مَـــــنْ يُراوِغُـــهُ الأجَـــلْ   حَتَّــــامَ يلـــــهِيكَ الأَمَـــــلْ[٢]

جاء التقطيع هنا في عبارات قصيره جدا قد لا تتجاوز كلمة كلمة ،كما يظهر أيضا في إحداث هذه الموازنة بين شطري البيت في الحركات والسكنات ،الأمر الذي أضفى على موسيقى البيت قوة في الدلالة على المعنى .كما استخدم الغزال التقطيع الصوتي في كثير من أبياته منها :

لَقَـــدْ فَسَـــدَتْ فَمَــا تَلْقَـــى   بِهـــا مَـــنْ لَـــيْسَ ذا شَـــجَنِ
وَصَـــارَ الحَـــيُّ مِنّـــا يَغْـــ   ـبِـــطُ المَلْفُـــوفَ في الكَفَـــنِ[٣]

يظهر في البيتين أثر التقطيع الصوتي الذي جمع الشاعر إلى جانبه توالي حركات المد ،هذا بالإضافة إلى كون البحر العروضي هنا مجزوء الوافر بضرب صحيح ،وإن كان الشاعر لم يلتزم بالوقوف على الموقف العروضي ،إلا أن توازن التقطيع هنا له دور بارز في موسيقية

١ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها – ٢/٣٠٦ ٣ ديوان الغزال – ص ١٠٩
٢ كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب-٢/١٥٥

الأبيات . ومن ذلك أيضا قول الغزال :

أَنـا شَـيخٌ وَقُلـتُ في الشَـيخِ مـا يَعـ ـــلَمُهُ كُـــلُّ أَبلَـــهٍ وَذَهـــينِ
كُـلُّ شَـيخٍ تَـراهُ يُكثِـرُ مِـن كَسـ ـبِ الجِــــواري فَخُـــذهُ لي بِـــالقُرونِ[1]

ففي البيتين تقسيمات واضحة لم يلتزم فيها الشاعر بمواضع محددة للوقف ،ولم يلتزم بالوقف العروضي بدليل الصدور الموصولة بالأعجاز ، ومع ذلك أحدث هذا التقطيع نغمة موسيقية متموجة ، بدأت هادئة ثم اضطربت قليلا ثم عادت للهدوء مجددا . وابن عبد ربه أفاد أيضا من التقطيع الصوتي في أبياته ،من ذلك قوله :

أَلا إِنَّمـــا الـــدُّنيا نَضَـــارَةُ أَيكـــةٍ إِذا اخْضَـرَّ مِنْهَـا جَانِـبُ جَـفَّ جَانِـبُ[2]

قد يقع الوقف على كلمة (الدنيا) ،إلا أن من الممكن اختصار ذلك عند الإلقاء ،لكن يظهر أكثر ما يظهر الوقف الملزم في الشطر الثاني من البيت على كلمة (جانب) الأولى ،حيث يستريح اللسان ثم يواصل . فيظهر لي أن في الشطر الأول من البيت وقفا اختياريا ،وفي الثاني إلزاميا . ومن ذلك أيضا قول ابن عبد ربه في الدنيا أيضا :

ألا إِنَّمَـــا الـــدُّنيا كَـــأَحْلامِ نَـــائِمٍ وَمَـا خَيْـرُ عَـيْشٍ لاَ يَكُـونْ بِـدَائِمِ[3]

ويظهر الوقف هنا في الشطر الأول من البيت إلزامياً وذلك لانفصال الكلام بكاف التشبيه ،وفي الشطر الثاني اختيارياً على تنوين كلمة (عيشٍ) ،وساعد تكرار حرف الميم

١ ديوان الغزال —ص١١٤

٢ ديوان ابن عبد ربه — ص ٤٩

٣ نفسه — ص ١٥٧

مع ما في البيت من تقطيع صوتي على إحداث نغمات موسيقية متوازنة . ومن التقطيع الصوتي ما ورد في قول ابن عبد ربه أيضا :

مَــنْ لي إذا جُـدْتُ بَـينَ الأَهْـلِ والوَلَـدِ وَكَـانَ مِنّـي نَحْـوَ المـوْتِ قِيـدَ يَـدِ

وَالـدَّمْعُ يَهْمُـلُ وَالأَنفـاسُ صَـاعِدَةٌ فَالـدَّمْعُ في صَبَبٍ والنَّفْسُ في صُعُـدِ

ذَاكَ الْقَضَـاءُ الذي لا شَـيءَ يَصْـرِفُهُ حَتَّـى يُفَـرِّقَ بـينَ الـرُّوحِ وَالجَسَـدِ[1]

ويميز التقطيع هنا أن جميع مواقع الوقف متحركة بحركات مختلفة أسهمت في إحداث الموجة الموسيقية في الأبيات . ومن التقطيع الصوتي عند ابن عبد ربه قوله في الشيب :

بَيَـــاضُ شَـــيْبٍ قَـــدْ نَصَـــعْ رَفعتُـــهُ فَمَـــا ارتَفَـــعْ[2]

ومما ساعد على جمال الموسيقى هنا هو التناوب بين المتحرك والساكن في تقطيع الأبيات بحيث أصبحت دقات الوزن دقات إيقاعية . كما جرى غربيب الطليطلي على هذا النسق في أبياته التي منها :

يُهَـــدِّدُني بمخلـــوقٍ ضَـــعِيفٍ يهـــابُ مِـــنَ المنيَّـــةِ مَـــا أَهَـــابُ

ولَـــيْسَ إليـــهِ محْيـــى ذي حَيَـــاةٍ ولـــيسَ إلَيْـــهِ مَهْلـــكُ مَـــنْ يُصَـــابُ

لَــــهُ أَجَــــلٌ ولي أَجَــــلٌ وكــــلٌّ سَــيَبْلغُ حَيْــثُ يُبْلُغُــهُ الكِتَــابُ[٣]

---

١ ديوان ابن عبد ربه – ص ٧٦

٢ نفسه – ص ١١١

٣ المغرب في حلى المغرب – ٢/ ٢٤ ، كما وردت في جذوة المقتبس – ص ٣٠٧

كاد التقطيع هنا أن يقف على كل كلمة على حده ،وذلك لارتباطها بما يريد الشاعر من تعزيز لبعض المعاني ،كما ساعد تكرار بعض الكلمات على خلق موسيقية الأبيات التي لعب التقطيع دوراً بارزاً فيها .وفي قول موسى بن أصبغ المرادي:

مَتَى يَعْتَلِي عَـزْمِي وَيَـذْكِى سَنَـا لُبِّي وَأَسقِـي بِكَأْسِ الصِّـدقِ مِنْ مَائِه العْذبِ[١]

يظهر التقطيع الصوتي المصاحب لتكرار ياء المتكلم وحركته المشددة ،الأمر الذي أكسب النغمة الموسيقية قوة في الصوت ،وطلاقة في الأداء .

ومن هنا فمثل هذه التقطيعات الصوتية أو التقسيمات كثيرة في شعر الزهد ،وقد يكون السبب في كثرتها حاجة الزهاد إلى تعزيز بعض المعاني وتقويتها ،بما يحدثونه من تلاؤم صوتي بين الألفاظ وتناغم بين الكلمات .

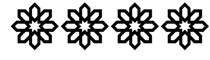
فقد أدرك شعراء الزهد أهمية الجانب الموسيقي في أبياتهم ،ومدى تأثر الناس بهذا الجانب ، خاصة وأن الزهد يعد حركة مضادة للموسيقى والغناء وما صاحبهما من لهو ومجون كما أسلفت ،وأبيات الزهد تأخذ طابع المقطوعة أكثر من القصيدة ،فكان لابد

للشاعر من تكثيف عواطفه ومشاعره ،وتعزيز معانيه بكل طريقه ممكنة ،ولا يستطيع أن يأتي بذلك بدون الموسيقى .

١ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس – ص٣١٦

لذا تعد الموسيقى عامة بكل التفصيلات التي أسهمت في إحداثها ذات أهمية بارزة في شعر الزهد الذي يعتمد بصفة أساسية على العاطفة والمشاعر الإنسانية ،ومخاطبتها بلغة خاصة تعتمد اعتمادا رئيسيا على الرنين الموسيقي الذي يداعب المشاعر حيناً ويهزها أحياناً ، فاعتمد الشعراء في إحداث ذلك على صب شعرهم وفقاً لقوالب خاصة من البحور ذات الجلال والفخامة ،التي تناسب شرف هذا الموضوع وعظمته ،مع إبراز للقوافي التي عندها يتوقف النغم محدثاً هزة شعورية في نفس المتلقي عند القوافي المقيدة ، وتفاعلا مستمراً منه عند القوافي المطلقة التي يتبعها بخياله إلى أرجاء رحبة دون حدود وقيود وطوق ذلك كله بتأثره بالقرآن الكريم لفظا ومعنى وفاصلة الذي يحمل في طياته التجدد والاستمرار في غزارة ألفاظه ، ومعانيه ،وموسيقية مؤثرة في فواصله .

هذا مع ما تضيفه صور التضاد المختلفة ، وألوان الجناس المشرقة ، ورنات السجع المتناغمة ، وضربات التكرار المتوالية، وتقسيمات الأبيات المتزنة ، من جمال في النغم وموسيقية في الألفاظ وتقوية وتأكيد للمعاني .



الخاتـــــمة

الخـــــاتمة

تناولت هذه الدراسة شعر الزهد في الشعر الأندلسي حتى أواخر القرن الثالث الهجري ، وقد تحدثت في مدخل الدراسة عن الزهد لغة واصطلاحا ،وحقيقة الزهد ، ووجوده في الكتاب والسنة ، ممهدة بذلك للحديث عن الزهد في الأندلس في هذه المرحلة ، مع تسليط الضوء على الجوانب المهمة لهذه المرحلة سياسيا ،واقتصاديا ، واجتماعيا .

هذا وقد قسمت الدراسة إلى فصلين خصصت الفصل الأول للدراسة الموضوعية ،والفصل الثاني للدراسة الفنية ، وقسمت كل فصل إلى عدة مباحث ، يضم الفصل الأول مبحثين ، تحدثت في المبحث الأول عن مصادر شعر الزهد التي تتمثل في الكتاب والسنة ،وأقوال العرب ،وتحدثت في المبحث الثاني عن محاور شعر الزهد كزوال الدنيا ،والموت والتوبة . .وغيرها . ويضم الفصل الثاني ثلاثة مباحث ، تحدثت في المبحث الأول عن

اللغة وما تتضمنه من ألفاظ ،وتراكيب ، وأساليب مختلفة . وفي المبحث الثاني عن الصورة الفنية ودورها . وفي المبحث الثالث تناولت الجانب الموسيقي في الأبيات من بحور مختلفة ، وقوافٍ ،وإيقاع .

راجية من الله عز وجل أن تسهم هذه الدراسة في إثارة هذا الموضوع بين الدارسين ليلقى نصيبه من الاهتمام بالبحث والدراسة .ولعل من أبرز النتائج التي خرجت بها هذه الدراسة ما يلي:

١ – اقتران انطلاق شعر الزهد بثورة الفقهاء على الحكم الربضي لتحرره ومجونه في بداية حكمه ، فكان شعر الزهد تنفيساً عن موجات الغضب التي انتابت الفقهاء وغيرهم من أفراد المجتمع في تلك المرحلة .

٢ – بروز الشخصية الأندلسية الدينية التي تتجلى في الاعتماد على المصادر الدينية والعلم الواسع بكتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .الذي يظهر في كثرة اقتباسهم من هذه الأصول لفظا ومعنى وفكرة .

٣ – توافر الانفعال الصادق والتجربة الشعرية في أبيات الزهد التي تترجم في الغالب حقيقة وواقعاً ملموساً .

٤- سعة اطلاع الأندلسيين على علوم الشرق وانكبابهم المتواصل عليها بحثا وتمحيصا ،الأمر الذي يتجلى بصورة واضحة في أشعارهم المتأثرة بأقوال القدماء وأمثالهم وأشعارهم .

٥- تنوع المحاور التي دار حولها مجمل ما وصلنا من أبيات الزهد ،وهذا يدل على شمول الزهد لكافة جوانب الحياة الدنيوية والأخروية كافة .

٦- اعتماد شعر الزهد في الكثير من جوانبه على الأساليب الإنشائية أكثر من الخبرية .

٧- تفوق شعر الزهد في توظيف الأشكال الموسيقية ،وميله إلى السهولة والوضوح في ألفاظه وتراكيبه وأساليبه .

والحمد لله أولاً وآخراً

فهرس الشعراء المغمورين

فهرس شعراء الزهد المغمورين

١ – عباس بن ناصح :

ترجم له ابن الفرضي (تاريخ علماء الأندلس : ج١ –ص٢٩٦) ، وابن سعيد (المغرب في حلى المغرب:ص ٣٢٤)

هو عباس بن ناصح الثقفي ،من أهل الجزيرة ،يكنى أبا العلاء ،كان له رحلتين كلاهما إلى العراق الأولى لقي فيها الأصمعي وغيره ،والثانية لقي فيها أبو نواس واستنشده من شعره ، قال عنه أبن حيان :كان عالما شاعرا أثيرا عند الخلفاء المروانيين ، لم تذكر المصادر التي تحدثت عنه تاريخ ولادته أوفاته . .(تاريخ علماء الأندلس :ج١ –ص ٢٩٦ –المغرب في حلى المغرب : ص ٣٢٤)

٢ – عبد الملك بن حبيب :

ترجم له ابن الفرضي (تاريخ علماء الأندلس: ج١-ص٢٦٩)، وابن خطيب (الإحاطة في أخبار غرناطة: ص ٥٤٨)، والحميدي (جذوة المقتبس: ص ٢٦٣)، وابن عذاري (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب -ج٢-ص١١٠)، وابن سعيد (المغرب في حلى المغرب: ج٢-ص ٩٦)، والمقري (نفح الطيب: ج٢-ص ٥)

وهو عبد المَلِك بن حَبيب بن سُلَيْمان بن هارون بن جاهمة بن عَبّاس بن مرْداس السُّلَمِي: يُكَنّى: أبا مَرْوان. كانَ: بإلْبِيرة، وسكَن قُرطُبة وقد قِيل أنّهُ من مَوالِي سُلَيم، أصله من قرية قورت، وقيل حصن واط من خارج غرناطة، وبها نشأ وقرأ، قال ابن عبد البر. كان جماعا للعلم، كثير الكتب، طويل اللسان، فقيها، نحويا، عروضيا، شاعرا، نسابة، إخبارياً، عرض عليه قضاء القضاة فامتنع، حج وعاد إلى الأندلس بعلم جمّ، اجتمعت المصادر على أن وفاته كانت عام ٢٣٩هـ. (تاريخ علماء الأندلس: ج١-ص ٢٧٠- المغرب في حلى المغرب: ص ٩٦-الإحاطة في أخبار غرناطة: ص٥٤٨-ص٥٤٩).

٣- غربيب الطليطلي:

قصرت المراجع في ترجمة هذا الشاعر مقتصرة على ذكره وذكر بعض أبياته التي ذكرها كل من الحميدي في (جذوة المقتبس: ص٣٠٧)، والمقري في (نفح الطيب :ج٤/٣٣٢)، وابن سعيد في (المغرب في حلى المغرب: ص٢٣).

وهو شاعر قديم مشهور بالطريقة في الفضل والخير، ذكر الدكتور إحسان عباس في تحقيقه لكتاب التشبيهات بعض أخباره حيث يقول: "لعله هو غريب بن سعيد . . وكان أهل بلده طليطلة ذوي أشر وطغيان واستخفاف بعمال الدولة الأموية، وكان غريب الشاعر حكيماً داهية فكان أهل بلده يلجئون إلى رأيه، وظلت طليطلة ممتنعة على أمراء بني أمية طوال حياة غريب، وهذا يعني أن غريباً من أوائل الشعراء في الأندلس وأن وفاته تمت قبل عام ٢٠٠ وهي السنة التي جدد فيها الحكم بن هشام (توفي سنة) ٢٠٦ محاولاته للاستيلاء على تلك المدينة، وكان غريب مشهوراً بالفضل والخير" (جذوة المقتبس :ص٣٠٧ –كتاب التشبيهات : ص٣٢٥–ص٣٢٦)

٤ – محمد بن بشير المعافري :

ترجم له المقري (نفح الطيب : ج٢–ص١٤٣) ، وابن سعيد (المغرب في حلى المغرب:ص ١٤٤) ، والنباهي (تاريخ قضاة الأندلس: ص ٤٧) ،وذكره ابن عذاري عند ذكر أخبار الحكم بن هشام (كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ج٢–ص٧٨) ،كما ذكره ابن القوطية عند ذكر أخبار الحكم بن هشام أيضا (تاريخ افتتاح الأندلس :ص٦٤)

هو محمد بن سعيد بن بشير ابن شراحيل، المعافري ،أصله من جند باجة من عرب مصر ، ولاه الحكم بن هشام قضاء القضاة الذي يعبرون عنه بالمغرب بقضاء الجماعة،

بقرطبة، بعد المصعب بن عمران، رحل وحج، وسمع علماً كثيراً ، كان أقصد الناس إلى حق، وأبعدهم من جور، وأنفذهم بحكم ، توفي سنة ١٩٨ هـ . (نفح الطيب :ج٢-ص ١٤٣ -المغرب في حلى المغرب : ص ١٤٤ -البيان المغرب :ج٢-ص ٧٨) .

٥- محمد بن عبد السلام الخشني :

ترجم له ابن الفرضي (تاريخ علماء الأندلس :ج٢- ص١٤) ، والحميدي (جذوة المقتبس:ص ٦٣)

وهو محمد بن عبد السلام بن ثعلبة بن الحسن بن كليب، أو كلب، الخشني أبو عبد الله، كانت له رحلة إلى العراق وإلى غيرها من البلاد ، أقام فيها مدة طويلة، ثم رجع إلى الأندلس وحدث زماناً طويلا، وانتشر علمه ، كان فصيح اللسان ،جزل المنطق ، ضربا من الأعراب ،صارماً ،أنوفاً أراده الأمير محمد على القضاء فأبى كما ذكر إباية إشفاق لا إباية عصيان ، مات بالأندلس سنة ست وثمانين ومائتين (جذوة المقتبس-ص٦٣-ص٦٤- تاريخ علماء الأندلس -ج٢-ص ١٥)

٦- محمد بن عبد الله الغازي:

ترجم له ابن الفرضي (تاريخ علماء الأندلس : ج٢-ص٢٣) ، والسيوطي في (بغية الوعاة :ج١-ص١٤٠)

هو " محمد بن عبد الله بن الغازي بن قيس: من أهل قُرْطُبَة؛ يُكَنَّى: أَبَا عبد الله. سَمِعَ: من أبيه ورحل إلى المشرق، فدخل البَصْرة، فلقى بها أبا حاتم سهل ابن محمد السِّجِسْتَانِي، وأبا الفضل العبّاس بن الفرج الدياشي، وأبا إسحاق أبراهيم بن خِدَاشٍ، وأبا موسى عيسى بن إسماعيل العتكي، وأبا سعيد عبد الله ابن شعيب، وجماعة سواهم من أهل الحديث، ورواة الأخبار والأشعار، وأصحاب اللغة والمعاني.

وأدخل الأَنْدَلُس علماً كثيراً من الشعر والغريب والخبر. وعنه أخذ أهل الأَنْدَلُس والأشعار المشروحة كلها رواية.

وخرج من الأَنْدَلُس في آخر عمره يريد الحَجّ. فحكى يحيى بن أبي صُوفَة الجذري قال: كان عندنا أبو عبد الله بن الغازي سنة خمس وتسعين ومائتين، وخرج عنا إلى طنجة فمات بها بعد سنة أو نحوها. وكانت كتبه عند أقوام بطنجة" (تاريخ علماء الأندلس: ج٢-ص٢٣)

٧- محمد بن مسرة :

ترجم له ابن الفرضي (تاريخ علماء الأندلس: ج٢-ص٣٩)، والحميدي (جذوة المقتبس: ص ٥٨)

هو مُحَمَّد بن عَبْد الله بن مَسَرَّة بن نجيح، من أهل قُرْطُبَة؛ يُكَنَّى أبا عَبْد الله. ولد سنة ٢٦٩هـ، أُتِّهم بالزَّنْدقة فخرج فاراً، وتردد بالمشْرِق مدة، فاشتَغَل بملاقاة أهل الجَدَل،

وأصحاب الكَلاَم، والمُعْتَزِلة، ثم أنصرف إلى الأَنْدَلُس فأظهر نسْكاً وَوَرعاً ، كان على طريقة من الزهد والعبادة بسق فيها ، وافتتن جماعة من أجلها ، وله طريقة في البلاغة، وتدقيق في غوامض إشارات الصوفية، وتواليف في المعاني ، كانت وفاته كما ورد في أغلب الروايات سنة ٣١٩هـ ، عُرف مذهبه فيما بعد بمذهب ابن مسرة . (تاريخ علماء الأندلس ج٢ : ص ٣٩ – جذوة المقتبس : ص٥٨ –ص٥٩)

٨– موسى بن أصبغ المرادي :

ترجم له ابن الفرضي (تاريخ علماء الأندلس : ج٢ –ص١٤٩) ، والحميدي (جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس:ص ٣١٦)

موسى بن أصبغ المرادي أبو عمران، أندلسي كان زاهداً أديباً عالما منقطعاً إلى الله، انقطع في بعض زوايا صقلية، ومات فيما أظن فيها ، وكان طويل النفس في الشعر ، رأيت له قصائد طوالاً في الزهد ، ومنها قصيدة على حروف المعجم لكل حرف عشرون بيتاً ، خَرَجَ إلى المشرق، ودَخَل العراق ولقي بها محمد بن الحسين بن دريد وغيره . واسْتَوطَنَ صِقِلّيَة . وكان: بَصِيراً باللغة والإعراب، شَاعِراً محسناً . حُدّثْتُ أنه: نظم المبتدأ في ثمانية آلاف بيت . . (جذوة المقتبس : ص ٣١٦ – تاريخ علماء الأندلس :ج٢ – ص ١٤٩) .

٩– موسى بن حدير :

أورد ابن الأبار قصة لهذا الزاهد مع الأمير عبد الله يمكن أن أستشف من خلالها بعض أخباره (انظر القصة في الحلة السيراء: ج١ – ص ٢٣٥)

هو موسى بن محمد بن موسى بن حدير، عم الحاجب أبو الأصبغ موسى بن محمد، "المعروف بالزاهد، كان ممن يكثر مجالسة الأمير عبد الله ويصل مؤانسته. وكان حدثاً ظريف المشاهدة، مليح العبارة، إخبارياً، ممتعاً، حفظة لأخبار دولة مواليه بني أمية، مفتناً، مفوهاً، بليغاً، يقرض أبياتاً من الشعر حسنة، بديهة وروية" (الحلة السيراء: ج١ – ص٢٣٥).

المصـــادر

و

المراجـــــع

ثـبـت

المصـــادر والمراجـــــع

أولاً : القرآن الكريم

ثانياً :

١- أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم- صديق بن حسن القنوجي ،تحقيق عبد الجبار زكار- منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي – دمشق -١٩٧٨م- دار الكتب العلمية .

٢- الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين ، د.منجد مصطفى بهجت – مؤسسة الرسالة –بيروت

٣- اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري ،د/نافع محمود – ط١ لسنة ١٩٩٠م – دار الشؤون الثقافية العامة

٤- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري في القرن الثاني الهجري –د. محمد مصطفى هدارة –ط١ (١٤٠١هـ -١٩٨١م) – المكتب الإسلامي

٥- أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي منذ الفتح إلى سقوط الخلافة –الدكتور محمد شهاب العاني–سلسلة رسائل جامعية –ط١ -٢٠٠٢–دار الشؤون الثقافية العامة –بغداد

٦- آداب الشيخ الحسن بن الحسن البصري وزهده وطرف أخباره –لجمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي ،تحقيق سليمان بن مسلم الحرش–ط١-١٤١٤هـ-١٩٩٣م - دار المعراج الدولية للنشر

٧- الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير ، د.محمد رجب بيومي –إدارة الثقافة والنشر بجامعة الأمام محمد بن سعود

٨- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة –د.أحمد هيكل - ط ٩ – ١٩٨٥– دار المعارف

٩- الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ، د /منجد مصطفى بهجت–ط١-١٩٨٨م –جامعة الموصل

١٠- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، د/ مصطفى الشكعه -ط٩-دار العلم للملايين- بيروت

١١- الأدب الأندلسي والمغربي ، الدكتور /محمد رضوان الداية -١٤٠٠-١٤٠١هـ - ١٩٨٠-١٩٨١م – مطبعة خالد بن الوليد

١٢- أدب الدنيا والدين - لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي -تحقيق مصطفى السقا- ط٣- دار الفكر

١٣- الأدب العربي في الأندلس ، د/ علي محمد سلامة -١٤٠٩هـ/١٩٨٩م – الدار العربية للموسوعات –بيروت

١٤- الأساليب الإنشائية في النحو العربي ، عبد السلام هارون-١٤١٠هـ-١٩٩٠م-دار الجيل - بيروت

١٥- الإسلام في إسبانيا ،د/ لطفي عبد البديع -ط٢-١٩٦٩م – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة

١٦- الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ، أحمد الشايب- ط٧ - ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م -ملتزم الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية

١٧- الأصول الفنية للشعر الأندلسي، الدكتور سعد إسماعيل شلبي- ط١-١٩٨٣م - دار نهضة مصر للطبع والنشر- القاهرة

١٨- الأعلام - خير الدين الزركلي - ١٩٧٩- دار العلم للملايين – بيروت

١٩- الأمراء الأمويون الشعراء في الأندلس ،د/إبراهيم بيضون-١٩٨٢م-دار النهضة العربية-بيروت

٢٠- الأمويون أمراء الأندلس الأول ، د .أحمد إبراهيم الشعراوي-١٩٦٩-دار النهضة العربية

٢١- الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري ، محمد إبراهيم أبا الخيل – ١٤١٦هـ – مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة – الرياض

٢٢- الإنسان الأندلسي بين الواقع العربي وما طمح إليه ، الدكتور /ضاهر أبو غزالة – دار المواسم

٢٣- أوزان الشعر (دراسة في العروض والقافية) ، للدكتور / السيد محمد ديب -١٤١٥هـ/١٩٩٤م -دار الكتب

٢٤- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير - لأبي بكر جابر الجزائري -ط١- ١٤١٥هـ-١٩٩٤م - مكتبة العلوم والحكم-المدينة المنورة

٢٥- الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني – المكتبة الفيصلية –مكة المكرمة

٢٦- بحوث ندوة الأندلس الدرس والتاريخ-كلية الآداب -٢-٤ ذو القعدة ١٤١٤هـ –جامعة الإسكندرية ورابطة الجامعات الإسلامية

٢٧- بديع التراكيب في شعر أبي تمام – ٢ الجمل والأسلوب ، د.منير سلطان – ط١– منشأة المعارف بالإسكندرية

٢٨- البديع في نقد الشعر - لأسامة بن منقذ ، تحقيق الدكتور أحمد أحمد بدوي –الدكتور حامد عبد المجيد–ملتزم الطبع والنشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر

٢٩- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي- ١٩٦٧– دار الكاتب العربي

٣٠- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة –للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم –المكتبة العصرية–بيروت–لبنان

٣١- البلاغة فنونها وأفنانها- علم المعاني ، د/فضل حسن عباس - ط٧-١٤٠٧هـ/١٩٨٧م–دار الفرقان للنشر والتوزيع

٣٢- البلاغة والأسلوبية-د.محمد عبد المطلب- ط١-١٩٩٤م - الشركة المصرية العالمية للنشر- القاهرة –لونجمان-

٣٣- البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر، دكتور علي علي صبح -١٤١٦هـ/١٩٩٦م– الناشر المكتبة الأزهرية للتراث

٣٤- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس –لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي ، تحقيق محمد مرسي الخولي–ط٢-١٤٠٢هـ/١٩٨٢م–دار الكتب العلمية- بيروت –لبنان

٣٥- تاريخ افتتاح الأندلس- ابن القوطية أبي بكر محمد بن عمر ،تحقيق إبراهيم الأبياري –الناشرون دار الكتب الإسلامية

٣٦- تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة – د .إحسان عباس –سلسلة المكتبة الأندلسية ٢- – ط٧ – ١٩٨٥م- دار الثقافة- بيروت-لبنان

٣٧- تاريخ الأدب العربي -الأدب في المغرب والأندلس إلى آخر عصر ملوك الطوائف – د/ عمر فروخ–ط١ -١٩٨١م دار العلم للملايين –بيروت

٣٨- تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس –لابن الفرضي-١٣٧٣/١٩٥٤- مكتبة المثنى ببغداد- ومكتبة الخانجي بالقاهرة

٣٩- تاريخ الفكر الأندلسي –آنخل جنثالث بالنثيا–ط١- مايو ١٩٥٥م - مكتبة النهضة المصرية

٤٠- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة ، د/ السيد عبد العزيز سالم – ١٩٩٧م– مؤسسة شباب الجامعة – الإسكندرية

٤١- تاريخ علماء الأندلس – لابن الفرضي- ١٩٦٦-الدار المصرية للتأليف والترجمة

٤٢- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن -لابن أبي الإصبع المصري ،تحقيق د/حفني محمد شرف - ١٣٨٣هـ –الكتاب الثاني – القاهرة

٤٣- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب–ط١٢- ١٤١٢هـ-١٩٩٢-دار الشروق – القاهرة- بيروت

٤٤- التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي ،د/حسن أحمد النوش- ط١- ١٤١٢هـ - دار الجيل – بيروت-

٤٥- التعريفات -لعلي بن محمد الشريف الجرجاني ، تحقيق الدكتور محمد عبد الرحمن المرعشلي – الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م – دار النفائس

٤٦- التعليق الأسني منظومة أسماء الله الحسنى ، لجامعه عبد الفتاح بن حسين – ط٣ – ١٣٨٧هـ - مطبعة المدني

٤٧- تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل -لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ،تحقيق خالد عبد الرحمن العك-مروان سوار - ط١- ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م – دار المعرفة بيروت-لبنان

٤٨- تفسير الطبري ، لا بن جرير الطبري-١٣٩٨هـ-١٩٧٨م -دار الفكر للطباعة والنشر -بيروت

٤٩- تفسير القرآن العظيم ،لابن كثير -ط٦- ١٤١٣هـ-١٩٩٣م -دار المعرفة -بيروت -لبنان

٥٠- التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ، مجاهد مصطفى بهجت – سلسلة الكتب الحديثة – ١٨- وزارة الأوقاف والشؤون الدينية - بغداد

٥١- الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي-١٣٨٧هـ-١٩٦٧م – دار الكاتب العربي للطباعة والنشر – القاهرة

٥٢- الجامع لشعب الإيمان -لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق الدكتور/ عبد العلي عبد الحميد حامد- الدار السلفية -بومباي -الهند

٥٣- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس - لأبي عبد الله محمدالحميدي ، تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي -من تراث الأندلس ١- مكتبة الخانجي

٥٤- جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب ، د.ماهر مهدي هلال-دار الرشيد للنشر

٥٥- جمهرة اللغة - لابن دريد-الطبعة الأولى-سنة ١٣٤٥هـ -مكتبة المثنى -بغداد
٥٦- الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ، ألبير حبيب مطلق- ١٩٦٧م - المكتبة العصرية
٥٧- حضارة العرب في الأندلس ، خير الله طلفاح - ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م - دار الحرية للطباعة - بغدد
٥٨- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني الشافعي ، تحقيق عبد الله المنشاوي-محمد أحمد عيسى -محمد عبد الله الهندي-ط١ ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م-مكتبة الإيمان - المنصورة
٥٩- الحيوان ، لأبي عثمان عمر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون -١٣٥٦- ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م - ط١-مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر
٦٠- خصائص الحروف العربية ومعانيها ، حسن عباس -١٩٩٨م -منشورات اتحاد الكتّاب العرب
٦١- دراسات في الأدب الأندلسي، د/سامي مكي العاني-ط١-١٩٧٨م-١٣٩٨هـ- الجامعة المستنصرية
٦٢- دراسات في العروض والقافية ، د/عبد الله درويش-ط٣-١٤٠٧هـ/١٩٨٧م -مكتبة الطالب الجامعي-مكة المكرمة -العزيزية
٦٣- دراسات في علم المعاني ،د/ عبد الواحد حسن الشيخ - مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية - مصر - ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م
٦٤- دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالأندلس في عصري الإمارة والخلافة -للدكتور /خليل إبراهيم الكبيسي -ط١- ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م -دار البشائر الإسلامية

٦٥- دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر ، محمد عبد الله عنان – ٢٠٠٣م – مكتبة الأسرة

٦٦-ديوان أبو الأسود الدؤلي صنعه أبي سعيد الحسن السكري ، تحقيق محمد آل ياسين -١٤١٨ه-١٩٩٨م -دارومكتبة الهلال

٦٧- ديوان البحتري ، عبد الرحمن أفندي البرقوقي -١٣٢٩هـ/١٩١١م – ط١- مطبعة هندية بالموسكي -مصر

٦٨- ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت -د .حنا الحتي-١٤٢٤هـ -دار الكتاب العربي

٦٩- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان -ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا-إبراهيم الإبياري -عبد الحفيظ شلبي- الطبعة الأخيرة ١٣٩١هـ/١٩٧١م – مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر

٧٠- ديوان أبي العتاهية – ط٤- ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م -دار الكتب العلمية -بيروت – لبنان

٧١- ديوان العجاج – رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي- تحقيق عزة حسن- مكتبة دار الشرق – بيروت

٧٢- ديوان ابن المعتز – دار صادر للطباعة والنشر -١٣٨١هـ/١٩٦١م- دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت

٧٣- ديوان امرئ القيس – دار صادر -بيروت- ط١- ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م-١٤١٨هـ/١٩٩٨م

٧٤- ديوان أمية بن أبي الصلت – تحقيق د/ عبد الحفيظ السلطي – المطبعة التعاونية – دمشق- ط٢- ٢٠٠٠/٨/١٩٧٧

٧٥- ديوان دريد بن الصمة الجشمي-تحقيق محمد خير البقاعي-١٤٠١هـ-١٩٨١م – دار قتيبة

٧٦- ديوان طرفه بن العبد -١٣٩٩هـ-١٩٧٩م -دار بيروت للطباعة والنشر

٧٧- ديوان ابن عبد ربه الأندلسي مع دراسة لحياته وشعره – تحقيق الدكتور محمد التونجي – ط١- ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م –دار الكتاب العربي

٧٨- ديوان عنترة – تحقيق محمد سعيد مولوي- ١٩٦٤م - المكتب الإسلامي

٧٩- ديوان أبي فراس – رواية أبي عبد الله الحسين بن خالوية –١٣٨٠هـ/١٩٦١م – دار صادر للطباعة والنشر – دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت

٨٠- ديوان محمود بن الحسن الوراق البغدادي – تحقيق د/ محمد زهدي يكن - ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م – دار يكن للنشر – بيروت

٨١- ديوان أبي نواس – دار صادر للطباعة والنشر –١٣٨٢هـ/١٩٦٢م – دار بيروت للطباعة والنشر- بيروت-

٨٢- ديوان يحيى بن حكم الغزال – تحقيق د/محمد رضوان الداية –ط١-١٤٠٧هـ/١٩٨٢م– دار قتيبة

٨٣- الزهاد الأوائل دراسة في الحياة الروحية الخالصة في القرون الأولى ، د/ مصطفى حلمي–ط١ - المحرم سنة ١٤٠٠هـ/ديسمبر سنة ١٩٧٩م – دار الدعوة–الإسكندرية

٨٤–الزهد ، لأحمد بن حنبل - ط١- ١٩٨١م – دار النهضة العربية – بيروت

٨٥- الزهد الكبير ، لأحمد بن حسين البيهقي- ط٢- ١٤٠٣هـ–١٩٨٣م - دار القلم –الكويت

٨٦- السجل العلمي لندوة الأندلس – اللغة والأدب- ١٤١٧هـ/١٩٩٦م–مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة

٨٧- سعيد بن جودي السعدي الإلبيري الأندلسي سيرته ومجموع شعره ، د.محمد رضوان الداية- ١٩٩٧م –دار الفكر - دمشق

٨٨- سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي –ط١- ١٩٨٧م –بيروت–دار الكتب العلمية

٨٩- سنن النسائي – تصنيف أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الشهير بالنسائي- علق عليه محمد ناصر الدين الألباني -ط١- مكتبة المعارف للنشر والتوزيع -الرياض

٩٠- السيرة النبوية - لابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وزملائه-ط٢- ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م - مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر

٩١- شرح كتاب أهدى سبيل إلى علمي الخليل العروض والقافية -الأستاذ محمود مصطفى- دار الكتب العلمية – لبنان

٩٢- الشعر الأندلسي ، إميليو جارثيا جوميث – ترجمه عن الإسبانية حسين مؤنس – ط٢- ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م – دار الرشاد

٩٣- شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة ، د.علي نجيب عطوي- ط ١ – ١٤٠١هـ /١٩٨١م - المكتب الإسلامي-بيروت – دمشق

٩٤- شعر بني أمية في الأندلس حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، د/ السيد أحمد عمارة -ط٢- ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م – مكتبة المتنبي

٩٥- شعر سابق بن عبد الله البربري -تحقيق د/بدر ضيف - ط١ - ٢٠٠٤م- دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

٩٦- الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، د/محمد مجيد السعيد- ط١- ١٩٨٥م -الدار العربية للموسوعات -بيروت -لبنان

٩٧- الشعر والبيئة في الأندلس -د.ميشال عاصي-ط١-منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع -بيروت

٩٨- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها -لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا الرازي اللغوي ، تحقيق الدكتور/ عمر فاروق الطباع-ط١-١٤١٤هـ/١٩٩٣م-مكتبة المعارف -بيروت

٩٩- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية -إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار -الطبعة الثانية-بيروت ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م-دار العلم للملايين

١٠٠- صحيح الإمام البخاري -لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري- -ط١-١٤٢٢هـ -دار طوق النجاة-بيروت -لبنان

١٠١- صحيح سنن الترمذي-للأمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي-تأليف محمد ناصر الدين الألباني-ط١ -١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م -مكتبة المعارف-الرياض

١٠٢- صحيح مسلم بشرح النووي - المطبعة المصرية ومكتبتها

١٠٣- الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي ، د/علي الغريب محمد الشناوي-ط١ -٢٠٠٣-مكتبة الأدب - القاهرة

١٠٤- الصورة الشعرية عند طاهر زمخشري -فاطمة بنت مستور المسعودي- ١٤٢٤هـ-مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي

١٠٥- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د.جابر عصفور-١٤٠٠هـ/١٩٨٠م -دار المعارف - القاهرة -

١٠٦- الصورة الفنية في الشعر العربي ، إبراهيم عبد الرحمن الغنيم -١٤١٦هـ - الشركة العربية للنشر والتوزيع

١٠٧- صيام يوم عاشوراء وما يرتبط بهذا اليوم - محمد عودة الرحيلي -١٤١٤هـ/١٩٩٤م- دار الرسالة

١٠٨- الطريق المعبد إلى علمي الخليل بن أحمد (العروض والقافية) ، د.عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد -١٤٠٦هـ/١٩٨٦م -مكتبة الكليات الأزهرية الأزهر-القاهرة

١٠٩- ظاهرة التوبة والاستغفار في الشعر المقصد والمقطعات من بداية العصر الأموي إلى نهاية القرن الثامن الهجري -دراسة تحليلية فنية -إعداد الباحثة رقية بنت عبد الرحمن بن إبراهيم الصبة-إشراف د/عبد الله بن إبراهيم الزهراني-عام ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م (رسالة ماجستير)

١١٠- عصر الدول والإمارات الأندلس ، د.شوقي ضيف- ط٣-١١١٩ - دار المعارف -القاهرة

١١١- العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف ، د/ رجب محمد عبد الحليم - دار الكتب الإسلامية -دار الكتاب المصري(القاهرة)-دار الكتاب اللبناني (بيروت)

١١٢- علم الأسلوب -مبادئه وإجراءاته ، د/صلاح فضل -ط٢-١٩٨٥م-الهيئة المصرية العامة للكتاب

١١٣- علم الأصوات - د/محمد أحمد محمود -الطبعة الأولى-ط١-١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م-دار اشبيليا للنشر والتوزيع

١١٤- علم البديع -د.بسيوني عبد الفتاح فيود -ط٣ -١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م- مؤسسة المختار للنشر والتوزيع

١١٥- علم البديع - د.عبد العزيز عتيق- ط١- ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م - دار الآفاق العربية

١١٦- علم العروض والقافية-إعداد راجي الأسمر-ط١-١٤٢٠هـ/١٩٩٩م - دار الجيل -بيروت

١١٧- علم المعاني -د/عبد العزيز عتيق - ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م- دار النهضة العربية للطباعة والنشر

١١٨- العمدة في صناعة الشعر ونقده-لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق الدكتور/النبوي عبد الواحد شعلان- ط١ -١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م - الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

١١٩- الفاصلة القرآنية –محمد الحسناوي- ط١-دار الأصيل

١٢٠- الفاصلة القرآنية–د .عبد الفتاح لاشين–ط١- ١٩٨٢م – دار المريخ – الرياض

١٢١- فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة –الدكتور حكمة علي الأوسي – ط٣- مكتبة الخانجي بالقاهرة

١٢٢- الفن ومذاهبه في الشعر العربي–د/شوقي ضيف–ط١٣–الناشر دار المعارف

١٢٣- في الأدب الأندلسي–د/جودت الركابي–دار المعارف

١٢٤- في محيط النقد الأدبي –د .إبراهيم علي أبو الخشب–١٩٨٥م –الهيئة المصرية العامة

١٢٥- القافية والأصوات اللغوية –د .محمد عوني عبد الرءوف –الناشر مكتبة الخانجي بمصر

١٢٦- قاموس اللغة (كتاب المصباح المنير)- أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي–نوبليس

١٢٧- القاموس المحيط –مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي–ط٢- ١٣٧١هـ/١٩٥٢م – شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٢٨- القصص القرآني في الشعر الأندلسي –د .أحمد حاجم الربيعي –ط١- ٢٠٠١–دار الشئون الثقافية العامة

١٢٩- قضايا الشعر المعاصر –نازك الملائكة –ط٥- ١٩٧٨م–دار العلم للملايين

١٣٠- القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه حتى عام ١٩٥٠م–د ثريا عبد الفتاح ملحس– ط٤ –١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م – دار البشير

١٣١- الكامل في التاريخ لابن الأثير –ط٢–١٣٨٧هـ/١٩٦٧م –دار الكتاب العربي

١٣٢- كتاب أسرار البلاغة- الشيخ عبد القاهر الجرجاني–قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر– ط١–الناشر دار المدني بجدة

١٣٣- كتاب الأغاني –لأبي الفرج الأصفهاني–ط٣–١٣٨١هـ–١٩٦٢م - دار الثقافة –بيروت

١٣٤- كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب -لابن عذارى المراكشي -تحقيق ومراجعة ج.س.كولان و إ.ليفي برفنسال -دار الثقافة - بيروت- لبنان

١٣٥- كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس -لأبي عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب - تحقيق الدكتور إحسان عباس -سلسلة المكتبة الأندلسية ١٥- دار الثقافة بيروت - لبنان

١٣٦- كتاب الحلة السيراء -لابن الأبار، تحقيق الدكتور حسين مؤنس-ط١-١٩٦٣م -الناشر الشركة العربية للطباعة والنشر -القاهرة

١٣٧- كتاب العقد الفريد - لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي -شرحه وضبطه ورتب فهارسه أحمد أمين وزملائه -الطبعة الثانية - ١٣٧٢هـ-١٩٥٢م- دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان

١٣٨- كتاب العين-لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي-تحقيق الدكتور مهدي المخزومي- الدكتور إبراهيم السامرائي-ط١-١٤٠٨هـ/١٩٨٨م-منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت-لبنان

١٣٩- كتاب تاريخ الأدب العربي - حنا الفاخوري-ط١٠-١٩٨٠م - المكتبة البوليسية

١٤٠- كتاب جمهرة الأمثال -الأديب أبي هلال العسكري - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - عبد المجيد قطايش - ط١- ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م - المكتبة العصرية صيدا - بيروت

١٤١- كتاب دلائل الإعجاز -الشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١هـ- قرأه وعلق عليه محمود شاكر -مطبعة المدني بالقاهرة - ط٣ - ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م - دار المدني بجدة

١٤٢- كتاب مفتاح العلوم -لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي -ط١-في المطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم بمصر

١٤٣- لسان العرب المحيط -لابن منظور -إعداد وتصنيف يوسف خياط- دار لسان العرب - بيروت

١٤٤- لغة الشعر في القرنين الثاني والثالث الهجريين-د/جمال نجم العبيدي- ٢٠٠٣م -دار زهران

١٤٥- مجمع الأمثال- لأبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني -تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد -ط٢ -ربيع الأول من سنة ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م -مطبعة السعادة بمصر

١٤٦- مجموع فتاوى ابن تيمية - جمع وترتيب عبد الرحمن محمد بن قاسم - مكتبة المعارف -الرباط -المغرب

١٤٧- المحكم والمحيط الأعظم في اللغة - لابن سيدة - تحقيق عبد الستار أحمد فراج-ط١-١٣٨٨هـ/١٩٦٨م - مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولادة -مصر

١٤٨- المحكم والمحيط الأعظم في اللغة- لابن سيده -تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي-ط١-١٤٢١هـ-٢٠٠٠م -دار الكتب العلمية -بيروت - لبنان

١٤٩- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها-د .عبد الله الطيب-ط٣- ١٩٨٩م - دار الآثار الإسلامية-الكويت

١٥٠- المسند -لأحمد بن حنبل - شرحه أحمد محمد شاكر -ط٢-دار المعارف -مصر

١٥١- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي -لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي - ١٣٤٢هـ - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده

١٥٢- المطرب من أشعار أهل المغرب -لابن دحية- تحقيق الأستاذ إبراهيم الابياري-الدكتور حامد عبد المجيد -الدكتور احمد احمد بدوي - ط١-١٩٥٤م - إدارة نشر التراث القديم بالإدارة العامة للثقافة بوزارة التربية والتعليم بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

١٥٣- مطمح الأنفس ومسرح التأنس- لأبن خاقان - تحقيق محمد علي شوابكله – ط١ -١٤٠٣هـ –دار عمار –مؤسسة الرسالة

١٥٤- مع المسلمين في الأندلس –د/علي حبيبة– ط٢–دار الشروق

١٥٥- المعجب في تلخيص أخبار المغرب – لعبد الواحد المراكشي –تحقيق وتعليق د.محمد زينهم محمد عزب– دار الفرجاني للنشر والتوزيع – القاهرة

١٥٦- المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر –إعداد الدكتور إميل بديع يعقوب–ط١ -١٤١١هـ/١٩٩١م - دار الكتب العلمية –بيروت –لبنان

١٥٧- معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية –عمر رضا كحالة– ط١- ١٩٥٧م –دار إحياء التراث العربي – بيروت

١٥٨- المغرب في حلى المغرب- لابن سعيد المغربي – تحقيق د/ شوقي ضيف - دار المعارف – مصر

١٥٩- المقتبس من أنباء أهل الأندلس –لابن حيان القرطبي–تحقيق الدكتور محمود علي مكي- ١٣٩٠هـ/١٩٧١م –القاهرة

١٦٠- ملامح الشعر الأندلسي–الدكتور عمر الدقاق– ط١–دار الشرق العربي –بيروت

١٦١- موسيقى الشعر –د/محمود عسران– ٢٠٠٧م - مكتبة بستان المعرفة –الإسكندرية

١٦٢- موسيقى الشعر–الدكتور إبراهيم أنيس–ط٥-١٩٨١

١٦٣- نظرات في التراث اللغوي العربي – د/ عبد القادر المهيري - ط١ – ١٩٩٣– دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٧٦- نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي –كامل الكيلاني–مطبعة المكتبة التجارية–مصر – ط١- ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م

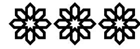
١٦٤- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – لأحمد بن مقري التلمساني –حققه د .إحسان عباس–طبعة جديدة –١٩٩٧ –دار صادر–بيروت

١٦٥- النقد الأدبي الحديث –د/محمد غنيمي هلال- دار الثقافة –بيروت –لبنان-١/٧/١٩٧٣م – دار العودة–بيروت–لبنان

١٦٦- نقد الشعر – لأبي الفرج قدامة بن جعفر- تحقيق كمال مصطفى - ط٣-مكتبة الخانجي بالقاهرة

فهرس

الموضوع **الصفحة**



الفصل الثاني

دراسة فنية